سليمان الجائع

عن الضحك والبكاء في فلسطين

حكم عبد الهادي

حكم عبد الهادي

سليمان الجائع

عن الضحك والبكاء في فلسطين

إهداء:

إلى إقبال وجودت ونجيب وناهدة

شخوص الحكاية

سليمان (أبو عطا): بطل الحكاية

سامية: والدته

عطا: والده (واسم ابنه الأكبر أيضاً)

عطاف: زوجته

فهمي: زوج أخته

عطوان: اسم العائلة

أخوات سليمان (الكبرى فالأصغر): سميرة، لمياء، وصفية، سعاد

بنات سليمان (الكبرى فالأصغر): نجلاء، أنيسة، نازك، كريمة

أبناء سليمان (الأكبر فالأصغر): عطا، حسن، هاني، عثمان، صائب، وضاح

مقدمة

بعد غياب أكثر من خمسين عاماً عن مسقط رأسي جنين/ شمال فلسطين كتبت هذه القصة في ألمانيا حيث نشرت في عام 2010 باللغة الألمانية. كانت القصة رحلة إلى الماضي، فقد كتبتها عن سليمان، بعد وفاته بأكثر من ثلاثين عاماً. هذا الرجل، الذي ولد في قرية عرابة في عام 1910 وعاش في جنين أكثر من أربعين عاماً وتوفي في عمان عام 1977. كان شخصية تستحق الكتابة، لأنه كان شاعراً وكاتباً وإنساناً جسوراً ووطنياً، عاش القضايا العربية وخاصة نكبة فلسطين بكل مرارتها. ولكن هذا الأب والجد الذي ترك عشرة أولاد وأكثر من ثلاثين حفيدة وحفيداً، أصبح معظمهم من المتعلمين والمنتجين الذين قدموا الكثير لبلادهم، كان ككل البشر لا يخلو من التناقضات ونقاط الضعف. هل علينا أن نقول: رحم الله أمواتنا ونمضي؛ أم يتوجب علينا أن نراه كما كان وكجزء من تاريخنا الذي لا يجوز أن نزوّره؟ السير الواعي إلى الأمام على المستوى الشخصي والمجتمعي يتطلب نظرة صادقة إلى الذين نعرفهم وإلى تاريخنا الذي يتكون أيضاً من أشخاص.

قررت أن أتعامل مع سليمان بصدق، ولكن هذا لا يعني أنني أكتب الحقيقة، ليس فقط لأن الذي اكتشف الحقيقة كان كذّابا، كما قال الفيزيائي والفيلسوف النمساوي هاينز فون فورستر، وإنما أيضاً لأنني هنا لا أكتب سيرة ذاتية تقليدية لشخص عرفته جيداً، وإنما قصة فيها الكثير من الخيال.

الجميل في الكتابة الأدبية أن الكاتب يستطيع أن يصنع بشراً ووقائع كما يحلو له، ولكنه - إذا أراد ألا يبالغ كثيراً في الخيال – لا بد أن يستعير صوره من الحياة، أو بالأحرى أن يعود دائماً إلى تفاصيلها، لأنها ستظل دائماً المحك ومقياس الأشياء.

أرجو من القارئات والقراء الكرام أن يعتبروا هذا الكتاب جزءاً من واقع حياتنا ومجتمعنا دون أن يحاولوا أن يحملوه ما ليس فيه، فهو لا يدعي أنه وثيقة؛ إنه رواية - أتمنى أن تكون ممتعة – عن أحداث حدثت، أو.. كادت أن تحدث.

أشكر عبد الرحمن عثمان وعارف حجاوي على ما قدماه لي من مساعدة في ترجمة الكتاب من الألمانية إلى العربية، وصياغته على نحو لغوي أرجو أن ينال إعجاب القاريء.

حكم عبد الهادي - كولن، ربيع 2011

رحلة حسن الأولى من ألمانيا إلى فلسطين وأحاديثه مع والده

"لعلك تتذكر، يا والدي، النصائح التي زودتني بها عندما سافرت إلى ألمانيا في عام 1958؟ لقد مضى الآن على سفري 15 عاما وبعد هذا الغياب الطويل ألاحظ أن أشياء كثيرة تغيرت في بلادنا وخاصة هنا في جنين."

كان حسن، أول أكاديمي في العائلة، يجلس مع والده سليمان في مقهى "أبو نهار" على أطراف البلدة التي تقع جنوب الناصرة وتبعد عنها حوالي الخمسة وعشرين كيلومتراً. الطقس كان في تلك الأمسية الصيفية معتدلاً، وكم شعر حسن في تلك اللحظة بحنين إلى الجدول الذي كان أثناء طفولته، وحتى مغادرته لمسقط رأسه، يرقص هنا أمام أقدام روّاد هذا المقهى الصيفي. كان الجدول يبدأ طريقه من نبعة "عين نيني" التي تبعد من هنا حوالي الكيلومتر. حسن ما زال يتذكر هذه اللوحة الرائعة: كانت مستديرة وتحتوي على رمال بيضاء وحصى صغيرة؛ "مياهها كانت تتدفق بغزارة وكانت باردة للغاية ولم يكن" – كما قال – "بإمكاننا، نحن الأطفال، أن نغوص فيها أكثر من دقيقة أو دقيقتين لشدة برودتها المنعشة. ما أجمل أيام "عين نيني" التي جفّت لأن سلطات الاحتلال الإسرائيلي تسحب المياه الجوفية من الأراضي الفلسطينية وتحولها إلى مستوطناتها وإلى أراضيها داخل ما يسمى بالخط الأخضر". ونتج عن ذلك أن جف العشب أيضاً في ساحة المقهى التي كانت دائمة الاخضرار، وأصبحت الآن شاحبة كذاكرة سليمان الذي سيبلغ عمره قريباً الثالثة والستين والذي ما زال يحاول بصعوبة أن يجيب على سؤال ابنه. سليمان كان في موقف حرج، فقد كان يعلم أنه لا يليق بالأب أن ينسى النصائح التي كان ألح على ابنه أن يتقيد بها في غربته. ثم أسعفته ذاكرته قليلا حين قال:

"نعم، ما زلت أتذكر، أنني قلت لك إنك تستطيع أن تتعلم الكثير من الألمان، فقد أعادوا بناء بلادهم بعد الحرب العالمية الثانية بعد أن دمرت تماماً، ويقال إنها ازدادت جمالاً وأصبحت أفضل مما كانت عليه."

"هذا صحيح"، علق حسن الذي يبلغ عمره 34 عاما، "لقد تعرفت على عائلات بنت بيوتها بيديها حجراً حجراً، ولكن ماذا كنت أضفت إلى هذه النصيحة؟"

صفن سليمان محدثاً نفسه: حريق الحرسة، من أين لي أن أتذكر؟، ثم عقب قائلا: "نعم، أضفت شيئاً، ولكن ماذا؟.."

حسن: "قلت إن الألمان شعب حضاري ويتمتع الكثيرون منهم بثقافة واسعة، ولكن إذا قال لك أحدهم "يا راعي الجمال" أو أي شيء من هذا القبيل، فقل له: لقد ترجمنا أعمال الإغريق القدماء وبنينا جامعات ومراكز ثقافية ريادية في بغداد ودمشق والأندلس. وكان الطلبة الأوروبيون يتعلمون فيها الرياضيات والفلسفة. نعم، قمنا بكل ذلك عندما كان الألمان يعيشون فوق الأشجار.."

هنا قاطع الأب ابنه الذي كان يتكلم بحماس: "قل لي بربك، هل وصفك الألمان بأنك "راعي إبل أو بقر" وكيف كان رد فعلك؟"

حسن: "لا، لم يحصل ذلك. المثقفون منهم يعرفون بعض الشيء عن الحضارة العربية، ولكن لم يعد سراً أن العرب منذ خمسمئة أو ستمئة عام في سبات عميق. مرّت عليهم الحداثة والتنوير مرور الكرام على الرغم من البدايات الجيدة في القرن الثاني عشر والثالث عشر، ولكن في نهاية المطاف انتصر التقليديون – طبعا بدعم القصور–، ومنعوا النقد وكبلوا التفكير والاجتهاد. وبعد ذلك جاء العصر العثماني وتلاه الاستعمار الأوروبي وأخيراً الاستبداد والفساد العربي. الألمان، يا والدي، لا يهتمون كثيراً بأسباب التخلف. بيد أنهم في بعض الاحيان يُشعرونك بأنك تنتمي إلى مجتمع غير متطور، وهذا لا شك صحيح، ولكنك على الرغم من ذلك تتألم عندما تسمع ذلك. ولكن، لا تتهرب، يا والدي، فقد أعطيتني نصائح أخرى عندما سافرت لألمانيا!"

سليمان تذكر الآن: "نعم، رجوتك ألا تتزوج ألمانية، لأنني أرى أنه من حق نسائنا أن يتقاسمن الحداثة مع رجالنا. أنتم الذين تتوفر لهم الفرصه أن يشاهدوا العالم مطالبون بأن تفتحوا الأبواب لزوجاتكم، ولكنك – مداعباً– أيها الوغد، عملتها وتزوجت ألمانية،" وأمال سليمان رأسه قليلاً وغمز حسن بعينه اليسرى من قبيل السخرية والمزاح.

حسن: "لم تكن حاسماً في الموضوع، يا أبي. صحيح ما قلته ولكنك أضفت: "إلا إذا كانت المحروسة مليونيرة، فعندها لا حول ولا قوة إلا بالله، فالمليونيرة لا يُرد لها طلب." زوجتي ليست مليونيرة، ولكنني فكرت أن الذي يصوغ نصائحه بهذه الهلامية فإنه لا يتوقع أن يتم الأخذ بها. لنترك المزاح جانبا: لا يوجد خلاف على أن الرجال في الشرق يجب أن يتضامنوا مع النساء، ولكنني أرى أن طبيعة الإنسان لا تتقبل أن تتحكم القومية والانتماء الإثني في الحب والزواج."

سليمان: "أوافق. لم أكن حاسما، وإذا كنت أكره شيئاً فهو الفقر، فقد عذبني هذا الغول طيلة حياتي. إنني لا أتمناه لأشد أعدائي. الآن أسعفتني ذاكرتي، فقد أعطيتك أيضاً النصائح التالية:

أولاً: في شتاء ألمانيا البارد لن يكون من الخطأ أن تشرب كأساً من الكونياك، ولكن أرجوك ألا تصبح مدمناً على الكحول.

ثانيا: أنا أعلم أنك كمعظم الرجال تحب النساء، فلا مانع أن تكون لديك صديقة، ولكن إياك أن تصبح كازانوفا.

ثالثا: .. كانت هناك نصيحة ثالثة، يا إلهي، نسيت.."

حسن: قلت لي إيّاك ولحم الخنزير، فلا تأكل من لحمه ليس لأن ديننا يمنعنا من ذلك فقط، بل لأنه أيضاً حيوان منفر ويفترس كل شيء.

سليمان: "بيد أنك لم تتقيد بذلك. هكذا صار، أم ماذا حصل؟"

حسن: "نعم، كتبت لك ما يلي: "أما فيما يتعلق بلحم الخنزير، فإنني أواجه مشكلة، لأن وجبات مطعم الجامعة قلما تخلو من لحم الخنزير، ولذا أجد نفسي مضطراً للذهاب إلى البيت لأقلي بيضتين أو ثلاثاً. وفي بعض الأحيان تفوتني محاضرة مهمة". الآن أستطيع أن أقول لك إن هذا الادعاء كان حيلة ليشملني عفوك، فقد كتبت لي: "إذا كان الأمر كذلك فعليك يا ابني أن تأكل ما يقدمه مطعم الجامعة والله غفور رحيم، المهم ألا تضيّع أي محاضرة."

سليمان: "نعم، هكذا سارت الأمور. اليوم لن أعطي كل هذه النصائح، ولدي حكاية مغاربية تؤكد صحة ما أقول: "يروى أن أباً كان يجلس في الحديقة مع ابنه أحمد، وكان الأب يسدي إلى أحمد النصيحة تلو الأخرى: (لا تنام بين القبور ولا تشوف منامات وحشة)، (خبي قرشك الأبيض ليومك الأسود).. الوالد كان متجلياً فلم يبخل على ابنه بنصائح لا حصر لها، إلى أن قاطعه الغلام بقوله:

"هل انتبهت، يا والدي، إلى أن 37 نملة دخلت إلى ثقب الأرض هذا أثناء حديثك الرائع الذي تضمن الكثير من النصائح المهمة." وأضاف سليمان: "لا يؤخذ بمعظم النصائح لأن المتلقي لا يلتقطها من شدة زهقه."

كان الأب وابنه مستمتعين بالحوار، وعندما كانا بصدد تعميقه بعض الشيء انضم إليهما صديقان من أصدقاء الوالد، وبعد أن رحبا بحسن استفسرا منه عن موقف ألمانيا من القضية الفلسطينية، وقبل أن يجيب حسن على استفساراتهم تقدم إليهم ولد يحمل يافطة كتب عليها: "الدكتور عدنان يرجوك أن تشتري من أوراق اليانصيب هذه لأن ريعها سيصرف على بناء مستشفى للأطفال."

حسن لم يفكر طويلا واشترى ورقة مشيداً بمشروع الدكتور ومشيراً إلى أنه لا يصبو إلى الفوز وإنما إلى دعم فكرة بناء المستشفى. غير أن أبا محرم، وهو شخصية مرموقة في إدارة البلدية، استاء من موقف حسن وعلق عليه على النحو التالي: "نعم، ولكن ديننا حرّم علينا اليانصيب. لا بد أنك لم تنس الآية القرآنية التي تحرم علينا الخمر والميسر ولحم الخنزير."

حسن: "المهم بالنسبة لي أن نقدم الخدمات الطبية لأطفالنا، فأنت تعلم أن إسرائيل منذ احتلالها للضفة الغربية وغزة في عام 1967 لم تقم ببناء غرفة واحدة في مستشفى أو صف جديد في مدرسة، وإذا كان لديكم وسيلة أخرى لتمويل المستشفى فإنني أفضل ذلك. هل حاولتم البحث عن طرق أخرى؟"

"لا"، أجاب الرجل الذي يبلغ خمسين عاماً من العمر ويغطي جزءاً كبيراً من وجهه الأسمر النحيل بنظّارة سميكة، وأضاف بلهجة صارمة وبنظرة عابسة:

"ماذا عملت أوروبا بك، يا عزيزي حسن؟ لدينا ثقافتنا وتراثنا وديننا. هنا لا نمشي على مبدأ الغاية تبرر الوسيلة."

حسن: "كل ما أريده هو أن نعمل شيئاً كي لا يموت أطفالنا. أرجوكم أن تدبروا فلوساً إسلامية من أجل بناء المستشفى."

أبو محرم: "القضية ليست هكذا، فالأمر يتعلق بديننا وقيمنا. أود أن أسألك، يا أخ حسن، هل تؤمن بوجود الله الذي لا إله إلا هو؟"

حسن يعرف تماما هذه الحجج التي يتسلح بها الإسلاميون. الحوار معهم يبدأ بالسؤال: هل تؤمن بالله؟ فإذا أجبت بالنفي تُعتبر ملحداً، وعندها تصبح اجتماعياً معزولاً ومنبوذاً. وعليه فإن الجواب لا بد أن يكون "نعم"، وبعد ذلك يقولون لك: إذن أنت تؤمن أيضاً برسول الله والقرآن الكريم ولذا عليك التقيد بتعاليمه.

وبما أن حسن كان يريد أن يوفر على نفسه هذا الحوار أو التحقيق فقد وقف بتحد وقال بشكل حاسم: "لا أؤمن بالله وإنما بالأطفال والمستشفى الذي سيحافظ على حياتهم وسلامتهم."

ودون انتظار رد فعل أبي محرم غادر الأب وابنه المقهى وكانا كلاهما مستغرقين في التفكير. وبعد مرور عدة دقائق قال سليمان: "وقعت بفخهم، يا بني!"

حسن: "نعم، ورطني هذا الديماغوجي. أنا أعلم تماما أن المرء لا ينبغي أن يتصرف في جنين هكذا. البلد ترسم لك حدوداً صارمة للحوار والنقد والتفكير وإلى غير ذلك من علامات "التطور" و

"الانفتاح". من ناحية أخرى أقول لك بصراحة: لست ملحداً. الإلحاد فلسفة لم أدخل في أعماقها، وبكل بساطة أقول إن موضوع الله يعنيني فقط لأن الناس يؤمنون به. لعلك سمعت عن الشاعر الألماني بيرتولت بريخت. بالمناسبة أشعر بالسعادة لأنني تعلمت لغته لأتمتع بقراءة أعماله بالألمانية. يُقال عنه إنه لم يكن يخلو من المتناقضات، فمن ناحية كان ضد الاستغلال ولكنه لم يتورع عن استغلال الطاقات الثقافية لأكثر من امرأة لخدمة أعماله الأدبية؛ غير أنني أركز في مثل هذه الحالات على أعمال هؤلاء العباقرة في الأدب والرسم وليس على سيرتهم الذاتية. بريخت هذا كتب ذات مرة حواراً بين السيد (س) والسيد (ب). س سأل ب: هل تؤمن بالله؟ فأجاب ب: "إذا كان جوابي لن يؤثر على تصرفاتك، فإنني سأقول لك إن سؤالك زائد ولا قيمة له. إما إذا كان لجوابي تأثير على تصرفاتك، فإنني سأقول لك: نعم، أنت بحاجة إلى إله!"

وأضاف حسن قوله: "بالمناسبة، يا والدي، لم نلمس وجود الله في بيتك!"

سليمان: "السيد بريخت بتاعك لم يجب بنعم أو لا على السؤال المتعلق بوجود الله، وبهذا تهرب هذا الثعلب بمهارة من الإجابة على هذا السؤال لأنه بالنسبة له لا يعني الكثير، ومن ناحية أخرى تجنب غضب المسيحيين الألمان. وبهذا كان بريخت بجوابه أذكى منك في الحوار الذي خضته منذ قليل مع أبي محرم. أظن أنني قرأت بعض قصائد بريخت المترجمة للعربية، وعلى أي حال لنتركه يفكر كما يحلو له، ولكن ادعاءك أنه لم يكن لله مكان في بيتنا مردود عليك."

وبكثير من المرح أضاف: "لا أعتقد بشكل حاسم أن الله موجود، ولكنني أخاف منه. لا أريد أن يُشوى جلدي في جهنم." ضحك الأب والابن على ما في هذا الكلام من تناقض مُتعمد. صمت سليمان قليلا، ثم أضاف بجدية تختلط ببعض المرح: "أخشى الله على طريقتي، فأنا أتجنب المواجهة المباشرة معه. لا بد أنك تعرف قصة الشاعر والفيلسوف الأعمى أبي العلاء المعري (الذي عاش في سورية، حيث توفي في معرة النعمان في عام 1057 م) عندما سئل ذات مرّة عما إذا كان يؤمن بالله، فأجاب بكل وضوح: "نعم"، فعلق أحد تلامذته على هذا الجواب بقوله: "كنت أعتقد أنك ملحد." فأضاف الأستاذ: "أفضل أن أجيب بنعم، فإذا اتضح أنه موجود حقا فإن جوابي سيدخلني إلى فسيح جنانه، وإن لم يكن موجوداً فإنني لن أخسر شيئاً."

واستطرد سليمان قائلا: "صحيح ما ذكرت، يا حسن، وهو أنني لم أربِّكم تربية دينية، ولكن الإسلام قيمه، وهو عماد ثقافتنا." حسن لم يختلف مع والده في هذا الشأن، ولكنهما واصلا حديثهما وانتقلا إلى عصر التنوير في أوروبا. وفي هذا السياق أشار حسن إلى أنه لا حدود للنقد في أوروبا، فعلى

سبيل المثال "قرر" بعض الفلاسفة الأوروبيين، نيتشه وغيره، أن "الله مات"، ولكن في البلاد العربية ما زالت هناك محرمات لا تعد ولا تحصى ولا تتعلق كلها بالدين بل بعلم العيْب (بالعين المهملة) والتقاليد العفنة. وأضاف حسن أنه يعترف بأن المجتمعات الغربية لا تخلو أيضاً من المحرمات ففي ألمانيا مثلا يمنع القانون مجرد النقاش في وجود الهولوكوست وأن تشكك في أن النازية فتكت بأقل من ستة ملايين يهودي. هذا طبعاً يتناقض مع حرية التعبير ويقيد التفكير. على أي حال مثل هذه المحرمات نادرة في أوروبا بالمقارنة مع المجتمعات العربية والإسلامية. كان العرق أثناء هذا الحوار الذي تشعب يتصبب تحت قميص سليمان وأحياناً كان يشعر ببعض القشعريرة ويسأل نفسه: هل كان أبو محرم، على الأقل جزئياً، على حق؟ وهل خطفت أوروبا بعضاً من عقل حسن السوي؟ ألم يكن من الأفضل لو أنه درس في القاهرة أو دمشق؟

الوالد اختتم النقاش بقوله: "لنترك الغرب وشأنه. نحن هنا في الشرق.. شرقنا الذي نحب". مد الأب صفحة يده وطرقها حسن بيده مؤيداً وجلجل كلاهما بالضحك.

في البيت استقبلتهما عطاف بالتحية وقبلت جبهة ابنها وقالت له: "عمتك الحاجة وصفية كانت هنا وطلبت مني أن أبلغك بأنها تود أن تكون الليلة ضيفها، لأنها وحدها وستأخذ روحاً بزيارتك." حسن جلس بين والدته ووالده وبينما كانوا يحتسون القهوة بالهال سأل حسن والدته فيما إذا بثت إذاعة البي بي سي أغنية "يا رب يخليك يا أمي" هذه الأغنية التي كان طلبها لها قبل عدة سنوات في برنامج ما يطلبه المستمعون، فأجابت: "نعم، الجيران جاءوا إلى بيتنا جريا وقالوا: "افتحي الراديو.." انهمرت دموعي وقتذاك. الله يرضى عليك يمّيا." مرة أخرى كادت الدموع تنهمر من عينيها. لقد تحسن وضعها الآن بعد أن شب أولادها ولكن هذه المرأة المتماسكة لا تستطيع أن تتخلص خلال السنين الأخيرة من طبقات الحزن التي تراكمت خلال عقدين ونصف من الزمن. حسن ضم والدته وقبل يدها وقال: "ستبقين مدى الحياة سيدة النساء وست الحبايب بالنسبة لي." عطاف شعرت ببعض الحرج ولم تعد تعرف إلى أين تنظر.

سليمان سأل حسن: "ماذا سنأكل في الغد؟ على أية طبخة تنفتح شهيتك يا ولدي العزيز؟ نحن نسمع أن المطبخ الإنجليزي فقط أسوأ من المطبخ الألماني!"

حسن: "لقد احتجت بعض الوقت لأستوعب أن الفقراء الألمان فقط يعانون في معظم الأحيان من المطبخ الرديء، أما أغنياؤهم فهم يتمتعون، يا لطيف، بأطيب الأطعمة.. عالمان مختلفان. أما إذا سألتني عن شهيتي الآن فأنا نفسي في أكلة مجدرة!"لم يكن حسن يريد أن يقترح حقا هذه الأكلة

المتواضعة، فقد كان يصبو إلى اللعب بأعصاب أبيه ومداعبته بخبث، لأنه كان يعلم تماما أن سليمان سيستغل مناسبة زيارته لكي يكرم نفسه بأطيب الأطعمة.

سليمان: "أتركنا من الكلام الفارغ. المجدرة تستطيع أن تأكلها فيما بعد، الآن نزل العكّوب والسبانخ على السوق.."

في هذه اللحظة دخل ساعي البريد للبيت وسلم سليمان تلغرافاً من مدريد من ابنه عثمان. حسن قرأ بصوت عالٍ ما ورد فيه باللغة الإنجليزية: "والدي الحبيب. لقد أنهيت اليوم دراستي. التوقيع: ابنك الصيدلي عثمان." أعطى سليمان ساعي البريد ديناراً وأخذ يبكي من شدة فرحه بهذا الخبر. ثم رفع يديه الى السماء: "الله يرضى عليك يا ولدي عثمان. يا إلهي احمِ أولادي وبناتي جميعا: عطا وهاني وعثمان وصائب في الكويت ومدريد والقاهرة، وبناتي نجلا وأنيسة ونازك في دمشق وعمان." وبنفس السرعة التي بكى فيها توقف ليواصل كلامة عن الخضار المتوفرة حاليا في الحسبة: "الآن أيضاً الملفوف موجود و.."

حسن كان يراقب والده ويحدث نفسه: ما هو الأهم بالنسبة له: شهواته أم عائلته التي يحبها؟ ليس من السهل الإجابة على هذا السؤال، ولكن من المؤكد أن والده لم ينزل إلى مستوى "أشعب" الذي كان يتناول طعام العشاء ذات مرة مع زوجته، فقال لها: "دائماً أحس بمغص عندما نأكل، لأنني أفضل ألا أتناول طعامي مع أحد." فردت عليه: "نحن وحدنا الآن، فلا يوجد عندنا ضيوف." أشعب: "أحب أن أكون وحدي مع الطنجرة."

لا، سليمان ليس من هذا النوع من البشر، فهو يحب أن يتناول وجباته مع أولاده وزوجته وضيوفه. الصعوبات تبدأ عندما تندر الفلوس أو المواد الغذائية وعندها يُطرح السؤال: من الذي سيأخذ النصيب الأكبر أولاً هو أم الآخرون؟ ليس من السهل إعطاء جواب حاسم على مثل هذه الأسئلة، والابن الصالح لا تخطر على باله بالأصل مثل هذه الأسئلة الخبيثة. لم تعد الآن أسئلة من هذا النوع واردة، ولكنها لم تكن أسئلة نظرية في الأيام العصيبة التي مرت بالعائلة، خاصة قبل سفر عطا، أكبر أولاد سليمان إلى الكويت. الآن تغيرت الأوضاع: حسن وهاني يحوّلان شهريا مبالغ لا بأس بها من ألمانيا والكويت لعائلتهم في جنين. عثمان سيساهم أيضاً عما قريب في هذه المهمة. هذه الأفكار كانت تدور بخلد حسن الذي كان ما زال يجلس مع أمه وأبيه في باحة البيت ليقرروا أخيرا أن تطبخ لهم عطاف في الغد مقلوبة على باذنجان وأن يقوموا الآن بزيارة الحاجّة وصفية.

ذهبوا على الأقدام إلى بيتها الذي كان لا يبعد أكثر من خمسمئة متر عن بيت سليمان. منذ مطلع شبابها كانت الحاجة وصفية التي يبلغ عمرها 75 عاماً تكد وتعمل كقابلة قانونية، وكان حسن من أول الأطفال الذين ولّدتهم في عام 1939. الآن أصبحت تمشي بصعوبة، بيد أنها كانت حيوية للغاية، حبها للحركة كان أقوى من طاقتها وقدرتها الجسدية، وكانت تعشق العمل في حديقتها وفي بعض الأحيان كانت تعشبها وهي تحبو على بطنها. احتفظت بآخر بومليتين من شجرتها في الثلاجة لحسن وأخذت تقشر هذه الفاكهة الفخمة وتلقمه قطعة قطعة بيدها. حسن كان يتمتع بهذه الرقة والحنان، وكان يستلطف الحاجة كثيراً ويستخف دمها.

ثم أصابتها دفعة واحدة موجة عارمة من الحزن عندما بدأت تحدثه عن قطتها "ميكي" التي نفقت في حادث، بدأت تبكي بصوت منخفض. سليمان: "يا أختي، استحي على نفسك، القطة ماتت منذ نصف عام، العصفور عقله أكبر من عقلك."

عطاف قاطعته وهي غاضبة تماما: "اسكت، يا سليمان. عليك أن تحترم مشاعر الآخرين. الأمر هنا لا يتعلق بالعقل وإنما بالقلب."

لفت انتباه حسن أن والدته أصبحت تتحدث بثقة أكبر بالنفس مع سليمان. وأضافت عطاف قولها: "نعم، يا حسن، قبل نصف عام تقريباً صدم سائق حافلة متهور القطة الجميلة ميكي، رحمها الله – كانت عطاف تتحدث عن القطة وكأنها إنسان ورع قد مات – ولقيت للأسف حتفها على إثر هذا الحادث المؤلم. جئت برفقة معظم الجيران إلى هنا لتعزية الحاجة، كان الله بعونها ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم." واصلت الحاجة نحيبها؛ حسن حاول أن يخفف من حزنها، فوضع يده على كتفها. قالت: "الله يحميك يا ابني. عقلك كبير مش زي عقل أبوك!" ثم حاول حسن أن يلهيها بحكاية أخرى. سألها: "هل صحيح ما يقال إنك تهوين المصارعة؟" فأجابت بحماس: "نعم، أمس شاهدت في التلفزيون مباراة بين مصارع سمين والآخر كان نحيفاً وأقرع. وكما تعلم، أنا أتحزب دائماً لأحدهما، عادة للأضعف!" وما رأى حسن إلاّ والحاجة تقف بالكاد وهي منحنية الرأس؛ رآها عازمة على عرض الصراع بين العملاقين وكيف كانت هجمة السمين. سليمان أخذ يهز رأسه، ولكن العمة ظلت مصرة على استعراضها: قفزت في الهواء وسقطت حالاً فاقدة للوعي. صاح سليمان: "قلت لكم، عقل عصفور!" عطاف وحسن أسرعا لنجدة الحاجة بالماء البارد والكولونيا ولحسن الحظ عادت بسرعة إلى وعيها: "أين أنا؟" ثم أصابت ثلاثتهم نوبة من الضحك، باستثناء شقيقها الأصغر سليمان الذي لم يتوقف عن هز رأسه وهو يقول: "شر المصائب ما يضحك.. عقل؟ يبعث الله."

عطاف أعدت قهوتها المعطرة بالهال، والحاجة أرادت أن تعرف إذا صح ما سمعته من أن النساء في ألمانيا يمشين شبه عاريات في الشوارع، وأنهم هناك لا يعرفون كلمة عيب، وأن نساءهم ورجالهم يعملون أعمالاً عاطلة في الحدائق العامّة؟ فرد عليها حسن ضاحكا: "يبدو يا حاجة أنك أنت تفكرين بالرجال ليل نهار." ابتسمت العمة وقالت: "من أين يا حسرة، أصبحت في هذا العمر خارج نطاق المليح والعاطل، يا عمتي."

سليمان علق على حديث العمة وابن أخيها بقوله: "لسنا بحاجة للذهاب إلى ألمانيا لنشاهد خلاعة النساء. أنت بحاجة فقط لرؤية نساء عائلتنا، دار عطوان. منذ أيام زارتنا أمينة زوجة حامد عطوان. كانت تنورتها قصيرة لدرجة تجعلك تطرح السؤال: لماذا لا تسير – الله يستر عليها– بالكلسون؟ أنظر يا حسن، والله أنا أعتقد أن شهوة الرجال الجنسية تتبخر إذا بالغت النساء في إظهار مفاتنهن الجسدية!"

حسن: "التنورة القصيرة (الميني جوب) منتشرة طبعا بشكل كبير منذ سنوات في ألمانيا أيضاً.. ولكن معظم الرجال لا يواجهون أية مصاعب، بل على العكس..". هنا تركت عطاف غرفة الجلوس وذهبت للمطبخ لأنها لا تحب مثل هذه القصص، بينما كانت الحاجة تتمتع بالتقاط كل كلمة.

ومضى حسن في حديثه: "لنتكلم بصراحة، يبدو – يا والدي - أنك أصبحت تعاني من عجز جنسي - ولا غضاضة في ذلك في مثل عمرك، ولكن لا علاقة أبداً لهذا الأمر بالموضة."

سليمان احتج بصوت عال: "طوّل بالك، صحيح عمري اقترب من الثلاثة وستين عاما ولكنني ما زلت أنام مرة في الأسبوع مع أمّك، وإذا أراحني مرض السكري مرتين.." هنا صاح سليمان بأعلى صوته: "وإذا لم تصدقني.. يا عطاف.. يا عطاف." حسن وقف بسرعة وضم والده راجياً صمته ومردداً:

"إنني أصدقك.. أقسم بالله.. أقسم بالله." عطاف جاءت مسرعة وتساءلت: "ما بكم؟" فأجابها حسن: "لا شيء.. لا شيء، يا أمي كنا نمزح."

عطاف كانت ستغوص تحت الأرض خجلاً لو طرح سليمان عليها سؤاله الممجوج جداً. لم يسمعها حسن أبداً في حياته تتحدث عن الجنس بشكل مفتوح، وإذا فعلت فكانت لها اصطلاحاتها الخاصة، فإذا قيل مثلاً إن رجلاً أغوى فتاة، فإنها ستعلق بقولها: "يا حرام، ابن الكلب، سخّمْها" أي لوثها بالسخام (حسب قاموس لاروس العربي السخام هو سواد القدْر). وقتئذ كانت تتحدث عن المرأة وكأنها وعاء شوهه الرجل بقاذوراته. كانت أسوأ الكوابيس بالنسبة لها أن تتخيل أن رجلاً ألقى

بإحدى بناتها – لا سمح الله – في مثل هذه الفضيحة، وما فيها من أوساخ. سليمان لم يكن يختلف عنها في هذا الشأن.
حسن يتذكر كيف أن والده – كان ذلك أغلب الظن عام 1949 – كاد يقتل أحد أبناء الجيران (14 عاما) لأن ابنته نازك (13 عاما) جاءت إلى البيت راكضة وهي تصيح: "يابا محسن مسك بي." خرج سليمان كالثور الهائج والسكين بيده وهو لا يرتدي غير ملابسه الداخلية: "يا خنزير أنت تلامس ابنتي." محسن كان من المحظوظين فقد أحاط بضعة رجال بسليمان، أوقفوه وقالوا له: "أبو عطا، إنهم أطفال.. أولادنا." حسن يسأل نفسه اليوم سؤالاً ربما يكون سخيفاً: ماذا كان تأثير هذه الدراما على تطور شخصيتي نازك ومحسن، وهل كان للسخام أثر على علاقتهما مع شريكي حياتهما؟ لا يوجد أدنى شك لدى المغترب حسن في أن المجتمع العربي-الإسلامي عاجز عن التعامل مع الجنس وأن العديد من أمراضه تعود إلى هذا الجبن. من العار أن يتجاهل المجتمع قضية واقعية كهذه وأن يغلق ملفها تحت ختم أحمر غليظ: عيب! أَوَليس عيباً بعد الزواج؟ أي عليك أن تتجاهل هذه الطاقة من الخامسة عشرة حتى الخامسة والعشرين أو الثلاثين عاما. حل هذه المعضلة كان متوفراً في مجتمعنا عندما كان فلاحياً، إذ كانت الشبيبة تتزوج في سن السادسة عشرة أو السابعة عشرة – كما فعل على سبيل المثال سليمان وعطاف في قريتهما – أما الآن فقد تنتظر الفتاة حتى الخامسة والعشرين والرجل حتى الثلاثين.
تحدث حسن بصراحة مع والده في هذا الموضوع عندما كانت والدته وعمته تعدان طعام العشاء في المطبخ. مرّة أخرى أصابت القشعريرة سليمان وشعر مجدداً بالغربة بينه وبين ابنه. سليمان قال بكل وضوح: "نساؤنا شرفنا. ولن نسمح لأحد بأن يمسهن!" حسن عبر عن عدم موافقته: "لا،.. للنساء شرفهن وهن اللواتي يحافظن عليه حسب مفهومهن وكما يشأْن. أنت تعرف إميل حبيبي، يا والدي، هذا الأديب الحيفاوي؟"
سليمان: "طبعا أعرفه، إنه من مواليد 1921 ولم يغادر الجليل بعد قيام دولة إسرائيل، وهو من خيرة الكتاب الفلسطينيين. بالمناسبة أوصى أن تكتب على قبره هذه الكلمات (باق في حيفا)."
حسن: "نعم، إميل قال في أحد كتبه، أظن أنه كتب ذلك في كتابه الواسع الانتشار، (الوقائع الغريبة في اختفاء سعيد أبي النحس المتشائل) كتب ما معناه أن مؤخرة زوجة العربي تزيد أهمية على وطنه. لا أستطيع أن أقدر عدد الرجال الذين شردوا مع عائلاتهم من قراهم ومدنهم في عام 1948 خوفاً على

"عرضهم". في عام 1948 كان أول ما فعلت، يا والدي، أنك سفّرت ابنتيك من جنين لعمان وكأنه لم يكن لدينا مصائب أخرى آنذاك."

سليمان: "لم تعد أعصابي تتحمل أقوالك المنفرة. لم يمض على وجودك في أوروبا إلا بضع سنوات والآن تريد أن تبيعنا آخر ضروب الفطنة والشرف. لدينا أخلاقنا وهي متلاحمة مع مشاعرنا. عليك أن تختار: هل أنت منّا أم منهم؟"

حسن: "إنني 95 بالمئة فلسطيني -عربي و 87 بالمئة ألماني."

سليمان: "كيف تصح هذه العملية الحسابية؟"

حسن: 95 بالمئة عربي لأنني ولدت هنا وتشبعت بالثقافة العربية–الإسلامية، خسرت الخمسة بالمئة لأنني أعيش منذ عقد ونصف في الخارج ولذا لم ألتقط بعض المعلومات والتفاصيل من حياة الناس اليومية في بلادنا. كما أنني 87 بالمئة فقط ألماني لأنني لم أولد في ألمانيا؛ فاتت عليَّ سنين المدرسة التي لا تعوض ولا تقدر بثمن. باختصار، يا والدي: أود أن أقول إن الزمن الذي كان المرء فيه يتمسك بهوية واحدة ولّى. أتمنى لو أن لديَّ ثلاث أو أربع هويات، لأنني أعتقد أن كل هوية إضافية تزيدني غنى."

سليمان: "دعنا نغلق هذا الملف. لتعلم، يا حسن، أنني لا أستطيع أن أحكم على عالمك. لا توجد لدي سوى هوية واحدة، لأنني ولدت هنا ولم أكن أبداً خارج الوطن العربي الكبير. إنني أحب لغته وثقافته وهو يكفيني ويرضيني تماما. لم أعد الآن أستطيع أن أقول لك أضرب كفّيك ودع الغرب غرباً والشرق شرقاً فهما لن يلتقيا.. الآن أصبحت أعلم أنك تجمعهما في ذاتك."

حسن: الشاعر الألماني الكبير يوهان فولفجانج غوته (1749 – 1832) تمكن من الجمع بين الاثنين في "الديوان الشرقي" عندما كتب : "ربما لم يحدث في أي لغة هذا القدر من الانسجام بين الروح والكلمة والخط مثلما حدث في اللغة العربية، وإنه تناسق غريب في جسد واحد." ألم يقل الرسول الكريم: "من عاشر القوم أربعين يوماً صار منهم." هنا يتفق غوته مع نبينا: تعلم لغة شعب وثقافتة فتكسب هوية جديدة دون أن تخسر هويتك الأصلية وجذورك. إذا كان غوته قد نجح في هذه المهمة قبل أكثر من قرنين فلماذا لا ننجح اليوم وأبواب العالم مفتوحة أمامنا؟"

الحاجة وصفية طلبت من سليمان وحسن أن يصمتا لأنها ستؤدي صلاة العشاء. عطاف وسليمان وحسن رددوا معاً بعد قيامها بالصلاة: "تقبّل الله"، الحاجة نظرت إليهم بخبث: "أنتم لستم كفرة، فما الذي يمنعكم من أداء الصلاة!"

حسن التفت إلى والده وقال له إن الحديث عن موضوع الهوية لم ينته بينهما، وإذا لم يكن لدى سليمان مانع فسيقرأ له في البيت قصة قصيرة تتعلق بهذا الموضوع.

سليمان: "حسناً، يا حسن، ألا تريد أن تنام الليلة عند الحاجة؟"

حسن: "ليس هذه الليلة، وإنما ليلة الغد."

في أواخر الأمسية سأل حسن والده في البيت: "هل ما زلت تشعر بالنشاط، وهل ما زالت لديك رغبة في سماع القصة التي كتبتُها قبل أربع سنوات؟"

سليمان: "تفضل، كلي آذان صاغية."

حسن: "سأفعل، قصتي تتكون من خمس صفحات تقريباً، وعنوانها:

كاتب المكتب

هذا الشخص الذي نسميه هنا "كاتب المكتب" يهوى الكتب. يقرأ برغبة، وأينما وُجد، كتباً مثيرة وذكية وأحيانا تعيسة وغبية. لا يفكر مطلقاً بأن يصبح كاتباً. ولكنه لا يسعه إلا أن يعترف بأنه أحياناً يشعر بلذة حين يوفق في اختيار تعابير جميلة في وصفه لبعض شؤون الحياة، وتتضاعف هذه المتعة لديه عندما يسمع من مُريديه وهم يكررون: "والله أحسنت القول." وعندما يردد بعضهم: لماذا لا تكتب، كان يجيب: الكلام شيء والكتابة شيء آخر.

بقي على هذه الحال، إلى أن أهدته زوجته مكتباً فخماً مُلمّحة إلى أن حياته ككاتب ربما تبدأ مساء اليوم. ما من شك أنه يشعر بالغبطة بهذا المكتب الأنيق (من نمط الباروك المتأخر الذي انتشر في أوروبا في نهاية القرن الثامن عشر ويتصف بالزخرفة الزائدة)، ولكنه يمقت إلحاح زوجته، التي لا تترك مناسبة، إلا وتقول فيها: "لا يقدر جونتر جراس ولا هاينرش بول (كلاهما حصل على جائزة نوبل للأدب) على صياغة ما تفضلت به الآن. أكتب، لماذا لا تكتب؟ من يجلس خلف مثل هذا المكتب العريق لا يستطيع أن يتهرب من الكتابة."

لسنا بحاجة إلى القول إنه يقدّر في زوجته ثقتها العالية به، ولكنه يشك في قدراته الأدبية التي لم يجربها منذ آخر حصة للإنشاء في المدرسة. ثم أخذ يفكر بين الفينة والأخرى: لم لا، الآخرون يطبخون أيضاً بالماء. وفي لحظة جيدة كان يقول لنفسه: من الذي يمنعني من القيام بمحاولة سرية للغاية. بيد أنه لم يكن لديه أدنى شك في أن مثل هذه المحاولة لن تتم على هذا المكتب الذي يبعث – لتراكم آمال زوجته وطموحاتها عليه – الانقباض في نفسه.

بدأ ألاعيبه اللغوية بشكل مركز مع الكلمات والتعابير، وكأنه أصبح ينام ويأكل ويشرب ويعيش مع هذه الكلمات الألمانية، ولكنها لم تكن كذلك وإن حاول أن يترك هذا الانطباع. لغته الألمانية، خاصة النطق بها، لم تكن سلسة، فقد كان لسانه يتلعثم أحيانا بها، وأحيانا كانت بعض الأحرف تتحداه، وكان يشعر كأنه يتحايل عليها لتخرج بشكلها الصحيح. لسانه لم يتعود على أل U ،O،P (الحرفان الاخيران يكتبان بالألمانية أيضاً بنقطتين فوق كل منهما ويلفظان بطريقة غريبة على العرب، فهي أحرف تلفظ وكأنها مركبة من أكثر من حرف).

ناداه صوت من أعماق روحه يقول:

"إنها ليست لغتك. أنت غريب هنا. أمك علمتك لغة ثانية. رحم الله امرءاً عرف قدر نفسه."
نعم، إنها ليست لغة أمه، فمعلمته الاولى أُميّة. إنه يتذكر كلمات والدته العزيزة؛ ما أجمل هذه الكلمات التي يفيض الحنان منها، والتي تحمله عبر حليب دافيء إلى طفولته. ولكن، من هم القراء الذين سيخاطبهم بهذه اللغة البسيطة وكأنها مركبة للأطفال؟ لم لا؟ فهو ليس بحاجة سوى أن يترك العنان لقلبه، وأن يقول صادقاً ما يجول بخاطره. من المؤكد أن الآخرين سيفهمونه ويتفاعلون معه.
ماذا ستعلّم أم ذكية ومتعلمة أطفالها وجميعهم في السنوات الأولى الحاسمة أميّون، ولا يستوعبون محيطهم والأشياء من خلال القراءة وإنما بآذانهم وعيونهم وأفواههم وأرواحهم؟
لا يوجد إذن ما يستدعي البكاء. لعله كان شيئاً إيجابياً أن أمك لم تذهب في حياتها للمدرسة، ولنشكر الله أن المجتمع العربي كان آنذاك أقفل كل الأبواب أمام تعليم النساء. إنك تختزن في جوانحك حرارة قلب الأم وتتعلم الكثير من بنات وأولاد الأوروبيات المتعلمات.
هذه الفكرة أثلجت صدره وملأته بنور دافيء. بيد أنه لا يستطيع أن يتملص من مشكلة: وهي أنه لا بد من صياغة قصته بكلمات محددة، فبدون ذلك لن تصل إلى أحد. عليه إذن أن يختار إمّا لغة أمه أو لغة المثقفين. مرة أخرى يجد نفسه أمام طريق مسدود، لأنه بلغة الأم يعبر على أحسن وجه عن مشاعره بكل عفوية وصدق، وباللغة الأخرى عن القضايا النفسية الصعبة – وبكل تواضع – عن المواضيع الفلسفية المعقدة.
ما العمل الآن؟ هل سنعود في نهاية المطاف إلى ما يؤدي إلى اليأس وربما إلى البكاء؟ إنه يرى فجأة نوراً في نهاية النفق وحلاً لمشكلته: سيكتب بلغتين، صفحة، وربما سطراً، باللغة العربية وأخرى

بالألمانية. بطبيعة الحال لن يفعل ذلك ميكانيكياً وإنما حسب الموضوع، وإذا اقتضى الأمر فإنه لن يتورع حتى عن إدخال أشباه جمل أو اصطلاحات معينة بالألمانية في وسط النص المكتوب بالعربية.

ولكن، ماذا سيقول النقاد؟ بكثير من التعالي سيعلقون: "سقط كتّابنا الضيوف إلى الحضيض، فلم يعد يعرف أحد فيما إذا أصبح هؤلاء التعساء سمكاً أم لحماً!" الأمر لا يستحق الأهمية والتوقف طويلاً، فمن الذي يقرأ النقاد أولاً، وبالإضافة إلى ذلك يمكن ثانياً مواجهة النقاد الدين يحبون دائماً وأبداً النكد بحجج قوية. من السهل الرد عليهم بكل بساطة بأن المواقف الحاسمة والواضحة لا تبعث في كثير من الأحيان سوى الملل. لنأخذ على سبيل المثال الإسبان – دعونا نختار هذا الشعب الحضاري (بالله عليكم هل توجد شعوب ليست حضارية؟) – هؤلاء الإسبان يأكلون بمتعة وبقية العالم معهم وجبة "البائلا" (Paella) المشهية التي تتكون من اللحم والسمك والدجاج وخضار مختلفة ورز. إذن المهم في النهاية أن تنجح الخلطة أو السبكة، أو بالأحرى أن يتحقق التناغم والترابط بين الصور والكلمات والتعابير والمشاعر الصادقة.

أخيرا تحطمت السلاسل، فهو يرى طريقين عريضين يحطمان الطريق المسدود وحضارتين عريقتين تزينان هذين الطريقين: أجمل الكنائس هنا وفي القدس، الجامع الأقصى والأزهر وعشرات الروائع المعمارية الإسلامية من المحيط إلى الخليج ومئات المتاحف والأعمال الجمالية في ألمانيا وزهور ولوحات غربية وشرقية وآلاف القصائد والكتب لأدباء من هنا وهناك.. ينابيع لا تنضب تثير العقل والخيال.

أمام هذه الزخم لم يعد يتحكم بأعصابه، فهو يشعر برجفة من قمة رأسه لأخمص قدميه بعد أن اتضح له أنه ظاهرة وحدانية؛ جميع الكتاب يكتبون بلغة واحدة، ولذا فإنهم مقيدون وأعمالهم ستظل تتحرك في إطار ضيق وسطحي فهم يدورون حول أنفسهم ولا يخرجون من ضغوط المحرمات الاجتماعية في بلدهم. لم يعد لديه أدنى شك في أن مبيعات قصته ستحطم كل الأرقام القياسية.

لحظة! من هم القراء المجانين الذين سيشترون هذا العمل المهزوز؟ الجواب في غاية الوضوح: بطبيعة الحال القراء غير العاديين الذين يجيدون اللغتين. وإن لم يتوفر لهم هذا – أضاف بقسط غير قليل من الثقة بالنفس – فهناك عشرات المترجمين الذين أجهدوا انفسهم بتعلم اللغتين وأحضروا لأمهاتهم بكل اعتزاز شهادات الامتياز من كليات اللغة. كتابه سيكون هدية السماء لهؤلاء المترجمين المجدين، لأن كِتاب اللغتين سيكون مصدر شهرتهم. إذن، حُلَّت جميع المشاكل بجدارة وهكذا خرج "كاتب المكتب" من الدوامة منتصراً ومبدعاً.

كانت هذه الأفكار ترافقه أثناء سفره بالترام إلى وسط المدينة حيث كان يود أن يحتسي فنجان قهوة في مقهى بالقرب من سوق الخضار. يشعر الآن وكأنه رئيس وزراء فاز لتوه في الانتخابات وكسب أغلبية الناخبين إلى صفه، وكعادة هؤلاء تراه يوزع الشكر لمؤيديه مرة ولأمه مرة، ومرة أخرى للآخرين بغض النظر عن جهلهم أو علمهم وتعليمهم؛ المهم أن تكون لديه الأدوات المناسبة للسلطة أو بالأحرى للكتابة.

أخيرا تراه يجلس في المقهى، طبعا في أفضل مكان فيه، ليقول للنادلة بلطف والحيوية تتدفق من عينيه الضاحكتين: "ستتعودين على وجهي. إنني كاتب. سأكتب قصة هنا. زملاء كثيرون لي كتبوا معظم أعمالهم في المقاهي أذكر منهم جان بول سارتر وغيره من الأدباء الذين لا تعرفينهم بالتأكيد." وأضاف والابتسامة لا تغيب عن وجهه: "نعم، أنا أعمل تماما هنا مثلك مع فرق واحد: أنا إنسان مبدع!"

ضيوف المقهى يلاحظون باهتمام كيف يخرج كاتبنا حزمة من الأوراق والكتب ونظارته وأقلامه من شنطته، وكيف يبدو كرجل مكلف بمهام اجتماعية لا يُستهان بها: من الصعب أن ينسى المرء هذا الوجه بملامحه الشرقية–الأوروبية، فهو بلا شك شخصية مرموقة تستحق احترام كل الضيوف، باستثناء الأطفال فمنهم لا يصبو إلا إلى المودة، ولذا تراه ينظر إليهم بعينيه الدافئتين اللتين ورثهما من والدته.

في رأسه تتعارك مجموعة من الأفكار ولا تتعلق كلها بالقصة التي سيكتبها وإنما أيضاً بوضعه العام في ألمانيا: لا شك أنه إنسان سعيد. إنه أجنبي في بلد يحصل فيه على كل ما يريد. لم يعامله أهل البلد سواء الرجال أو النساء كإنسان عادي فقد كانو يميزون بينه وبين الآخرين، فهم دائماً وأبداً إما يحبونه أو يكرهونه، فقط لأن منظره الخارجي يختلف قليلا عن أشكالهم أو لأنه يتحدث لغتهم بلكنة أجنبية. نعم، هذه الشكليات تكفي – لحسن الحظ – لكي يكون إنساناً خاصاً، ولذا فإنه ليس بحاجة إلى أن يبذل أي جهد إضافي. وإذا كان يكره شيئاً في هذه الدنيا فهو اللامبالاة، وهنا خلال سنوات حياته في المنفى يشعر في كل لحظة أنه ظاهرة فريدة وملفتة.

ومن هنا فإنه لا يتجاوب أبداً مع برامج الحزب الاشتراكي الديمقراطي وحزب الأحرار التي تهدف إلى اندماج الأجانب في المجتمع الألماني. إنه يمقت مثل هذه التحركات المشبوهة التي لا تميز بين الناس، ويفضل عليها تشدد الحزبين المسيحيين بألمانيتهما العتيدة، فهو لا يرتاح حقا إلى تفعيل التناغم والانسجام بين كافة الأصول الإثنية من قبل اليساريين والليبراليين. الكل يعرف أن الحزبين المسيحيين يتحدثان أيضاً عن الاندماج، ولكن قلما تلتقي بشخص لا يعلم حقيقة مطالب هذين الحزبين اللذين

تمنعهما القيم المسيحية المعلنة إعلامياً من إظهار موقفهما غير المعلن: التسفير هو الحل، والاندماج مطروح للاستهلاك، ولمواجهة تهمة العنصرية، أو في أحسن الأحوال لأن تسفير الأجانب غير ممكن، فهم يعيشون في دولة قانون، وقوانينها تحميهم من الإبعاد. كاتبنا هنا يحب المسيحيين ومحافظتهم فهو يدافع عن سياستهم إزاء الأجانب في كل مناسبة.

هذه الأفكار تزعجه للغاية – والمقصود هنا ما يجول في خاطره بمنتهى السخرية عن سياسة المسيحيين إزاء الأجانب– ولهذا نجده يتجنب الكتابة عن موضوع الأجانب، خاصة وأن المسألة هذه استُنفدت ولم تبق فيها ناحية إلا وكُتب عنها الكثير: الغربة، الهوية المزدوجة، التمييز العنصري، الاستغلال وكره الأجانب. لا، سيكتب اليوم قصة عن مطلع شبابه، عن سنين البرتقال والرمان والزيتون والحكايا التي لا تنتهي. بهذا القرار أصبحت تشاهد إنسانا آخر، فجأة ترى أمامك وجها شرقياً يشبه السجادة الإيرانية. سيبدأ قصته على النحو التالي:

"الراعي الشاب أحمد رزق الله ينام فوق تل بالقرب من القدس نوماً عميقاً ويحلُم أنه في ألمانيا، فقد كان أخوه محمود قد حدثه عن سهولها الخضراء على مدار العام. محمود كان هاجر في مطلع الستينات إلى ألمانيا حيث ما زال يكد "كعامل ضيف" (Gastarbeiter– الترجمة الدارجة للعمال الأجانب) تحت الأرض في مناجم الفحم بالقرب من مدينة "إسن". احتفل الألمان آنذاك بقدومه لأنهم يفضلون العمل فوق الأرض ولأنهم كانوا بحاجة إلى الأيدي العاملة الأجنبية.

قال محمود لأخيه أحمد إننا لا نعرف في بلادنا مثل هذه الخضرة التي في ألمانيا، فلو جئت إليها فإن مواشيك ستكون أسعد مواشٍ في العالم، سيزيد وزنها بسرعة وستزداد دلالاً يوماً بعد يوم لأنها ستجد صعوبات جمة في اختيار هذا النوع أو ذاك من الأعشاب، وستتمتع مواشيك بعد الظهر بنوم هني كما تفعل أنت الآن على تل بالقرب من القدس.."

ودون سابق إنذار يحدث ما لم يكن متوقعاً: انسيابية القصة في رأسه تتوقف دفعة واحدة ليطرح سؤالاً يبعث الحزن في نفسه: من الذي سيهتم هنا بقصة هذا الراعي، بهذا الصبي الشرقي؟ بسرعة يختفي مشروع القصة تماماً من مخيلته وكأنه لم يكُن.

في نهاية المطاف يحاول أن يستدرج خلده إلى فكرة من صميم الحياة اليومية، فلا بد أن تشغل الناس جميعا، الألمان والأجانب، وأن تكون من صلب معاناتهم بغض النظر عن لونهم أو فصاحة لغتهم. هذه الفكرة أغلقت أبواباً كثيرة ولكنها للأسف فتحت في الوقت نفسه أبواباً جديدة على مصراعيها

وتحديات لا أول لها ولا آخر: تلوث البيئة وموت الغابات، حروب واستعدادات لمعارك جديدة. وماذا عن هؤلاء الأطفال الذين يقتلهم جنود شباب يخدمون دولة لا تريد أن تنهي احتلالها لما تبقى من فلسطين؟ جنودها يطلقون الرصاص الحي على تلاميذ مدرسة يتعلمون فيها أنه من العيب ألا تحصل الشعوب على استقلالها في الجزء الأخير من القرن العشرين. طوابير من العاطلين عن العمل في ألمانيا، عزلة مئات الآلاف من العجزة ووحدتهم، ثم هؤلاء الملايين الذين شلّتهم الكآبة. يشاهد عشرات الآلاف من البشر فقدوا قيمتهم الاجتماعية في أسواق العمل الألمانية التي تسمى أسواق الاقتصاد العادل (soziale Marktwirtschaft). أب عاطل عن العمل في هامبورغ يخجل من أولاده فيخرج كل صباح بملابس العمل مدعياً أنه ذاهب إلى مصنعه. ترى في المطاعم أناساً يشكون من التخمة وزيادة الوزن وفي منطقة ليست شديدة البعد من هنا تبيع أمٌّ كل ما لديها ليسافر ابنها مهرباً إلى أوروبا بحثاً عن لقمة العيش.

الآن لعلك ترى كاتبنا في المقهى يجلس كالفأر الصغير، فمن هو حتى يكتب عن هذه القضايا العملاقة، العرق يتصبب من كل مساماته: إنها كوارث أكبر من كاتب متواضع.

ودون جدوى تراه يبحث عن كلمات أمة الفلسطينية البسيطة، ويستنجد بأبيات أبي العلاء المعري وبالألماني غوته. بيد أن اللغتين في صدره تحتجزان الكلمات عنه، وعندما أحضرت له النادلة فنجان القهوة الرابع بعد كل إرهاق ساعات عمله، ابتسمت عندما نظرت إلى صفحة واحدة بيضاء كتب عليها كلمة واحدة بنفس المعنى بالعربية والألمانية:

مستحيل Unmoeglich

وضعت الفنجان على الطاولة وقالت:

"لقد أرهقت نفسك كثيراً في عملك، يا سيدي الكاتب"

انتهت ....

"هذه كانت نهاية قصتي"، وأضاف حسن مستفسرا: "هل طوّلت عليك، يا والدي؟"
سليمان: "لا، القصة لم تكن طويلة، ولكنني حزنت وتألمت من أجلك، يا ولدي."
حسن أراد أن يعرف السبب؛ سليمان ظل غارقاً في التفكير إلى أن أوضح حقيقة مشاعره: "كتبت بنفسك ودون مواربة أنك كنت قاب قوسين أو أدنى من البكاء حين قلت "لا يوجد ما يستدعي البكاء"، كنت تهديء من روع نفسك. كان واضحاً بالنسبة لي أنك كنت تكافح من أجل أن يتقبلك الألمان، ولم تتورع عن تقديم تنازلات لهم على حساب كرامتك. وكما ذكرت لك، يا حسن، لسنا بحاجة لا للألمان ولا لغيرهم. لدينا تراثنا وثقافتنا وهويتنا. الألمان محترمون ونحن كذلك."
حسن شعر بدوار خفيف في رأسه ولم يجد بسرعة كعادته الكلمات التي يرد بها على انتقادات والده القوية. سليمان وضع يده على جرح كان حسن يشعر به ولكنه لم يكن يعرف مكانه. كان حسن يسعى لكسب الوقت عندما قال: "إنك تبالغ، يا والدي."
سليمان: "لقد تُهتَ بين الثقافتين إلى درجة تاه فيها عقلك وفقد توازنه، فمن هو الرجل العاقل الذي يكتب كلمة بالعربية وأخرى بالألمانية على نفس الصفحة. العقل السوي لا تخطر على باله مثل هذه الأفكار. ثم لماذا أحكمت رباط لغتنا إلى حد كبير بأمك الأمية فأنت تربيت في بيت شاعر وكانت الكتب فيه متداولة بالإضافة إلى البحر الثقافي الذي يحيط بنا، وهل نسيت تاريخ أدبنا العريق. لقد عريت نفسك وفي خزانتك أحسن أنواع الملابس."
حسن: "رجاء، يابا، ليس هكذا يُناقش النص الأدبي!"
سليمان: "إنه أدب مغترب معذب."
حسن: "أعترف، يا والدي، أنني عندما تحدثت قبل قليل عن الغنى الذي ينجم عن الهويتيْن بسطت الأمور، ولكن الحوار الذي نخوضه الآن يجعلني أعي الصعوبات التي رافقت هذه العملية التي كانت أعقد مما شرحت لك. صحيح أن هناك العديد من الناس في الخارج يسعون إلى إخراجك من دائرتهم فهم يذكرونك باستمرار بأنك غريب. وأنت بدورك تحدثهم بعفوية عن جذورك ووطنك الذي انحدرت منه وترعرعت فيه وبهذا تقول لهم إنك تختلف عنهم. أعترف أن الطريق إلى الهويتين ليس معبداً بالورود، ولكن المشاكل ترافق الإنسان أيضاً حين تكون له هوية واحدة. الغربة، يا والدي، متى تبدأ وأين تنتهي؟ سؤال يشغل الفلاسفة والأدباء منذ الأزل."
سليمان: "قد يكون كل ما ذكرته صحيحاً. غير أنني لم أكن أعلم أن هذا الضياع وهذه الآلام ترافق المغتربين. وبصراحة أود أن أقول لك، يا حسن، لا أود أن أعيش هذه التجربة."

العلاقة بين سليمان وحسن لم تتوثق أكثر بعد هذا الحوار، ولكن سليمان دخل بعض الشيء إلى عمق واقع حياة ابنه في الخارج. كان طيلة غياب ابنه يتخيل أنه يعيش في ألف نعيم، والآن أصبح يعلم أن هناك بعض الآلام التي تنافس أوجاع الفقر.

في اليوم التالي ذهب سليمان إلى الدكتور عدنان عطوان الذي تربطه قرابة بعيدة به. الطبيب، الذي يعالج سليمان منذ عشرين عاما دون أن يربح قرشاً واحداً منه، سأله: "كيف حالنا اليوم؟"

سليمان: "هل تريد جواباً قصيراً أم طويلاً؟"

الدكتور عدنان: "خذ حريتك"

سليمان: "لا بد أنك ما زلت تتذكر جميل. كان جميل شاباً مثالياً. غادر جنين في مطلع الخمسينات ليدرس الطب في ألمانيا وليقدم بعد ذلك – كما كان يقول – خدمات طبية مجانية أو شبه مجانية لفقراء البلدة. وكان عازماً على نقل أحدث أنواع العلاج والمعدات من الجامعات الألمانية إلى جنين. لقد اشتهرت عبارته: "عندما أعود سيتمنى الأغنياء في عيادتي لو كانوا فقراء." وماذا صار مع جميل؟ لقد أصبح الطبيب الخاص لأمير سعودي وأشرف أكثر من عشرين سنة على تقديم خدماته الطبية له فقط. أصبح جميل ثرياً، ولكنني كنت أعتبره طيلة حياتي بائساً وشقياً. لم أحتقر إنسانا كما احتقرت هذا المخلوق."

الدكتور عدنان: "لم نر جميل منذ سنوات، فلماذا خطر ببالك اليوم؟"

سليمان: "الآن في شيخوختي أحسد الأمير السعودي، وأتمنى لو يتوفر المال لدي لكي أشتري طبيباً خاصا يخدمني وحدي، فأنا أعاني من أمراض لا حصر لها: السكري، الضغط المرتفع وتضخم القلب.."

الدكتور عدنان ضاحكا: "باستطاعتك أن تستغني عن الطبيب تماماً لو أنك اتبعت نظاماً آخر للأكل، ولكن عندها لن تبقى سليمان الذي نعرفه وستصبح إنساناً آخر. نحن نحبك أيضاً لأن وزنك يقارب المئة وثلاثين كيلوغراماً، ولكن هذا الوزن سيقتلك للأسف ذات يوم."

سليمان حاول أن يقنع طبيبه أن وضعه الصحي اليوم بصورة خاصة سيء للغاية. غير أنه لم يستطع أن يضحك على ذقن هذا الرجل الذي يحفظه عن ظهر قلب، فهو يعرف حق المعرفة أن "السرسبة" منتشرة بشكل كبير عند كثير من الرجال في هذه المنطقة. ولذا قرر الدكتور أن يعطيه حبوباً لا تضر ولا تنفع، ثم أرسله للبيت.

بعد أيام قليلة عاد حسن إلى ألمانيا. وضع سليمان الصحي أصبح مزرياً. فقد حاسة السمع، وشعر بدوخة رمته في السرير عدة أيام. الدكتور عدنان لم يشخص مرضاً جسدياً ولكنه لاحظ أن مريضه يعاني من آلام نفسية. قال له:

"دع أولادك الثلاثة يأتوا من الكويت إلى جنين." سليمان أرسل على طريقته الدرامية تلغرافاً لابنه عطا: "حالتي يرثى لها. احضروا جميعا إلي، لأنني أريد أن أودعكم. أبوكم." في اليوم الثاني وصل عطا وهاني وعثمان (الذي تسلم عمله كصيدلي في مستشفى في الكويت منذ أيام قليلة) إلى جنين. كان والدهم مستلقياً على سريره عندما دخل الشبان الثلاثة الذين جلسوا حوله. سليمان لم يحاول أن يسيطر على دموعه التي انهمرت بغزارة. وفي تلك اللحظة فكّر أبناؤه: لا حول ولا قوة الا بالله. حسناً فعلنا عندما قررنا الحضور. يبدو أن الختيار سيتركنا إلى الأبد.

بيد أنه بعد نصف ساعة فقط قفز من سريره كالأسد وخرج إلى مقهى "أبو نهار" برفقتهم.

كان يمشي في وسطهم وقد "شنجل" بعطا يميناً وبعثمان شمالاً، وكأنه يريد أن يقول لأهل البلد: انظروا: هؤلاء أولادي. كان فخوراً بهم إلى أبعد الحدود، ومنذ وصولهم عادت له قوته وعافيته. لم يكن مريضاً حقاً، فصحته كانت على خير ما يرام. جميع العيون ترعاه وتتفحص حالته، فجسده الضخم كان يلفت الأنظار دون جهد كبير. لم يفطن أحد لزوجته عطاف التي ستغادر الحياة بعد أشهر قليلة.

جذور عائلة سليمان – ولادة الطفل الأبهة

ليست عطاف وإنما سليمان، ابن عمها والرجل الذي سيتزوجها فيما بعد – يحتل مكان الصدارة في هذه القصة التي بدأت بأعجوبة: رضيع غير عادي ولد في فلسطين، ليس في بيت لحم، وإنما في قرية عرّابة التي تبعد عنها حوالي المئة كيلومتر وذلك بعد 1910 سنة من ولادة أشهر طفل في فلسطين. عندما شاهدت عيناه النور كان وزنه سبعة كيلوغرامات. لو ولد في نيويورك لربما أضيف بوزنه هذا إلى موسوعة غينيس للأرقام القياسية، ولكن عرابة لم تكن تَعرف في ذلك الحين أي نوع من الإحصاءات. القابلة القانونية اعتبرت هذا الوزن العظيم ظاهرة فريدة، واسترسلت في وصفه في البيوت التي تزورها، مما جعل الرضيع من المواضيع المثيرة والمطروقة في القرية.

وسوى ذلك، إذا لم نعر اهتماماً لفمه الذي ظل مفتوحاً وإلى ذراعيه الممدودتين إلى أعلى وكأنه يطالب بشيء ما، فإن الرضيع كان عادياً. والدته سامية أخذت تتساءل: ماذا تعني يداه المرفوعتان، وبماذا يطالب، وماذا يريد، يا الله؟ أجابت أمه المنحدرة من أصول تركية نفسها على سؤالها: إنه يطالب ككل الأطفال بمزيد من الحليب. ولحسن الحظ الحليب متوفر لدى هذه العائلة الثرية، فبعيد ساعات من ولادته استهلك كل حليب أمه الفخورة ببكرها الذكر الذي جاء متأخراً بعد أن رُزقت ببنتين. في الأسبوع الأول سجلت أختاه رقما قياسياً جديداً: إنه يشرب يوميا 24 زجاجة حليب وكان من الملفت أنه لم يكن يتمتع بها كثيراً، فقد بدا عليه بعض الامتعاض والتحفظ.

العائلة عبرت عن بهجتها إزاء شهيته المفتوحة التي عزتها إلى فخامة وزنه وهيئته المهيبة. بيد أن سعادة أهل البيت لم تستمر طويلا، فبعد اليوم السابع رفض رفضاً قاطعاً أن يشرب نقطة حليب واحدة. لم يعد هناك أدنى شك في أن الرضيع لا يستسيغ طعم الحليب وأنه اتخذ قراراً بألاّ يشرب مدى حياته هذا المشروب مهما قيل عن أهميته الصحية. فشلت كل محاولات أمه وأختيه للتحايل عليه، فقد كان يبصق الحليب مما جعل وجوههن تتغرق به.

ما العمل؟ لم تهنأ العائلة ولم تستطعم بطعام الغداء: كوسا وورق دالية. كانت حبات الكوسا أكبر قليلا من الأصبع ومحشوة، كورق العنب، بالرز واللحم المفروم. الوجبة هذه كانت من أروع طبخات سامية، التي أصبحت تعتز باسمها الجديد "أم سليمان"، فلا يشعر المرء كيف تنزلق هذه القطع الطيبة

إلى المعدة، فهي مطهوّة بجدارة يد سيدة عكّاوية تركية الأصل – سنعرج على أصلها وفصلها فيما بعد. بيد أن سامية لم تشغل مخها لحظة واحدة اليوم بطبختها، بل برضيعها الذي لم يتوقف في الساعتين الأخيرتين عن البكاء أثناء أول إضراب له عن الطعام، كما أنه لم يكف عن تحريك يديه باتجاه السماء مطالباً بحصته، ولكن من ماذا؟.

استسلمت الأم لمصيرها يائسة وغادرت غرفة الجلوس برفقة ابنتيها تاركات صحناً كبيراً فيه سبع كوسايات على الطبق المصنوع من القش الملون على السجادة الإيرانية السميكة التي كن يجلسن عليها فوق وسائد متعددة الألوان. سليمان كان ملقحاً على السجادة نفسها على فرشته الصغيرة الشديدة الطراوة. بعد دقائق قليلة عادت أمه وأختاه للغرفة، وكم كانت سعادتهن عندما اكتشفن أن سليمان يغط في نوم عميق. أخته وصفية التي وُلدت قبله بستة أعوام تقول إنها رأت طيف ابتسامة هادئة على وجهه. وبعد برهة لاحظت والدته أن الكوسايات المحشوّات اختفت من الصحن كفص ملح ذاب في البحر. "ماذا حدث؟ وكيف صار؟" سؤالان وجهتهما إلى ابنتيها اللتين نفتا بحرارة أنهما أكلتا أي شيء بعد مغادرتهما للمكان. لم يكن غيرهن في البيت والشبابيك كانت مغلقة، فكيف يمكن تفسير الاختفاء؟ جلسن على وسائدهن حول الطبق وفراش سليمان الذي لم يعد يرفع يديه، فقد سلم نفسه لسفينة النوم الهنيء. الهلع سيطر على تعابير وجه سامية التي جاء دورها لترفع يديها إلى السماء متضرعة للإله أن يحمي بكرها. ابنتها وصفية أخذت تبكي بصوت منخفض متضامنة مع أمها.

سميرة (13 عاما) التي تتمتع خلافا لأمها بكثير من الذكاء والبرغماتية أعلنت ما يلي:

"لا توجد عفاريت في البيت. سليمان أكل السبع كوسايات وبالصحة والعافية إن شاء الله." سامية ظلت تهز رأسها غير مقتنعة بهذه الرواية وأحضرت من الغرفة المجاورة قرآناً وحجاباً صغيراً حريرياً. كتبت داخله بعناية سورة الكرسي. علقت الحجاب في رقبة وحيدها وقررت ألا تفارقه وأن تقرأ أمام فراشه أكثر من سورة من كتاب الله.

سليمان لم يأبه بكل هذا، ولم يتحرك أبداً أثناء نومه الذي استغرق خمس ساعات.

وبعد أن استيقظ بلحظات بدأ مجدداً بالبكاء كأن شيئاً لم يكن. حاولت أمه تهدئته بزجاجة حليب جديدة – لعل الله هداه – ولكن رفضه كان أعنف بكثير مما كان عليه قبل نومه.

مرة أخرى تحكم الحزن والخوف بتعابير وجه سامية التي أخذت تضرب كفاً بكف إلى أن جاءت سميرة من المطبخ وهي تحمل صحن كوسا. استغربت أمها: ماذا تعملين يا بنت؟ لم تكترث سميرة وبدأت

تلوح بكوساية أمام أنف سليمان، الذي توسعت فتحتا أنفه وفتح فمه بضراوة عجيبة. لم تنتظر سميرة طويلا فقد لقمته كوساية على الرغم من احتجاجات أمها. بسرعة البرق التهم سليمان خمس كوسايات ثم نظر بارتياح في اتجاه أسرته وغرق مجدداً في سبات عميق.

"هذه معجزة!" صاحت أم سليمان طالبة النجدة من السماء مرتلة آيات قرآنية، ثم أحضرت بسرعة خرزة زرقاء وعلقتها إلى جانب الحجاب صوناً من الحسّاد.

في اليوم التالي جاء الطبيب الوحيد في جنين، أقرب مدينة لعرَّابة، من عيادته ليفحص الرضيع ويؤكد صحة المعجزة: "لم نعرف في فلسطين طفلاً ولد بهذا الوزن وبجهاز هضمي يتباهى به ابن الثلاث سنوات، ولكن ليس هناك ما يستدعي القلق، فلله في خلقه شؤون." لم يشك أحد في تشخيص الحكيم المتخرج من استانبول، وفي القرية أصبح الحديث عن سليمان موضوع الساعة والأسابيع القادمة وخلالها انخرط سليمان كلية في حياة المطبخ اليومية، فهو يأكل طعام الكبار. بعد أسبوعين برزت أسنان الحليب في فمه، وبعد عام من ولادته تسلح بأسنان خدمته كأدوات مضغ متينة حتى ما بعد الستين.

بيد أن سليمان لم يستعجل في النطق، فهو لم يتكلم – كما ورد في القرآن الكريم- كالرضيع الفلسطيني، المعجزة الأخرى، سيدنا المسيح عندما طعن قوم مريم بشرف أمه التي رزقت بطفل وهي غير متزوجة. وحدثت المعجزة عندما أشارت إلى مهد رضيعها مطالبة قومها باستيضاح الأمر منه:

﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا(29)قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا(30)وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا(31)وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا(32)وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ (سورة مريم: 29-33).

كان سيدنا المسيح مضطراً للتكلم، وهو رضيع، دفاعاً عن شرف والدته السيدة مريم، ولكن لم يكن هناك ما يستدعي أن ينطق سليمان في هذا الوقت المبكر، فلم يطعن أحد بشرف سامية المتزوجة، هذا بالإضافة إلى أن أمه كانت طباخة ماهرة ولم يكن هناك ما يتطلب أن يرفع سليمان صوته محتجاً على هذه الطبخة أو تلك، فقد عالج الموضوع مع أمه بقاموس عملي ومبسط للغاية وفيه كان يستعمل لغة البصق، إن صح التعبير. كان يبصق اللقمة الأولى من الوجبة التي لم يكن يهواها، وكانت والدته تفهم عليه حالاً وتشطب الطبخة فوراً من قائمة وجباتها. لم يكن موقفه هذا – كما اتضح فيما بعد – تشكيكاً في قدرتها على طهو الوجبة المرفوضة، بل كان موقفاً مبدئياً من تفاصيل بعض

الأكلات. لنأخذ مثلاً البندورة المحشوة بالرز واللحم وقليل من النعناع. سليمان بصقها مباشرة عندما ذاقها أول مرة في صيف 1910. وفي عام 1927 أي بعيد زواجه من ابنة عمه عطاف أوضح رأيه في هذه المسألة على النحو التالي:

"الله سبحانه وتعالى خلق البندورة لنأكلها طازجة، كسلطة، أو ربما كعنصر إضافي للطبخة، وأخيراً إذا اقتضى الأمر لا يتحفظ الله إذا قليناها مع الثوم والريحان. لم تخلق البندورة للحشو أبداً، ومن لا يفهم هذا الكلام غبي، ولا يفهم بالأكل الطيب."

من المؤكد أن سليمان كان سيصبح إنساناً آخر تماماً لو لم يكن ابن سامية التي أدخلت إلى عرابة المطبخ التركي وأغنت به المطبخ العربي الذي كان بسيطاً ومتأثراً بما في الصحراء من لحم الجمل والتمر ومشتقات الحليب بالإضافة إلى خبز الصاج. كانت سامية مستعدة لأن تقدم لسليمان لبن العصفور – كما يقول المثل، إذ كانت تراقب بدقة رغباته في الطعام، ومنذ يومه السابع أصبح سليمان يتحكم في طبخات البيت. حُرم بقية أفراد البيت تماماً من جميع الأكلات التي ردها سليمان، وعلى رأسها البندورة المحشوة. سعادة سليمان كانت تعني سعادة سامية، فقد انتظرت ولادته 13 عاما، ما كان أصعبها، فالأم في الشرق كانت آنذاك تُعتبر مع قليل من المبالغة عاقراً إذا لم تلد صبياً يرفع علم العائلة.

سامية تنحدر من عائلة تركية. وفي ظل الإمبراطورية العثمانية سكنت عائلتها منذ مئات السنين في فلسطين. ولدت في عكّا، إحدى درر البحر الأبيض المتوسط، والتي يرى البعض أنها أجمل مدينة فلسطينية. كانت سامية تنتمي إلى عائلة ميسورة ومرموقة. تعلمت في مدرسة قرآن للبنات القراءة والكتابة. لم يُطلب منها أكثر من ذلك، ولم تقرأ في حياتها سوى القرآن الكريم وصفحات في كتاب تفسير الأحلام. لم ير أحد في يدها كتاباً ثالثاً أبداً. منذ ولادة سليمان قلّت مطالعتها في الكتابين لأنها أصبحت مشغولة بقراءة رغبات نجلها من شفتيه.

والده عطا لم يستطع مشاهدة بكره إلاّ بعد ولادته بثلاثة أسابيع، وعندما كاد وزنه يصل إلى العشرين كيلوغراماً، وكان أن قدمته سامية لزوجها بكل اعتزاز: "صبرنا ونلنا، يا أبا سليمان!" عطا رجل أعمال ناجح يعمل تاجراً للحبوب في عكا، حيث يقضي معظم أيام الشهر، ولذا تأخر عليه وصول نبأ ولادة سليمان بعض الشيء. وعندما وصله هذا الخبر المفرح امتطى جواده في رحلة تستغرق من

عكا لعرابة حوالي اليومين. كان يغني أثناء هذه الرحلة، التي كان يتمنى خلالها لو كان لحصانه أجنحة ليطير لابنه ويحتضنه. إنه رجل محظوظ، فالآن وبعد مجيء سليمان لم يعد ينقصه شيء، هذا أول ما فكّر فيه حين بدأ رحلته.

زوجته الأولى، ابنة عمه، كانت تميل إلى البشاعة وكانت تخلو تقريباً من الأنوثة، وعندما ساعده الحظ وتوفيت في سن مبكرة بمرض عضال، أقسم بالله ألاّ يتزوج المرّة القادمة غير امرأة جميلة، حتى ولو كلفه ذلك كل ثروته. هذه المهمة لم تكن سهلة في وقت كانت النساء فيه لا يظهرن محاسنهن، بل على العكس كن يحرصن على ألاّ يشاهد أو يسمع الغريب منهن ما يجذبه أو ينفره. عطا كان يقضي معظم وقته مع رجال الأعمال وبعض الأصدقاء الذكور، وإذا زار أحدهم في بيته، فقد كانت سيدة البيت أو ابنتها تعد القهوة في المطبخ ليحضرها الأب أو الخادم إلى الديوان أو غرفة الضيوف دون حتى أن يسمع الضيف أي صوت نسائي، فالبعض كان يعتبر أيضاً صوت المرأة عورة.

ما العمل؟ عطا كان رجلاً مرناً وذا حيلة، كما أنه كان لا يبخل بالمال دون أن يكون مبذراً، ولكن فيما يتعلق بالزواج فقد كان مثل هذا الأمر يعني له الكثير. الناحية المادية لم تكن تلعب دوراً في حساباته التي كان لها علاقة بالحمامات التركية. آنذاك لم تكن الحمامات قد انتشرت في البيوت. معظم الناس كانوا يذهبون لحمامات المدينة. يوم الثلاثاء كان مخصصاً للنساء فقط. لم يجد عطا صعوبة كبيرة في التعرف على المرأة التي كانت معنية بتنظيف الحمام يوم الثلاثاء بالإضافة إلى قيامها بمساعدة السيدات أثناء مراسم الحمام.

كان ابن هذه المرأة من العمال الذين يعملون في نقل الحبوب من مخازن عطا إلى السفن التي كانت تبحر لتركيا أكبر المستوردين لخيرات مرج بن عامر الذي كان حتى في أيام حكم المصريين لفلسطين مصدراً رئيسياً لتزويد مصر بالحبوب. طلب عطا من الابن أن يحضر معه والدته في إحدى الأمسيات للبيت، وهناك قدم لها عرضاً لم تكن تحلم به. قال لها: "اسمعي، يا أم مصطفى، لدي مهمة لك، إن قمت بتنفيذها على أحسن وجه فسأكرمك أيما إكرام. أنت تعلمين أنني رجل أرمل وأبحث عن صبية أتزوجها على سنة الله ورسوله. كل ما أريده منك أن تنتبهي لأجمل ثلاث بنات يأتين إلى الحمام في الشهر القادم وستأخذين مقابل ذلك ليرة عسملية،" (أي ليرة ذهب – يقال أن الليرة العسملية أو العصملية كانت وقتها تحكي.) وواصل كلامه قائلا: "سأستفسر بعد ذلك عن عائلاتهن، فإن وجدت

إحداهن قدّ المقام، فإنني سأتزوج هذه الفتاة والتوفيق عند الله، وإذا حدث ذلك فلك مني ليرة عسملية أخرى."كادت أم مصطفى تتوقف عن التنفس، فهذا المبلغ يزيد عن راتبها لثلاثة أشهر.

بعد ثلاثة أشهر تزوج عطا، بهمة أم مصطفى، سامية التي ربما كانت من أجمل نساء فلسطين. كاد يطير عقله ليلة العرس. عطا يتذكر في طريقه إلى عرّابة:

"يا إلهي، ما هذا الجمال الذي صنعت: هذا الشعر الأشقر الطويل وهذا الجسد الأبيض الغض الذي لم ينحت الفنان الإيطالي ميخائيل أنجلو أروع منه." ثم استمر في نسج أفكاره معبراً عن فرحته لأن الأمور الأخرى سارت أيضاً على خير ما يرام. من خلال شراء أكثر من مزرعة في مناطق تتوفر فيها المياه بالقرب من عرابة تضاعفت ثروته مما عزز من انبساطه وإقباله على الحياة. لم يرزقه الله بأطفال — في تلك اللحظة نسي تماماً أنَّ لديه ابنتين — فقد كان تواقاً لصبي ووريث يحافظ على ثروته واسمه، والآن أنعم الله عليه بسليمان. الحمد والشكر لله. الآن اكتملت سعادته. وصل عرابة وهو يغني بأعلى صوته أبيات العتابا، وعندما شاهده أهل القرية قالوا في سرهم: "انتظر، سليمان سيكون مفاجأة كبيرة لك"، وهذا ما حدث حقا. لم يكن يتوقع أن يكون بكره الرضيع بهذا الوزن والحجم حتى خيل له أنه ولد صبياً وليس رضيعاً. بصعوبة حمله وردد: " الله يبارك! ما هذا الطفل الأبهة؟ هل أنتم متأكدون أن عمره لم يتجاوز الثلاثة أسابيع." ضحك عطا حتى كاد يقع على قفاه عندما حدثوه عن أنواع الأكل التي يلتهمها. صاح عطا فرحاً: "هذا يعود إلى شطارة سامية في فن الطبخ وإلى المطبخ التركي المتميز. ما من شك أن حاسة الذوق لدى سليمان متطورة للغاية وأنا أتمنى له المزيد، خاصة وأنه حُرم أثناء الأسبوع الأول، بعيد ولادته، من هذه الملذات." بعد هذه الكلمات دعا عطا الموجودين — على أن يبلغ الحاضر الغائب— إلى حفلة طهور سليمان يوم الجمعة القادمة في ديوان دار عطوان وباحته بعد صلاة الظهر.

لم تكن الفرصة قد سنحت لمعظم أبناء القرية، الذين تحمل أغلبيتهم باعتزاز اسم آل "عطوان"، أن يعبروا عن إعجابهم بابن عمهم الرضيع، "معجزة القرية" سليمان، ولذا كانوا ينتظرون حفلة طهوره ساعة بساعة. لم تكن فرحتهم فقط كالعادة في مثل هذه الحفلات التي تحييها القرية، بالدرجة الأولى بوجبات اللحم الذي ندر في القرية وإنما بصورة خاصة بهذا الفحل الذي جادت عليهم الطبيعة به. لقد أصبح عام 1910 يسمى في القرية سنة ولادة سليمان الكبير، وبهذا دخل سليمان تاريخ القرية

من أوسع أبوابه. لم يشك أحد أن عطا رزق بابن سيصبح من قيادات العائلة إن لم يصبح الرجل الأول.

أصيب شباب العائلة بخيبة أمل بعض الشيء. لم يكن الطعام سبب ذلك، فقد ذُبح عشرون خروفا قدمت محشوة بالرز والصنوبر واللوز ومعدة بمهارة فائقة بالطابون. كان الطعام برائحته الدسمة التي ملأت المكان فوق كل انتقاد، كما أن شباب القرية أحيوا دبكة رائعة تخللتها المواويل بصوت أبي العز:

"طلعت تا تسقي الورد لطفية وفتح الورد من غير سقية... أوف...أوف...يابا"

وآخر يردد بيت عمرو بن كلثوم:

إذا بلغَ الفِطامَ لنا رضيعٌ   تَخِرُّ له الجبابرُ ساجدينا

ويضيف: "سليمان فُطم بعد أسبوع، فيا ويل أعداء آل عطوان."

في هذه اللحظة أطلق أحد مقاتلي الحمولة رصاص الفرح من بندقيته في الهواء، فخشي بعضهم أن يُصاب سليمان بصدمة ولكنه لم يكترث بذلك، فقد كان منهمكا بالتهام الرز وقطع اللحم المعدة له خصيصا.

النساء لا يشاركن في العادة في حفلة الطهور في الباحة، ولكنهن رحن يغنين في الصالون لسامية وعطا ولسليمان طبعا وبألسنتهن المتدربة على الزغرتة يزغرتن بأصواتهن القوية التي تصل إلى الباحة وتزيد من حماس الدبيكة ونشوتهم وحركاتهم.

غير أن النساء لا يفتقدن مراسيم الطهور، ويتنازلن بكل سرور عن هذه العملية غير المشهية التي يقوم بها أبو لطفي حلاّق القرية. أثناء هذه العملية أصيب العطوانيون بخيبة أمل، فقد اتضح لهم أن حمامة سليمان كانت للأسف صغيرة ولا تستحق الاعتزاز. كان العطوانيون، الذين يعانون بصورة عامة من قصر علامة رجولتهم – دون أن يعترفوا بذلك أمام الملأ – كانوا يتوقعون أن يتناسب طولها مع ضخامة جسم سليمان، فهم يعتقدون أن طولها من مميزات الزعامة. أما فيما يتعلق بسليمان فلم يكن يكترث لذلك وكل ما أزعجه كان الألم الذي ألحقه به حلاق القرية حين قص الزائد من حمامته،

ولكن والده الذي كان صاحيا للموضوع فقد وضع في فمه حالا حفنة من الرز التهمها سليمان ونسي موضوع الطهور إلى الأبد.

قبل أن ينتهي الفرح في وقت متأخر طلب عطا من بعض العطوانيين، خاصة فهمي، ألاّ يغادروا المكان، لأنه يريد أن يتحدث معهم في قضية مهمة. وفي منتصف الليل جلس تسعة رجال في الديوان حيث قدمت لهم القهوة بالهال. بدأ عطا بالكلام وكانت عيناه تستقران بين فترة وأخرى على فهمي، هذا الفارس والمقاتل المرموق:

" أنتم تعلمون أن عصابات من آل شرّار تنهب حصاد أرضي والمزارع المجاورة التي تملكها حمولتنا، كما أنهم يسرقون مياهنا ويحولونها ليلا إلى مزارعهم، بالإضافة إلى أنهم يسعون إلى توسيع رقعة أراضيهم بطرق غير قانونية على حساب أراضينا. لقد زاد الطين بلة منذ سحبت الإمبراطورية العثمانية معظم جنودها من منطقتنا لأنها مشغولة بالإعداد للحرب في أوروبا ومناطق أخرى. إلى متى سنظل نتحمل هذه الاعتداءات على أرزاقنا؟ ليس لدينا سوى خيار واحد: علينا أن نخلق النظام بأنفسنا، ولكن كيف؟" في نهاية كلامه رفع صوته بكثير من التحفز.

"هذا جوابي الوحيد" قال فهمي مشيرا إلى بندقيته. "الندامة جارة التسرع" كان تعليق أسد على بندقية فهمي، وأضاف أسد: "الشرّار يجيدون أيضاً إطلاق النار. أفضل أن نتفاوض أولاً، وإذا لم يعطنا أولاد الكلب فرصة ثانية فإننا سندافع عن حقوقنا بقوة السلاح." كان عمر أسد المعروف بطولة الروح والتروي ضِعف عمر فهمي الذي كان يبلغ الخامسة والعشرين. وبينما كان الشيب قد أخذ يسطو على شعر أسد، كان فهمي في عز شبابه. استمر الحوار الساخن أكثر من ساعتين، وأخيرا أجمع المجتمعون على إرسال المحارب فهمي و"الدبلوماسي" أسد إلى فوزي زعيم دار شرّار للتفاوض معه. اختتم عطا الاجتماع بقوله: "لا أستطيع البقاء طويلا في عرّابة، فأعمالي في عكا لا تتحمل الانتظار. للاحتياط سأترك مبلغ 300 ليرة عسملية لشراء الأسلحة، تحسبا لأسوأ الاحتمالات."

عرّج عطا قبيل الذهاب إلى فراش الزوجية المريح الممدود على سجادة على ابنه، الذي لم يتأثر بشكل يستحق الذكر بعملية الطهور، لأن اللذيذ من الطعام سيطر على معظم حواسه، ولذا كان سليمان يغط في سبات عميق. عطا اقترب منه، قبله واشتم روائح لا تطاق وأصوات أمعائه الشغّالة كمصنع صغير؛ عطا ابتسم وميل رأسه قليلا وحدث نفسه: "سامية، كان الله في عونها، ستهلك في مصارعة

هذا الدب!" كان عطا النحيف يختار ملابسه بعناية، وقلما كنت تراه بملابس غير أنيقة، كما كان يتصف بخفة الروح والطيبة، طالما أن أحدا لا يثيره أو يستفزه، وعندها كان يكشف وجه رجل الأعمال الذي لا يخلو من القسوة والمرونة والقدرة على المقارعة بنفس طويل للغاية.

ما زال يشعر بتعب الطريق من عكا لعرابة والاحتفال بسليمان ولكن شعوره بالقلق كان يقف بينه وبين النوم. صحيح أنه في غاية السعادة بمجيء سليمان، بيد أن الصراع على الأرض ما فتيء يقض مضجعه. وعلى الرغم من أنه كان يتحدث مع نفسه خرجت الكلمات من حلقه: "الله يلعن آل شرّار.." وفي هذه اللحظة التقطت كلماته سامية التي كانت بين اليقظة والنوم وقالت له: "ماالهم دار شرّار؟". فرد عليها: "نامي، يا أم سليمان لا مالهم ولا حاجة!" واستمر في ربط أفكاره حابساً صوته على الكلمات التالية: "على المرء أن يكون يقظاً لأن لصوص الأراضي لا يعرفون النوم. وفي بعض أطراف فلسطين بدأ المهاجرون الأوروبيون اليهود ببناء مستعمراتهم والتحايل على أصحاب الأراضي بكل الطرق. ستمر علينا أيام عصيبة. الله يستر!" وفي نفس الوقت لم يكن عطا قلقاً بشكل جدي فيما يتعلق بتلك المستعمرات لأن المستعمرين لم ينشطوا في منطقة عرابة وجنين وإنما بالقرب من حيفا وعكا حيث مكان عمله. من كان يتوقع في عام 1910 ان يستفحل توسع الأقلية اليهودية-الصهيونية التي لم تتجاوز آنذاك العشرة بالمئة من مجموع السكان، وأن يتحول هذا التوسع في هذا القرن إلى صراع دموي على الأرض.

عاد عطا بعد ثلاثة أيام إلى عكا. كانت تجارة الحبوب رائجة للغاية فالإمبراطورية العثمانية كانت معنية بتأمين احتياجات عشرات الآلاف من جنود جيشها الجرّار. كان عطا قلقاً أيضاً لأن ميناء عكا الذي لا يتصف بالعمق لا يصلح للملاحة البخارية الحديثة مما جعل حركة النقل تسير عبر ميناءي حيفا وبيروت، مما سيؤدي إلى زيادة تكاليف نقل الحبوب من مرج بن عامر وارتفاع أسعارها. عطا لم ينس الوقت الذي كان فيه ميناء عكا دون منافسة تذكر خاصة في القرن التاسع عشر، ولكنه كان يعلم أنه يستطيع التغلب بسهولة على التطورات الحديثة في عالم النقل البحري، خاصة وأن الطلب على الحبوب في ازدياد مستمر ومرج بن عامر الذي يبلغ طوله حوالي الأربعين كيلومتراً سيظل مخزناً ضخماً للحبوب على مدى الدهر.

وعلى الرغم من ذلك كان عطا يشعر ببعض الأسى لأن حكومة استانبول كانت تستولي بكل الطرق على إنتاج القمح، وفي نهاية الصيف كان الفلاحون يتضورون جوعاً لأن الدولة كانت تصادر معظم ريعهم لتأمين احتياجات حروبها. ولكن عطا عاد وقال لنفسه: "لا يجوز أن يبصق المرء على اليد التي تطعمه"، فقد كان لا يغيب عن باله أن آل عطوان مدينون للباب العالي، فبدون دعم استانبول لهم ما أصبحوا من أهم الحمائل في فلسطين. كان عطا شاكراً لأن الأتراك وقفوا دائماً لصالح آل عطوان عندما كان يحتدم الصراع على مراكز القوة في نابلس مثلا وغيرها من المناطق في فلسطين، وعطا لا ينسى أن عدداً لا يستهان به من زعامات دار عطوان حصل على لقب باشا من الباب العالي.

للأسف لم يحصل عطا على هذا اللقب، ولكنه ما كان ليتمكن من شراء أراض ذات قيمة بأسعار التراب لو لم يرغم نظام الضرائب الفلاحين في ذلك العصر على التنازل عن أراضيهم. وبالإضافة إلى ذلك كان يضطر الكثير من الفلاحين إلى نقل أوراق ملكية آلاف الفدادين إلى الحمائل الكبيرة تهرباً من دفع الضرائب أو من الخدمة العسكرية. الفلاحون وأبناؤهم كانوا في كثير من الأحيان، سواء شاءوا أم أبوا، يسخّرون للخدمة بالجيش وكان عملاء النظام يصطادونهم في الشوارع والطرقات بغض النظر عن هوياتهم وملكيتهم. خلال أيام قليلة كانوا ينقلون لجبهات القتال. وبعد ذلك كانت أخبارهم في كثير من الحالات تنقطع إلى الأبد، وكان الآلاف منهم يحاربون ضد شعوب لا يعرفونها ويسقطون في معارك في بلاد لم يسمعوا اسمها من قبل.

هذه الهموم ليست هموم عطا، فهو يحب نمط حياته ويعشق عكا التي كانت عاصمة واحدة من ثلاث مقاطعات إدارية فلسطينية وكانت بقصورها وجوامعها وكنائسها تنافس بيروت ودمشق، ففي أبنيتها الرائعة يظهر فن العمارة الفاطمي والصليبي والعثماني، كما تتميز بعمارة جامع الجزار الذي شيد من أعمدة رخامية قديمة.

صحيح أن عكا اليوم لم تعد بهذه الأبهة، ولكنها وهي التي صمدت بسورها التاريخي أمام جيش نابليون لا تقارن بقريته عرّابة على الرغم من أن آل عطوان جعلوا منها حصنا منيعا ليس ضد الجيوش وإنما ضد غزوات الحمائل الأخرى وعلى رأسها آل شرّار. وفي هذا السياق اتخذ قراراً بينه وبين نفسه وبموجبه سيحضر عائلته في الصيف القادم إلى عكا عندما يصبح سليمان في حالة جسدية تسمح له بالسفر من عرابة لعكا. لا شك أن جو البحر الأبيض المتوسط سيرطب حياة عائلته، بالإضافة إلى

أن سامية من مواليد عكا ولا تهوى الحياة في عرابة وتعتبر أهلها فلاحين "برابرة" لا يفهمون الأصول. هنا ستتمتع سامية بالبحر وأسماكه وبالحمامات التي يدين لها عطا بالكثير.

شعر أبو سليمان بكثير من الارتياح عندما استقرت الفكرة في رأسه أن زوجته وأولادة سيعيشون بالقرب منه. كانت هذه الأفكار تراوده وهو يدخن نرجيلته في مقهى أبي سالم الصيفي الذي لا يبعد أكثر من أمتار قليلة من البحر. في اللحظة التي طلب فيها فنجان قهوة عصملياً جاء صديقاه حسام وجورج فقال: "أبو سالم ثلاثة فناجين قهوة إذا سمحت." صاح حسام من بعيد "أهلا أبو سليمان" وبعد أن تبادل القبلات معهما، عبر عن سعادته بكنيته الجديدة وتقبل تهاني صديقيه بولادة نجله. سأله جورج ضاحكاً: "هل صحيح أن وزن سليمان 50 كيلوجراماً؟" عطا: "لا، ليس إلى هذا الحد، ولكن الولد خيره فيه. شهيته مضرب للمثل. لن ينقصه شيء إن شاء الله. إنه طفل غير عادي وستتعرفون عليه في الصيف القادم." قال عطا ذلك وحملق في الأفق الداكن، في البحر الذي كان هادئاً إلى درجة تجعل المرء بحاجة إلى بعض التركيز إذا أراد أن يلتقط أصوات الأمواج التي كانت تتلاطم برقة شديدة. كان البحر على ضخامته لا يبدو واضح المعالم فقد كان يختفي عبر الليل وكان عطا يغوص بأفكاره في هذا الظلام وأسراره وكأنه يريد أن يستشف مستقبل بِكره. شعر هذا الرجل الثري للحظات قليلة عابرة بموجة تشاؤم وبأن سليمان سيعاني الكثير من القلّة. هذا ما سيحدث حقاً فسنرى فيما بعد أن سليمان وعائلته الكبيرة سيتعرضون للفقر والجوع وسيكون لذلك أثر كبير على سير هذه القصة، ولكن عطا لم يكن سبب ذلك، كما سنعرف بعد قليل.

الحديث بين الرجال الثلاثة أخذ منحى جدياً للغاية وربما لا يخلو بعض الشيء من الخطر. وماذا سيكون الموضوع سوى مصير هذه البلاد الغارقة حتى النخاع بالأديان السماوية الثلاثة. حسام اندفع في هجومه على المستعمرين الصهاينة، بينما ركز جورج على انتقاد الدولة العثمانية. عطا كان يحاول أن يُهديء من روع صديقيه. أبو سليمان يرى أنه من حق استانبول أن تقود العالم الإسلامي كما مُنح هذا الحق لمكة ودمشق وبغداد. ولماذا يجوز أن نحرم استانبول من هذا الحق؟ وأضاف عطا أن "ربنا لا يفضل العرب على غيرهم من المسلمين. ألم يرد في القرآن: "إن أكرمكم عند الله أتقاكم" ليس من المهم من الذي يتسلم القيادة سواء العرب أو الأتراك، فكلنا مسلمون!" نسي عطا في تلك اللحظة أن جورج مسيحي وأن طائفته كانت في مطلع القرن العشرين تشكل تقريباً خمس السكان. جورج غض الطرف عن هذا التعميم فهو يعلم أن المسيحيين في العالم العربي أقلية، ومن ناحيته فإن

المهم هو ليس الانتماء إلى هذه الطائفة أو تلك وإنما للقومية العربية وإلى ضرورة تحرير العرب من النفوذ الأجنبي أياً كان. جورج يتجنب الشعارات الدينية فقد تعلّم في سن مبكرة أن التشدد في الانتماء الطائفي يصرف الأنظار عن القضايا الأساسية ويفرق شمل الناس. كما أنه يعلم أنه مصنوع من معدن يختلف عن طينة عطا، فبينما كان عطا – الذي يحبه ويعزه كشخص – ينتمي، كما يرى جورج، إلى عالم الماضي، كان جورج يشعر أنه يمثل المستقبل. لم ترق كلماته كثيراً لعطا عندما قال: "نحن هنا في فلسطين بالنسبة لاستانبول البعيدة لسنا أكثر من دافعي ضرائب وجنود. ماذا تهمنا معارك الإمبراطورية العثمانية في أوروبا؟ فلاحونا يعانون من النزيف، فلم تترك لهم استانبول ما يسد رمقهم ولم تتورع حتى عن مصادرة البذور والتقاوي. الفلاحون المثقلون بالديون يتضورون جوعاً. ألا توجد عيون في رؤوسكم؟ اليوم شاهدت رجلاً يبحث عن طعام في صناديق القمامة. رجال السلطة العثمانية صادروا عشرات الآلاف من الدونمات لأنه لا طاقة للفلاحين بدفع الضرائب المفروضة عليهم. وكما هو الحال بالنسبة لبعض العائلات الفلسطينية الإقطاعية اشترت عائلات لبنانية مثل سركيس وتويني وغيرهما مساحات شاسعة من الأراضي بأسعار زهيدة، فقط لتبيعها بأسعار عالية جداً لمنظمات صهيونية. ومن المعروف أن هذه المنظمات تتفاوض مع الباب العالي لتسهيل هجرة اليهود من روسيا وبولندة الخ إلى فلسطين."

عطا لم يكن يسمع مثل هذه الآراء التي يعتبرها ديماغوجية للمرة الأولى، ولذا ظل رغم انزعاجه محتفظاً بأعصابه. مال قليلا على جورج وطلب منه ألا يتكلم بصوت عال خوفاً من الجواسيس الذين يتسكعون في المقاهي والحمامات ليرفعوا تقاريرهم إلى القائمين بأعمال السلطان. صمت عطا قليلاً ثم اختار كلماته بعناية وبصوت قريب إلى الهمس: "لماذا هذا التطرف عند إخواننا المسيحيين؟ لا أستطيع أن أفهم هذا! في نهاية الأمر الدولة الإسلامية تريد أن تحمينا من حملات صليبية جديدة، فقد قام هؤلاء ليس بذبح المسلمين في القدس بل أيضاً بذبح المسيحيين العرب. بصراحة أنا أفضل الحكم التركي عليهم، ولكنني أعترف في ذات الوقت أنه لا بد من إجراء إصلاحات جدية."

ثم تدخل حسام في النقاش: "أرجوك، يا عطا، فالأتراك سبب كل همومنا، فهم لا يعطون حتى اللغة العربية، لغة القرآن، حقها وشأنها، كما أنهم يتقبلون هجرة اليهود كأمر واقع ولا يتخذون أي إجراءات ضدها، والله وحده يعلم حجم المبالغ التي تتدفق على خزينتهم بسبب موقفهم المشين. وخلافا للمهاجرين اليهود الأوائل الذين جاءوا تحت مظلة اللورد روتشيلد في السنوات 1905 – 1907

يرفض المهاجرون الجدد حتى تشغيل الفلاحين، الذين انتزعوا منهم أراضيهم، في مزارعهم، لأن هؤلاء المستعمرين يتبنون فكرة دعم "العمل اليهودي" فقط. أعترف أن الأتراك أرحم من الصهاينة؛ الأتراك يريدون أن يمصوا دمنا فقط، بينما الآخرون عازمون على التخلص منّا جسدياً وتشريدنا من بلادنا وإقامة الدولة الصهيونية على أراضينا."

عطا: "تمهل قليلا. حتى لو جمعنا كل أملاك اليهود في فلسطين لظلت مساحتها أصغر من أملاك آل عطوان. مند أسبوع تقريباً قطعت المسافة بين عكا وعرّابة على حصاني ولم أر مستوطناً يهودياً واحداً طول الطريق. اليهود يعيشون معنا بسلام ووئام منذ مئات السنين ومنهم الحرفي والتاجر الجيد، ونسبتهم تقل عن العشرة بالمئة من مجموع السكان. بيد أنني لا بد أن أعترف أن استانبول يجب أن تتخذ قبل أن يفوت الأوان إجراءات صارمة ضد هجرة اليهود إلى فلسطين، وإلاّ فإننا سنصبح أقلية في بلادنا."

استمر الحوار وقتاً طويلاً، وعطا بدأ يتململ، خاصة بعد أن أشار الرجلان إلى منظمات سرية عربية تناضل بشكل علني ضد بناء المستوطنات ومن أجل الاستقلال الكامل عن استانبول. ودون مقدمات قال عطا لصديقيه: "آسف، سأذهب الآن إلى البيت لأنني سأستيقظ في الغد في وقت مبكر."

عجل عطا الخطا بعد مغادرتهما وقرر أن يتجنب مجالستهما، لأنه يرى أنهما يلعبان بالنار، فهو يعلم تماماً إن السجون العثمانية أبعد ما تكون عن المصحات ولا يوجد فيها عطوانيون يقومون بحمايته. وماذا يستطيع أن يعمل بضعة خيّالة عطوانيين في مواجهة جيش السلطان الذي يستطيع أن يواجه أعتى جيوش العالم. باختصار: سليمان كان يصبو إلى قضاء أمسية وديعة في مقهى أبي سالم ولكنها ضاعت في نقاشات لا تخلو من وجع الرأس. على أي حال، لم يكن لديه أدنى شك أن آل عطوان لن يبيعوا اليهود أرضاً ليس لأنهم وطنيون فقط، بل لأنهم أيضاً ليسوا بحاجة لمثل هذه الصفقات. كما كان عطا واثقا تماماً من أنهم لن يحاربوا تركيا في يوم من الأيام.

كان الشراريون عدو العطوانيين الأول وصراعهم معهم سيستنفد كل قواهم في الأعوام القادمة، فالمرء كما فكر عطا "لا يستطيع أن يحمل بطيختين بيد واحدة"، بهذا المثل أغلق عطا ملف سهرة الليلة التي كان يتمنى لو أنها لم تحصل.

الآن كان في طريقه إلى نقلة جميلة. عيناه لمعتا حين عزم على زيارة بيت دعارة يتستر تحت اسم دار الخياطة. وحال وصوله اقترحت عليه الخياطة الأولى فتاة نضرة، جميلة وبيضاء من البلقان، ولكنها أضافت أنها للأسف لا تجيد اللغة العربية. تمتع عطا ببعض ساعات الليلة معها دون أن يتكلم، فقد سمع عند أبي سالم ما كفاه من الكلام الفارغ.

إنها ليست زيارته الأخيرة لهذا المكان. في هذا البيت كان عطا يقع في خطيئة ثانية، فهنا كان يشرب كأسا مثلجا من العرق، هذا المشروب الدي يصنعه بمهارة مسيحيو فلسطين ولبنان. لقد تعود أن يرفع كأسه ويشرب على نخبهم، مردداً: "باسم الأب والابن والروح القُدُس." وكان في معظم الحالات يضيف جملة ثانية: "ما كان سيكون أفقرنا دون إخواننا المسيحيين." لم يكن يفهم، لماذا بعض المسلمين والمسيحيين – فكر وقتئذ بجورج المتشنج – يعقّدون الأمور ويصعّبون حياتهم في هذه البلاد الجميلة.

سليمان يستولي على مطبخي عكا وحيفا

احتد الصراع بين العطوانيين والشرّارين وكان هذا التطور من الحوافز التي جعلت عطا يعجل في انتقال عائلته من عرابة التي تقع في منطقة الصراع إلى عكا الآمنة.

بناء على تقارير المندوبيْن العطوانييْن فهمي وأسد فقد فشلت المفاوضات التي أجرياها مع فوزي، زعيم آل شرّار، فشلا ذريعا. لم ينف فوزي بشدة تورط حمولته في أي تجاوزات ضد مزارع العطوانيين فحسب، بل شن حملة شرسة وبألفاظ نابية على مطالب "وادعاءات" و"أكاذيب" آل عطوان. لقد صاغ أسد، الذي درس الحقوق لمدة عام في استانبول, حججه بدراية وحنكة، غير أن الأمّي فوزي لم يفهم محتواها وردّ عليها أولاً بقوله: "طز طزين ثلاثة"، ثم أضاف تعابير أقرب إلى الشتائم منها إلى الحوار، وكان بين الفيْنة والأخرى يبصق على الأرض معبراً عن قرفه البالغ. وبينما ترك فهمي في البداية المبادرة لأسد الذي حاول بكل ما لديه من لباقة أن ينقذ ما يمكن إنقاذه، وجد فهمي نفسه في النهاية مضطراً إلى أن يتدخل بأسلوب لا يقل فجاجة عن مفردات فوزي. ولو اخترنا شخصا محايداً ليمنح أحدهما وسام الوقاحة وقلة الحياء والاستفزاز لوقع في حيرة شديدة، فكلاهما أبلى بلاء بشعاً للغاية. كان من الواضح أن الوقت يعمل لصالح فهمي الذي تعزز دوره وموقفه بعد هذه "المفاوضات". بكثير من خيبة الأمل قال أسد: "لقد عملنا ما علينا. لا يستطيع أحد أن يتهمنا بعدم التروي."

كان "لمؤتمر القمة" هذا نتائج وخيمة ليس على تاريخ العطوانيين والشرارين فحسب، بل بعض الشيء أيضاً على التطورات في فلسطين، فقد كان آل عطوان في عرابة التي كانت تعتبر آنذاك من مراكز القوى في فلسطين، خاصة في شمالها، دون قيادة، لأن زعيمهم محمد عطوان كان توفي منذ عام ونصف، وكان هناك صراع مبطن على خلافته بين أسد "المعتدل" وفهمي الراديكالي. بعد الفشل الذي أصاب "المفاوضات" الأخيرة قال أسد لفهمي بوضوح لا يحتمل تفسيرين: "فهمي، الآن جاء زمنك." قال أسد هذه الجملة وانسحب بمحض إرادته إلى حد كبير من التدخل في قضايا الحمولة الرئيسية، فقد كان يعلم أن فهمي سيقلب الدنيا ولن يطلب استشارة أحد. وبالإضافة إلى تعاظم نفوذ فهمي في منطقة عرابة فقد أصبح من القيادات الثورية التي قاتلت إلى جانب الحاج أمين الحسيني في

نضاله ضد الإنجليز والمستوطنين الصهاينة. غير أن فهمي لن يسقط – كما سنرى لاحقا – في ساحات الوغى وإنما في عرابة.. وبرصاص أولاد عمه.
بعد أيام من زعامة فهمي لم تقتحم مجموعة من المقاتلين الخيالة وعلى رأسها فهمي قرية جبع، مركز آل شرّار، بل قرية صانور القريبة التي تعتبر من المناطق الموالية لفوزي. كانت مثل هذه الهجمات مؤذية ولكنها لم تتصف بالدموية. لم يسمع أحد في كل فلسطين عن مذابح في هذا الإطار، ولكنها لم تمر طبعا دون النيل من الطرف الآخر، فقد كانت تهدف إلى تلقينه درساً. هذا الهجوم خلّف ثلاثة جرحى، كلهم من الفلاحين وليس من آل شرّار. لم يعتد أي خيال على امرأة، فلم يكن ذلك من شيمهم، وذلك على الرغم من أنهن كن يتدخلن بشكل سافر ويشجعن رجالهن على المقاومة، وكن في بعض الأحيان يلقين الحجارة، ولا عجب في ذلك فقد كن يدافعن عن أكواخ العائلة ومصادر رزقها. في نهاية المطاف أحرق الخيالة العطوانيون ثلاثة أكواخ؛ والأسوأ من ذلك أنهم قاموا بقطع أشجار الزيتون الرومي وكانت شجرته المعطاءة والجميلة تسمى "العروس". تركوا زيتونة رومية واحدة في منتصف الحرش لتوصيل رسالة متعارف عليها لفوزي: "حُطّها في قفاك!"
لم يكتف الخيالة بهذه الأعمال التخريبية بل قاموا بنهب بعض الأشياء من صانور، وفي هذا السياق يروى أن أحدهم نتع خزانة ثقيلة وكان يعتقد أن ثروة مهمة تكمن فيها، وبعد أن سار بها أكثر من كيلومتر فتحها ليدقق في محتواها، وإذا عجوز اقتربت من الثمانين تختبيء فيها وتتوسل اليه قائلة: "يا خوية من شان الله متقتلنيش!" فصاح بها: "الله أكبر، قطعتِ ظهري. كان إحكي، الله يستر عليك."
لم ينتظر فوزي طويلا فقد شن حملة على قرية موالية للعطوانيين حيث ترك بدوره "رومية" واحدة غير مقطوعة وأربعة جرحى بالإضافة إلى بقايا خمسة أكواخ محترقة. لحسن الحظ لم تصب أملاك عطا بأي سوء، بيد أنه كان يخشى أن يتوسع نطاق "المعارك"، فربما تشمل في القريب عرابة وعائلته هناك.
أخيرا وصلت عائلته عكا. قبّل عطا أولاده وبدأ بسليمان، قائدهم الصغير الذي بلغ وزنه 35 كيلوغراماً. وفي هذه المرّة لم يحاول والده أن يحمله. لم يقبل سامية أمام الأطفال – مع أنه كان يتمنى ذلك– ولكنه وضع يده برقة على كتفها، ووجه كلامه لها: "الحمد لله على سلامتكم، وإن شاء الله يعجبك البيت." فتح عطا أبواب بيته المكون من طابقين والذي يبعد حوالي المئة متر عن البحر. حديقته كانت كالغابة فهي تعج بأشجار البرتقال والليمون والمندالينا والزهور. سامية فتحت أبواب الغرف وقالت: "كم أنا سعيده أن أكون هنا." أول شيء خطر ببالها أن الغرف لم تكن نظيفة ومرتبة كما يجب.

في اليوم التالي استعانت بثلاث نساء، وفتحت ورشة تنظيف استغرقت ثلاثة أيام.
عطا لاحظ فيما بعد أن الحياة في عرابة صنعت منها خلال السنوات الخمس الأخيرة إنساناً آخر. لم يلاحظ سابقاً أنها تفقد أعصابها بسرعة وتصاب بنوبات حمق أو لنقل غضب سريع، بيد أن هذا النوع من الغضب الذي ورّثته للأسف لسليمان يستحق أن يقف المرء عنده قليلا. من الصعب وصف هذه الحالة، ففيها يفقد المصاب سيطرته تماما على تصرفاته. ولعلنا نستطيع أن نقول إنه يفقد عقله ربما لثوان قليلة. ولتوضيح ذلك يمكن الإشارة إلى لاعب شطرنج طموح لم يخسر أي لعبة في العشر سنوات الأخيرة، وفي إحدى المباريات التي حضرها جمهور غفير فاجأه خصمه بموت ملكه فقام وعضه حتى أدماه. أصبحت سامية سريعة الغضب جداً وأحياناً لأسباب لا تستحق ذلك أبداً، وكان ينجم عن نوباتها هذه صحون مكسرة وطناجر مرمية على الأرض الخ. كانت تعود بعد ذلك إلى عقلها، على قلة الموجود منه، وكانت وقتئذ تصاب بموجة من البكاء والاعتذار للمتضررين أو المشاهدين مما كان يزيد الطين بلة. في البداية كان عطا يتوقع أن هذه الظاهرة ستزول لزوال أسبابها التي كان يعزوها لإقامتها غير الطوعية في عرابة. ولكنه، وبعد مرور أكثر من سنة على عودتها لمسقط رأسها عكا التي تهواها، لاحظ أنه سيعيش ما تبقى من حياته مع نوباتها الدرامية.
في عكا قام سليمان باكتشافات جديدة. هنا تعرف على مشهيات ومغريات للعين والحلق واللسان والمعدة لم تكن متوفرة في عرابة: على رأسها أنواع رائعة لأسماك البحر الأبيض المتوسط، وخاصة "السلطان إبراهيم". شهية سليمان كادت تتحول بسبب هواء البحر المنعش إلى عمليات انقضاضية، وكانت سامية في حالة استنفار دائم لأنها كانت تخشى أن يلتهم الأسماك بأشواكها، فقد كان يأكلها بتلهف غريب وكأنها ستنقطع بعد ذلك من السوق نهائيا. وبالإضافة إلى ذلك كان يشرب يوميا ثلاثة ليترات من عصير البرتقال الطازج، فقد كانت منطقة عكا مشهورة ببيارات الحمضيات، بعد سنوات تعرف سليمان الذي سنرى أنه سيصبح شاعراً وعاشقا للأدب- تعرف على أعمال الأديبة الفلسطينية-اللبنانية "مي زيادة" (1886- 1941) وتأثر كثيرا عندما كان شاباً يافعاً بمقال كتبته وهي تعبُر يافا بالسفينة التي انطلقت من بيروت قاصدة بورسعيد، وفي هذا المقال وصفت بكلمات قليلة كيف تختلط مرارة رائحة البحر برائحة أزهار البرتقال التي تعبر كيلومترات إلى البحر وتنقل إليها هذه الرائحة الزكية التي تنافس رائحة الياسمين بجمالها وسحرها. كتبت مي زيادة: "كالملكة على عرشها تستوي يافا على شطها. وفي البعيد تدور حولها الحدائق والأشجار كهالة سندسية. وتنطلق منها أرواح البرتقال والليمون مختلطة برائحة المرارة البحرية القوية."

في طفولته لم يكن سليمان يهتم بأدب البرتقال وأزهاره بل فقط بهذا الطعم النادر لعصيره الذي تتخلله الحلاوة المخلوطة قليلا بالحموضة، فلم يكن بالإمكان مقارنته مع أي من المشروبات التي تعود عليها قبل قدومه إلى هذا الساحل المعطاء.

للأسف لم يستلطف هذا الصبي المدلل الحمام التركي لسوء حظ أمه التي كانت تتمتع بقضاء ساعات في هذا الدفء والجو الأليف وحكايا النساء. كانت تتمنى من كل قلبها أن تتردد أسبوعياً على هذا المكان، ولكن رفض سليمان القاطع له جعلها تشطبه نهائيا من برنامجها الأسبوعي، لأنها من ناحية أخرى كانت بطبيعتها شكّاكة ولا تثق مطلقا بالخدم، فلم تكن تود أن تترك الغالي ساعة واحدة بين أيديهم. لم تكن أيضاً قادرة على مفارقته على الرغم من معرفتها أن الطريق إلى قلبه لا بد أن يمر عبر معدته؛ وكم كانت فخورة لأنه كان يرفض أن يأكل ما تطبخه النساء الأخريات.

كان في السنوات الأولى من عمره يرفض أي مساومة في هذا الشأن. ولكن بعد أن تعرف على عكا وأسواقها ومطاعمها ومحلاتها حدث تطور في نظرة سليمان إلى قدرات الآخرين الطبائخية. كان في البداية بحاجة الى مساعدة الخدم بالإضافة إلى أمه وأبيه وأختيه لأنه لم يكن يحسن في السنة الثالثة من عمره المشي على الأقدام، ولكن الروائح الزكية لبعض الأكلات والحلويات خارج البيت عجلت كثيراً من قدرته على الحركة. وهنا أخذ سليمان يجرب بعض الأطعمة العكّاوية. وقد تعلمت عائلته بسرعة طريقة تقييمه لها، فقد كان يعطي علامة لكل نوع: "آه، آه، آه" تعني جيد جداً، و "آه، آه" متوسط، و"آه" واحدة لا بأس، و"إيي" أبعدوه حالا.

في نهاية السنة الثالثة سجل أهله إعجابه الشديد ببعض الحلويات، نذكر منها حلاوة القرع المقمر باللوز إذ كانت عكا ومحلات أبو زيد بالذات تنافس حلاوة قرع ابن عمه في مدينة صيدا القريبة. كان سليمان يأبى أن يأكل حلاوة القرع عند غير أبي زيد، كما كان لا يوافق على التلذذ بالكنافة سوى عند النابلسي أبي عصام في الحارة الغربية. سبحان الله – منذ نعومة أظفاره أدرك هذا الطفل انه يجب ترك الكنافة لأهل نابلس فقط، وفي وقت لاحق سنستمع إلى قصة جميلة عاشها سليمان بعد أن بلغ الأربعين في أحد محلات الكنافة في نابلس.

وهكذا أصبحت عكا من وجهة نظر سليمان مطبخاً كبيراً ومهرجاناً مبهجاً للمعدة والقلب. عرابة لا تُذكر إذا ما قارنّاها مع عكا، ولذا فقد نفى قريته ومسقط رأسه تماماً من ذاكرته. وكما اتخذ بعد أسبوع من ولادته قراراً هاماً وهو ألاّ يشرب الحليب مرة ثانية قرر الآن أنه لن يعود ثانية إلى عرابة، ولكننا سنرى أنه سيرغم على العودة اليها أكثر من مرة ولو لفترات متقطعة فقط.

الوقت يمر بسرعة، ولكننا ما زلنا في عام 1914 الذي كان عاماً تاريخياً حاسماً، ففي صيفه اندلعت الحرب العالمية الأولى، وفي نهاية المطاف شملت هذه الحرب ثلاثة أرباع سكان العالم وأودت بحياة 17 مليون إنسان. في صيف هذا العام بدأ سليمان يتحرك على قدميه دون أي مساعدة، كما بدأ يتكلم دفعة واحدة بطلاقة غريبة، وكأنه كان يحتفظ بكل هذه المفردات للوقت المناسب. الآن ستبدأ صولاته الجريئة في المطاعم والمحلات. كان هناك في أسواق عكا وأحيائها ما يستحق المشي والكلام، ففي البيت كانت تأتي الأشياء إليه ولا يذهب هو إليها.

وهكذا تعود أهل عكا على مشاهدة صبي سمين يندفع ببطء وثبات من مطعم إلى آخر بوزنه الذي بلغ آنذاك ما يزيد على الأربعين كيلوغراماً. وعلى الرغم من أن هذا الوزن كان لا يعجل من حركته إلا أنه استطاع في وقت مبكر الحصول على احترام أولاد جيله ومحبتهم، احترامهم لقوته البدنية التي لا يستهان بها، فقد كان يلقي دون تردد وزنه على خصمه وينهكه إذا اقتضى الأمر، ومحبتهم لأنه كان لا يبخل عليهم بما يتوفر لديه من حلويات ومغريات أخرى كانت دائماً تملأ جيوبه.

لم يكن سليمان يجد صعوبة في حبك صداقات مع أطفال الحي، وظل يحتفظ بهذه الخصلة مدى حياته وإن اختلفت الأسباب، ولكن القاعدة العامة لا تتبدل – وإن تكن وحدها غير كافية– وهي أن الكرم والصداقة فضيلتان تجتمعان عادة بغض النظر عن المكان والزمان.

في بداية الحرب العالمية الأولى لم تتورط استانبول بالمشاركة فيها، ولكن السلطان محمد الخامس الذي تسلم السلطة من أخيه المخلوع عبد الحميد وهو على أبواب السبعين كان يتوقع أن بلاده لا تستطيع على المدى القريب تجنبها، وهذا ما حدث بالفعل، وما أدى في نهاية الأمر إلى تفكيك الدولة العثمانية وإلى انحسارها في تركيا المعروفة اليوم. وكان أن أعطى محمد الخامس أوامره في عام 1913 تحسباً للحرب بتجنيد رجال جميع المحافظات وطاقاتها بما في ذلك سوريا الكبرى. إزاء هذا التطور زاد الطلب على الحبوب وكانت مصالح عطا تقتضي الانتقال من عكا إلى حيفا ميناء فلسطين الرئيسي.

استقبل سليمان خبر انتقال العائلة من عكا إلى حيفا في بداية الأمر بحزن شديد, فقد كان لا يكاد يتوقف عن البكاء لأنه ظن أنه سيخسر كل المشهيات التي تعود عليها في عكا، وكان يتخيل أن الحال في حيفا لا يختلف عنه في عرابة، ولكننا سنرى أنه سيغير رأيه بسرعة، فقد كانت حيفا آنذاك تعتبر العاصمة السرية لفلسطين، فهناك كانت "تُعزف الموسيقى" — كما يقول الناس في ألمانيا.

في حيفا زاد خير الله.. من الشيكولاته إلى أنواع الجبن التي لا تعد ولا تحصى إلى الفواكه.. وكانت كلها تأتي عبر الميناء في السفن البخارية من جميع أنحاء العالم.

لم تكن حيفا بالنسبة لعطا غريبة، فقد كانت لديه مجموعة من الاتصالات والمعارف والتجار سواء من المسلمين أو المسيحيين أو اليهود.

سليمان استلطف بيت العائلة الجديد في حيفا لأنه يتكون من طابق واحد، وكان يخلو تماماً من أي درج، فقد كان يكره الدرج في بيت عكا إذ كان يعتبره حاجزاً كريهاً يفصل الطابق الأرضي عن الطابق العلوي.

لفت نظر سليمان وقد أصبح عمره الآن يقترب من السابعة أن هناك زواراً يترددون على البيت لم يألفهم من قبل، ففي الأمس قضى والده أكثر من ساعة في غرفة الضيوف برفقة شخص يميل إلى البياض والشقرة وظلا يقلبان الأوراق والملفات ساعات كثيرة. وبعد أن أنجزا أعمالهما لعبا طاولة الزهر.

وبعد أن غادر الضيف الذي كان يضع قبعة قش كبيرة على رأسه سأل سليمان والده:

- "هل يعاني الضيف من صعوبة في النطق؟"
- "لا، لماذا خطر ببالك هذا السؤال؟"
- "إنه لا يستطيع لفظ حرف العين مثلنا!"
- "دافيد ليس عربيا، فهو يهودي أوروبي ويعيش في بلادنا منذ عشرين عاماً."
- "منذ عشرين عاماً ولا يستطيع أن يلفظ حرف العين؟"
- "لقد تعود منذ طفولته أن يتكلم لغة أخرى، والأوروبيون يواجهون صعوبة في لفظ بعض أحرف لغتنا، كما أننا نواجه نفس الصعوبة في لفظ أحرف معينه في لغاتهم. لكن اليهود ليسوا كغيرهم من الأوروبيين فهم ساميون مثلنا."
- "ساميون؟ لم أكن أعرف أننا ساميون؟ ماذا تعني هذه الكلمة؟".
- "لنقل إنها قبيلة من منطقتنا. القبيلة تشبه آل عطوان، ولكنها أكبر بكثير. ومن هذه القبيلة السامية الضخمة تنحدر عشيرتان وهما العرب واليهود. جدنا الأول المشترك، سيدنا إبراهيم، الذي عاش قبل أكثر من ألفي عام مدفون في الحرم الأبراهيمي في الخليل التي تبعد أكثر من مئة وخمسين كيلومتراً عن عكا أي ضعف المسافة تقريباً من هنا لعرابة. اليهود مثلك ومثلي مطهرون ولا يأكلون لحم الخنزير. بالأصل كانوا يتكلمون اللغة العبرية وهي لغة سامية كلغتنا

وتشبهها إلى حد كبير، فهي تكتب أيضاً من اليمين إلى اليسار ويقال إن ثلث مفرداتها من نفس الجذور العربية كاليد والعين والشعر."

- "وهل صحيح ما سمعته في المدرسة وهو أن اليهود يريدون أن يسرقوا بلادنا؟"
- "كلام فارغ، فهم أقلية تعيش منذ مئات السنين بيننا، والبعض منهم هاجر مؤخراً من أوروبا لفلسطين، ومعظمهم من جذور سامية، باستثناء بعض الأوروبيين الذين دخلوا الدين اليهودي. ولكن أغلبيتهم عندما كان معظمهم يعيش هنا شُرِّدوا من فلسطين قبل أكثر من ألفي سنة، ولكننا لم نشردهم نحن وإنما الرومان. ومنذ ذلك الحين تبعثروا في معظم بلدان العالم، وللأسف لا يحبهم السكان الأصليون."

سليمان لم يستطع تخيل هذا المصير المحزن ولذا طرح أسئلة كثيرة في نفس الوقت مما نرفز عطا قليلا:

- "هل اليهود بدو رحل؟ من هم هؤلاء الرومان؟ ولماذا شردوا اليهود رغم أن فلسطين كانت بلادهم أيضاً؟ ولماذا لا يحب سكان البلاد الأخرى اليهود رغم أنهم لاجئون تعساء؟"
- "الرومان حكموا فلسطين كالأتراك الآن، ولكنهم لم يكونوا مسلمين. الرومان والأوروبيون يمقتون اليهود لأنهم ينتمون إلى ديانة أخرى. اليهود ليسوا بدواً، بل على العكس فمعظمهم سكان مدن، وخلافا لما هو الحال في بلادنا كان لا يسمح لهم في معظم بلاد العالم بمزاولة المهن الحرفية والفلاحة."
- "أنا أرى أن ذلك ظلم ولؤم، ولكنني أرى أن محاولتهم سرقة بلادنا أيضاً لئيمة للغاية، هذا ما علمنا إياه الأستاذ أنيس."
- "اليهود أذكياء كالعرب فقد عملوا من وضعهم الصعب أفضل الممكن، وبحكم تبعثرهم في عدة بلدان شكلوا مع الزمن شبكة اتصالات بين بعضهم البعض، وأصبحوا رجال أعمال من الدرجة الأولى. كانوا يعرفون تقلب الأسعار من بلد إلى آخر قبل غيرهم، وكانت لديهم قدرة عالية على الحركة وكانوا يتمتعون بمرونة عالية، بالإضافة إلى أنهم علّموا أولادهم في أرقى المدارس والجامعات، خاصة وأن أبواب الحرف كانت مغلقة في وجوههم. وهكذا كان لهم دور قيادي في العلم والأدب والفن والموسيقى. وكما ذكرت لك: اليهود لا يريدون أن يسرقوا بلادنا منا، ولكني أود أن أشير إلى أن هناك أقلية متطرفة في صفوفهم تسعى إلى انتزاع فلسطين منا. نحن أيضاً لدينا ناس سيئون ويحاولون تأجيج الكراهية بيننا وبين اليهود من خلال قيامهم بأعمال إرهابية

وإجرامية لا تختلف عن جرائم الأقلية اليهودية المتطرفة. ولكن جاري وصديقي أوري لا ينتمي إلى هؤلاء. والآن أذهب إلى أمك في المطبخ فهي بانتظارك لتعد لك أكلاً طيباً."

سليمان لم يترك والده يكرر الجملة الأخيرة ثانية فقد ذهب مسرعاً إلى المطبخ.

سيتذكر في السنوات القادمة هذا الحديث الذي دار بينه وبين والده. ومع مرور الزمن تطورت علاقته مع أولاد الجيران العرب واليهود، وتوطدت العلاقات بين عائلتي أوري وعطا. كما تصادق سليمان مع موشي الذي كان سليمان يحترمه لأنه أحسن لاعب كرة قدم في الحي، ولكنه كان يحب اللعب مع داني، لأن موشي كان أكبر من سليمان بثلاثة أعوام بالإضافة إلى إنه كان نحيفاً ورشيقاً، وكان عدّاءً مميزاً مما جعل سليمان يتجنب اللعب معه. سليمان كان يفضل ألعاب الورق التي لم تكن بحاجة إلى حركة بدنية، وقد ظل طيلة حياته يهوى هذه الألعاب، وكما سنلاحظ فيما بعد سيكون لهذه الهواية تأثير سلبي على حياته وحياة أولاده. بيد أن عائلته الحالية في حيفا تواجه في هذه الأيام مشكلة صعبة، وهذا ما لمسه سليمان عندما عاد ذات يوم إلى البيت من السوق وهو يشعر بكثير من الإرهاق. وبعيد وصوله لفت نظره أن هدوء القبور كان يخيم على البيت على الرغم من الحركة في المطبخ. دخل إلى الديوان ووجد هناك رجلا فارع الطول ونحيفاً للغاية، ومنذ رآه شعر بانقباض في

أمعائه ونفور شديد إزاءه. بدأ هذا الرجل، الذي كان يتحرك في البيت كأنه من أهله، الحديث معه:

" سليمان، ألم تعرفني. أنا عمك فهمي. الله أكبر. الوقت يمر بسرعة. كبرت وأصبحت قوياً ـ وطويل القامة. رأيتك للمرة الأخيرة في حفل طهورك. يا إلهي، كيف الوقت يمر!"

لم يشاركه سليمان أبداً الفرح بهذا اللقاء، فقد كان يتمنى لو أن هذا البغيض ظل في عرابة، خاصة عندما علم أن هذا الرجل المخيف، والذي كان يبدو وكأنه يعيش دون أي طعام أو شراب، يريد أن يتزوج أخته سميرة. لم يتردد طويلاً فقد أخبر أمه بما يختلج بصدره: "ديري بالك، يا أمي، سيأسرها ويحبسها في عرابة ولن نراها مرة ثانية إذا خرجت من بيتنا." لم تجبه والدته ولكنها نظرت اليه بوجه مفعم بالحزن والمرارة. الحماس لم يظهر أيضاً على وجه عطا الذي سرح بأفكاره، فهو يعلم أن حياة فهمي لا تخلو من المخاطر والقسوة والعناد والبطش، فهل ستجد ابنته السعادة في بيته؟ من ناحية أخرى كان عطا يعلم أنه لا يستطيع أن يرفض طلباً من هذا

النوع لفهمي قائد آل عطوان. كما أنه كان يشعر بالفخر والاعتزاز لأن مثل هذا الشاب القوي والمرهوب الجانب سيدعمه ويدافع عنه إذا اقتضى الأمر.

وخلافا لعطا لم تجد سامية شيئاً مليحاً في فهمي. مشاعرها تجاهه خليط من الرفض والاحتقار، فهو في نظرها فلاح غليظ لا يجيد سوى إطلاق النار ولن يتورع عن ضرب ابنتها لأتفه الأسباب.

هذا ما كانت تراه سامية، ولكن رأيها في هذه الحالة غير مسموع وغير مطلوب، ودون الرجوع اليها رد عطا على فهمي:

"حسب سنة الله ورسوله ستصبح سميرة زوجتك إذا وافقت."

فهمي أحنى رأسه موافقاً على كلام عمه. في الأحوال العادية كان من المفروض أن يرسل وفداً مشكلاً من عدد من وجهاء آل عطوان لعطا ليطلبوا يد ابنته منه، ولكن فهمي لم يجد ما يبرر ذلك فقد كانت ثقته بنفسه عالية إلى درجة وجد فيها أن شخصيته تكفي، لأن مثله ليس بحاجة للتقيد بهذه الشكليات. عطا غض الطرف عن هذا التصرف، واعتبر أن فهمي ليس غريباً، فهو يعرفه منذ أن كان طفلاً ولا يحتاج إلى وساطة أحد.

ثم دخلت سميرة إلى الديوان لتقدم القهوة – كما هي العادة. كانت وجنتاها كالنار، وعلى الرغم من أن أحداً حتى اللحظة لم يتكلم معها عن غرض هذه الزيارة، إلا أنها كانت تتوقع ما يصبو اليه فهمي، الذي وجه سهام نظراته إلى عينيها مما جعلها تكاد تتمايل وتسقط على الأرض، وكان كل همها أن تحتفظ بتوازنها. عطا التفت اليها برقة وقال: "بعد القهوة أود أن أتكلم معك، يا بنيتي." "بأمرك، يا والدي"، قالت ذلك بصوت خافت متقطع وانصرفت بسرعة إلى غرفتها وهي تتنفس بصعوبة.

في غرفتها حاولت أن تلتقط أنفاسها وأن تعود لهدوئها لتنظم أفكارها التي تلاطمت في رأسها الذي كاد ينفجر. كانت كمعظم بنات عرابة معجبة بهذا الشاب العملاق الذي يقترب طوله من المترين والذي يتصف بالفروسية والشجاعة.. وربما كانت تهواه في فترة ما، ولكنها كانت في نفس الوقت تخاف منه وتهابه وهو المعروف بقسوته وشراسته.. وها هو الآن يجلس في الديوان ويريد أن يصبح زوجها. يا الله! ماذا أعمل؟ صحيح أنه ابن عمها ولكنه عاطفياً رجل غريب، فهي لم تتكلم معه بشكل مباشر أبداً. فهمي أكبر منها باثني عشر عاماً ولم يكن من أبناء جيلها الذين كانت تلعب معهم في باحة ديوان آل عطوان. هل يستطيع أن يكون رقيقاً معها وحنوناً عليها؟

لم يكن لديها متسع من الوقت لأن والدها سيدق على بابها ربما لأول مرة، فهو لم يدخل غرفتها قط. ولأول مرة شعرت أنها شخص مهم، وأنها تحظى باهتمام أبيها وحتى باهتمام فهمي.
عطا كان يعتبر ابنته حتى صباح اليوم تحصيل حاصل، فلم تحتل في حاضره اليومي مكاناً يستحق أن يقف المرء عنده، كانت موجودة في البيت مع أمها وليس أكثر من ذلك. اليوم شعر لأول مرة أنه لا يعرفها؛ لم يكن يعرف من أين يبدأ.
"الله يكرمك، يا سميرة، فأنت لم تجلبي لي ولبيتي العار، والحمد لله. قمت بواجباتك في البيت والمدرسة على خير وجه.. والآن.. ماذا أقول.. إيه.. يا.. آه، ابن عمك فهمي طلب يدك. لست بحاجة إلى أن أقدمه لك، فهو قائد آل عطوان في عرابة. هل تريدينه كزوج؟"
السكوت في مثل هذه الحالات علامة الرضا. سميرة سكتت وكان صمتها حقيقياً. لم تستطع أن تقول نعم أو لا، فقد كان الوقت ما زال مبكراً. كانت بحاجة للتفكير حقاً، ولكنها كانت تعلم أن جوابها سيكون "نعم" سواء فكرت أم لا. الضغط العائلي والضغط الاجتماعي الخفيان كانا أقوى من إرادتها.
قبّل عطا ابنته على جبينها، وحاول تهدئتها: "سيسير كل شئ على ما يرام، فهو رجل بكل ما في الكلمة من معنى. سيكون سنداً لك، وستشعرين بالراحة والاطمئنان في كنفه."
بعد مرور أسابيع قليلة أقيم في عرابة احتفال يشبه الاحتفال بطهور سليمان، ولكن الدم لم يسل هذه المرة من سليمان وإنما من شقيقته.
سميرة ليست في جمال أمها، فقد أخذت أيضاً بعض ملامح أبيها ولكنها لا تخلو من الجاذبية، طويلة القامة وشعرها الأسود يصل إلى خصرها. لم تلمسها يد رجل وكانت تشعر بخجل شديد من نفسها عندما كانت تنظر بطرف عينها إلى هذا الشاب أو ذاك في شوارع عكا وحيفا، وعندها كانت تشعر بالنشوة وتسمع دقات قلبها السريعة.
قبل العرس بيومين حاولت أمها جاهدة أن تكشف لها بعض أسرار العلاقة الجنسية بين المرأة والرجل، ولكن الأم كانت في موقف حرج للغاية فأخذت تتلعثم لدرجة جعلت سميرة التي لم تكن صافية الذهن لا تفهم شيئاً.
وخلافا لسميرة كان فهمي ذا تجارب كثيرة مع بنات الفلاحين والحراثين الذين يعملون في أراضي آل عطوان الشاسعة. كان إذا رأى إحداهن وحدها تقطف الزيتون أو تقوم ببعض الأعمال الأخرى يتحرش بها، ودون أن يسألها كان يأخذها شاءت أم أبت. كان يقضي حاجته منها

ويغتصبها في معظم الأحيان تحت شجرة زيتون أو في إحدى المغُر. الآباء كانوا يحذرون بناتهم من هذا الذئب. يروى – وربما يكون في ذلك بعض المبالغة – أن هذا الخيّال كان يرفع أحيانا الصبية إلى فرسه ويغتصبها فوقه. الحب كان بالنسبة له ضرباً من ضروب العنف والسيطرة.

كانت سميرة تخشى ليلة زفافها أن يشطرها إلى قسمين. وكانت تهديء من روع نفسها: "عليك أن تكوني قوية وصبورة، فأمام مثل هذا الرجل ينبغي أن تكوني شجاعة ومتماسكة."

كان في العام الأول من زواجهما ينتزعها من المطبخ أو الحمام أو من أي عمل تقوم به ويلقي بها دون أي مقدمات إلى الفراش، أو في أي زاوية من البيت ويقضي حاجته منها، ثم يواصل اتصالاته ونشاطاته الأخرى كأنَّ شيئاً لم يكن. وفي العام الثاني خفت صولاته وهجماته على سميرة التي لم تأسف أبداً لذلك، فهي لم تكن تشعر بالاشتياق لمعاشرته التي كانت غليظة وأقرب إلى السادية منها إلى أي شيء آخر. اعترفت فيما بعد لابنتها أنها لم تحبه في يوم من الأيام.

سميرة كانت امرأة في غاية الذكاء، ولو أنها ترعرعت تحت ظروف أخرى في نهاية القرن العشرين لربما أصبحت من الشخصيات القيادية السياسية أو العلمية أو الاقتصادية. كانت مصنوعة من معدن معدٍّ لمثل هذه المهام.

لم يكن ذاك الزمن زمن سميرة وبنات جيلها، ولكنها كانت تعي تماما موازين القوى، ولذا كانت تتجنب الصراع وحتى مجرد الاختلاف في وجهات النظر مع فهمي لأنها كانت تعلم تماما أنها سيسحقها.

ولكن، للأسف، حياتها المشتركة مع هذا الرجل الشرس جعلتها امرأة قاسية وقادرة على التخطيط البارد والدقيق بهدف السيطرة الكاملة على عائلتها. وسنرى أن انعكاسات سلبية للغاية ستنجم عن ذلك.

بعد عامين من زواجه عاد فهمي إلى عادته القديمة فقد أخذ يتجول مجدداً وحده ممتطياً حصانه في "الوعر" وبين أشجار الزيتون. وفي ذات يوم هاجمه سبعة آباء ملثمين وانهالوا عليه ضرباً بهراواتهم المقصوصة من أشجار الزيتون. كانوا يصيحون وهم يضربونه بكل ما أوتوا من قوة: "يا خنزير، نحن الفلاحين لنا شرفنا أيضاً!" كان أحدهم يريد أن يقص له عضوه، ولكن الآخرين قالوا له: "كفى لقد لقناه درساً لن ينساه." سميرة ضمدت جروح زوجها الذي لم يخسر لسوء حظها ذكورته. لم تفارق سريره أسبوعاً كاملاً وهي تتمنى له الشفاء العاجل وبينها وبين نفسها كانت تقول: " لكل ظالم نهاية. سلمت أيدي الرجال."

بعد هذا الحادث بمدة قصيرة رزقت سميرة بغلام سموه شوقي على اسم جده. وبعد سنوات قليلة وُلدت بنتاها إلهام وسارة. بعد ولادة شوقي بثلاثة أيام زارت سامية ابنتها في عرابة. سامية لم تحتج أكثر من ساعة لتكتشف أن بنتها لم تعش يوماً سعيداً مع فهمي. سليمان الذي رافق أمه قال لأخته: "تعالي معنا إلى حيفا، عرابة لا تصلح إلا لتربية الدجاج." سميرة وضعت يدها فوق بطنه الكبير وقالت: "سأزوركم في حيفا في الصيف القادم برفقة شوقي، كيف حال الوالد ولمياء؟" سامية: "أحوالنا جيدة، ولكن الأوضاع في حيفا تزداد سوءاً يوما بعد يوم بعد انتصار الإنجليز، الله يلعنهم، على الأتراك في الحرب وانتقال السلطة في فلسطين إليهم. الآن أصبح كل طرف يحارب الآخر: نحن نقاتل ضد الإنجليز واليهود. واليهود يقاتلوننا وأحيانا يتحرشون بالإنجليز. إنها جهنم، يا بنتي. وفي الليل نحصن البيت قدر المستطاع خوفاً من اللصوص الذين يسطون على بيوت الأغنياء، فهم يستغلون الفوضى التي حلّت في البلاد. لا تتركي عرابة في مثل هذه الأيام حفاظاً على سلامتك وسلامة ابنك. أبوك يفكر بشكل جدي أن ننتقل, أنا وسليمان ولمياء إلى عرابة حتى يستقر الوضع في حيفا." سليمان صاح بصوت عال: "لا أريد أن أسكن في عرابة خُمِّ الدجاج."

الجريمة الغامضة وأبعادها الفظيعة

لم يُغنِّ سليمان عندما كان في طريقه، في ربيع 1922 عام مع أمه وأختيه، من حيفا إلى مسقط رأسه، قرية عرّابة، خلافاً لأبيه الذي كان يردد بصوت عال أبيات العتابا في عام 1910 بُعيد ولادة بكره. كاد أبو سليمان آنذاك يطير من الفرح وهو يمتطي حصانه على الدرب الطويل من عكا إلى عرّابة آنذاك: كان يتمنى أن تكون للحصان أجنحة فكم كان توّاقا لمعانقة رضيعه. ابنه سليمان (12 عاما) وصل الآن عرابة.. باكيا: "لا أستطيع أن أعيش مع هؤلاء الفلاحين. لن أبقى هنا." وأضاف بعناد: "أقسم بالله, أقسم بالله... أنني سأُضرب عن الطعام ولن آكل أبدا."

التزم بهذا التهديد ساعتين، وعندما أحضرت له سامية طبق "المسخّن" بزيت زيتون وصل لتوه من العصّارة استسلم بسرعة أمام هذه الرائحة التي تفتح المعدة والشرايين وتشرح الصدر وتبسط تقاطيع الوجه، لم يعد يتذكر أبداً اليمين الذي قطعه على نفسه. كانت هذه الأكلة قد غابت عن باله أثناء السنوات التي قضاها في عكا وحيفا. لم يتوقف عن هز رأسه أثناء تناوله هذه الوجبة الشهية بما فيها من زغاليل وبصل محمر وخبز بلدي أُعد في الطابون. كان يمضغ دون توقف ويردد بين الفترة والأخرى: "فِتِش حدا قليل، لم أكن أتخيل أن هؤلاء الفلاحين البدائيين يتقنون مثل هذه الطبخات الرائعة!"

لن يكون لدية الوقت الكافي – كما سنرى – ليكتشف مجدداً خصوصيات مطبخ الريف. ما من شك أن الطعام في عكا وحيفا لا يُقارن مع وجبات بلد المسخّن ففي المدينتين تتوفر باستمرار أنواع اللحم الطازج، البهارات المختلفة والزيادات المثيرة والغريبة، ولكن لا يمكن الاستهانة بمطبخ عرابة. هنا بدأ سليمان يتمتع بالمأكولات البسيطة والطيبة في الوقت نفسه: أصبح فطوره المفضل خبزاً طازجاً، كان يغرّقه لحظة مغادرته للطابون في جرة زيت الزيتون، ويضيف عليه لبن النعاج.. كم كان سعيدا عندما كان يعد فطوره بيديه. كان يقول وهو يقبل رغيف الخبز الساخن: "شكراً يا الله... الله أكبر... أين الملح والبصل الأخضر؟"

في تلك الفترة في عرابة تبلورت نظريته التي اشتهرت في بعض الأوساط: لا توجد مادة غذائية في البر أو البحر تخلو من الطعم الجيد على شرط ألا تخرّب يد طبّاخ فاشل هدايا الطبيعة هذه.

علاقة سليمان بالخضار والمأكولات الأخرى تستحق التوقف قليلاً، فهو يتغزل بالباذنجان والكوسا والخيار تماما كما يفعل العاشق مع حبيبته، فإذا طلب من جليس على المائدة نوعاً منها, فإنه لا يستطيع إلاّ أن يقول: أعطني, إذا سمحت, هذه الباذنجانة الرشيقة، خفيفة الدم، ذات البشرة القريبة من السواد التي تميل قليلا للاحمرار، وبعد الوجبة الرئيسية يقول لجاره على الطاولة: وهذه التفاحة ذات الخدين الحمراوين. سليمان يود أن يفهّم الناس أن الأمر لا يتعلق بشئ جامد وبمجرد أشياء لا تستحق الاحترام، وإنما بمخلوقات لها روح بشكل أو بآخر.

في سن المراهقة بدأت بعض مزايا شخصيته تبرز للعيان وتسبب له وللوسط الاجتماعي الذي يعيش فيه الكثير من الإحراج، فمثلا كان لا يبخل بالإدلاء برأيه دون مواربة عندما كان يذوق وجبات أعدها غيره. كان يعلّق بقوله: "دِلْعَة (ملحها قليل), اللحم يخلو تماما من الشحم وهذا خطأ إن لم نقل جريمة بحق الأكلة هذه بالتحديد، ثم ما هذه المرقة؟ لا حول ولا قوة إلاّ بالله."

كان في تلك الأيام يتعلم من تجاربه. في بعض البيوت التي تورط فيها أثناء الزيارة الأولى بأكلة بائسة كان يتخذ قراراً تاريخياً بأنه لن يكرر هذه التجربة ولو مات من الجوع. بسرعة كان يلاحظ فيما إذا كان الأكل بالنسبة لأهل الدار أمراً روتينياً، أي لمجرد الحفاظ على استمرارية الحياة وإشباع الحاجة إلى سعرات حرارية فقط، أم من أجل اللذة والمتعة. كان يعتبر الصنف الأول من البشر من فصيلة التعساء الذين لا يرغب في تقاسم الكآبة معهم. ولكنه إذا صادف وأكل عندهم فقد كان صادقاً إلى أبعد الحدود: "إمّ حمادة، أنت سيدة فاضلة، ولكن أرجوك أترككِ من الطبيخ. الطبخ يا سيدتي موهبة إلهية, فهي إما تكون متوفرة لديك، أو لا."

ومن أجل الحق والحقيقة ينبغي أن يُقال هنا إنه كان لا يود أن يجرح مشاعر أحد, فهو يتكلم بكل موضوعية وروافة. وإذا استغرب الناس بعض أطروحاته كان يحاول أن يوضحها من خلال إعطاء أمثلة في غاية الدقة: "أنظر، يا عزيري أبو مهند، زوجتك رشّيت على اللحم نعناعاً مجففاً، هذا خطأ قاتل! كان عليها أن تكتفي بالبهار الأسود، وربما بقليل من الريْحان، أمّا النعناع؟ لا تأخذ الموضوع بشكل شخصي، فلن آكل في بيتك مرة ثانية."

كانت عائلته تشعر ببعض الإحراج بسبب مثل هذه التصرفات، ولكنها تعرف أنه على طبيعته ولا يستطيع أن يتصرف بطريقة أخرى، فلو لم يفعل لجن جنونه واحتد غضبة مما سيزيد الطين بلّة."لا"، كانت أمة وأختاه ترددان: "من الأفضل قبل أن ينفجر غاضبا أن يقول بهدوء وبكل احترام كل

الحقيقة للمعنيين." لا تنسى أمه عندما شتم ذات يوم أُمَّياً لأربعة أطفال ومن سيدات آل عطوان ووصفها بأنها "حمارة" لأنها لم تتقبل انتقاداتة المفحمة بشأن صحن شوربة غير موفقة- حسب رأيه.
على أي حال, في الأحوال العادية ما زال سليمان يفضل مأكولات والدته وأختية اللتين تعلمتا الطهي من أمهما ذات الأصول التركية. طبعا هناك قواعد صارمة وضعها لنفسه ويتقيد بها، فهو مثلاً لا يأكل لحم الضأن المشوي إلاّ في فصل الربيع. وعندما يُسأل لماذا في الربيع فقط، يعبر عن استغرابه من هذا السؤال ويوضح الأمر بسرعة: "الموضوع في غاية البساطة، لأنها تولد في فصل الربيع، وفقط في هذا الفصل يتصف لحمها بالطراوة."

ليس من الضروري أن يُذكر المزيد هنا عن قائمة وجبات سليمان المفضلة ومزاجه المحكم الذي سيلازمه مدى حياته، خاصة إذا علمنا أن زمن التشهْون والصبابة سينتهي قريباً، ليس لأن عقل سليمان تفتح على ميادين أخرى، أهم من الأكل بكثير، وإنما بسبب كارثة حلّت بالعائلة وكانت لها عواقب وخيمة ليس على حياة هذا الطفل المشرف على سن المراهقة فقط، بل وعلى المرأة التي سيتزوجها وأطفالهما أيضاً.
كان يبدو للوهلة الأولى كرجل وهو لم يتجاوز بعد الثانية عشرة. لم يكن عملاقاً ولكن وزنه في تلك الأيام كان يقارب التسعين كيلوغراماً. ومن قبيل الطرافة روى أهل عرابة أنه كان يرتدي ذات يوم – بهدف التغيير والتباهي – حطة وعقالاً مما جعل امرأة قادمة من قرية يعبد القريبة تتساءل: "شو، مين هو هالزلمة الصغير هذا؟" ولكن إذا دقق المرء تماما في تفاصيل وجهه فإنه سيرى طفلا مدللاً تعوّد أن يفرض إرادته على أمه وأخواته منذ ولادته.
ومن البداية كان يواجه أي رفض لمطالبه الكثيرة بغضب سريع لا حدود له يكسّر خلاله كل ما يعترض طريقه. وعندئذ كانت والدته مستعدة للتنازل له عن كل ما يشاء وأكثر – على شرط أن يخمد هذا الزلزال. بيد أن سليمان كان يختلف عن أمه التي ورث عنها- أغلب الظن — صفة الغضب المجنون, الذي يسمى أحيانا بالحمق أي حسب المعجم العربي الحديث "لاروس" قلة العقل. في حالة سليمان وأمه لم يكن العقل يقل إبّان الغضب بل كان ينعدم تماما، ولكن خلافاً لأمه سامية، التي كانت تبكي بعد كل نوبة وتعتذر من شهود العيان، كان سليمان يتصرف، بعد أن يحصل على كل ما يريد، كأن شيئاً لم يكن، بل على العكس كان يجلس مرتاحاً ومبتسماً، فهو في نهاية المطاف طفل سعيد لا ينقصه شيء.

جيوبة ملأى دائماً بالقروش، وملابسه أفضل مما يرتديه أولاد الجيران سواء في عكا, أو حيفا أو الآن في عرابة. بيد أن مستوى إنجازاته في المدرسة كان أقل بكثير من مستوى نوعية ملابسه. في مدرسته الابتدائية في حيفا كان معدل علاماته أقل قليلاً من المتوسط ولكنه كان يبتعد كثيراً عن المتوسط ويصل إلى الحضيض عندما يتعلق الأمر بالانضباط, فقد كان يغادر الصف إذا شعر ببوادر الجوع أو العطش، ووقتها لم تكن قوة أعند أستاذ أو مدير تكفي لإرغامه على البقاء في الصف, فهو لم يكن يتورع عن الركل والبصق والبهدلة.

كالهشيم انتشر الخبر في أزقة عرابة, هذا الخبر الذي سيقلب ببطء في السنوات القادمة حياة سليمان رأساً على عقب: مقتل والده عطا. عمّت الفوضى القرية على أثر هذه الفاجعة. لم يتأخر رد فعل فهمي قائد آل عطوان غير المتوج، فقد دعا فوراً لاجتماع طاريء لأبناء العائلة الذين كانوا يصرخون وقد فقدوا أعصابهم: الثأر.. الثأر.. الموت لآل شرّار. وفي منتصف الديوان وقف فهمي بطوله الفارع، وأعلن بصوت جهوري لا يخلو من الانفعال أمام حوالي الأربعين رجلاً:

"سنلقنهم درسا لن ينسوه مدى الحياة, فلن يذهب دم عطواني, دم حماي عطا, أبي سليمان, دون عقاب. أيها الرجال, أحضروا بنادقكم حالاً. سينسى أبناء دار شرّار اليوم الذي ولدتهم فيه أمهاتهم."

وقف أسد, الذي اقترب من السبعين, قبل مغادرة الجمهور الهائج الديوان. رفع يديه طالباً الهدوء والعودة إلى الجلوس، ثم قال:

"من أين لنا أن نعلم أنهم قاموا بهذه الجريمة النكراء. لقد قضى عطا آخر ثلاثين عاماً من حياته في عكا وحيفا, فهو لم يتدخل بشكل مباشر في الصراعات اليومية بين آل عطوان وآل شرّار. وبالإضافة إلى ذلك لم يقتل آل شرّار رغم العداوة بيننا شخصاً واحداً منّا قط, فما الذي يجعلهم يقتلون اليوم رجلاً ليس له أي علاقة بالصراع؟ وأشير أيضاً إلى أن عطا قُتل بالقرب من غزة، أي في منطقة بعيدة تماماً عن أراضي آل شرّار. أمّا إذا كنّا نريد مهاجمتهم فنحن لسنا بحاجة إلى روح الفقيد الغالي." عاد الهدوء إلى الديوان ليأتي دور طالب، أبو عطاف التي سيتزوجها سليمان بعد سنوات قليلة: "قُتل ابن عمنا عطا في منطقة بدو النسور. وبما أننا رجال آل عطوان بين بعض، فإنني سأبوح لكم بسرٍ أرجوكم ألاّ يخرج من هذا الديوان. عطا كان على علاقة حب ساخنة مع بدوية متزوجة من نسوري, وأغلب الظن أنهم وجدوه متلبساً بمعاشرتها. دم الرجال يغلي في مثل هذه الحالات، ونحن نعلم إنهم يتهورون ويذبحون حفاظاً على شرفهم." وقع الرجال في ديوان فهمي في حيْرة إلى أن جاء تصريحه: "سأتخذ

شخصياً الإجراءات اللازمة من أجل إزالة النقاب عن أسرار هذه الجريمة النكراء. عليكم أن تعلموا تماماً أننا سنواجه الدم بالدم."

انفض المجلس. وبعد هذا اليوم مضت عقود كثيرة ولم يُعرف حتى يومنا هذا من الذي خطط ونفّذ هذه الجريمة، ولكن سليمان كان يردد في السنوات القادمة أنه على ثقة كاملة بأن طالب هو الذي قام بقتل أبيه ومحقق رغباته، وذلك طمعاً منه بثروة عطا التي أشرف حالاً على إدارتها لصغر سن سليمان. بالنسبة لسامية زوجة عطا التي تمقت عرابة وأهلها فقد كان موت زوجها يعني موتها معه. ولولا سليمان الغالي لتمنت أن يحدث ذلك في أسرع وقت ممكن. كانت تبدو بملابسها السوداء التي ارتدتها حتى مماتها كتلة هزيلة من الحزن. قلما كانت تغادر البيت، وفيه تشعر بالارتياح بعض الشيء فقط حين تعدّ لسليمان وجباته المفضلة. لم يرها الناس إلا وهي تتلو آيات قرآنية بصوت منخفض. غير أن كلمات هذا الكتاب المحكمة والمؤثرة لم تتمكن من الحد من نوباتها العصبية وغضبها الجارف. هذه النوبات أصبحت تتكرر باستمرار وأكثر من أي وقت مضى. لم تعد تتمتع بفضيلة الضحك العفوي الذي يريح أعصابها وأعصاب الآخرين.

سليمان بكى دقائق قليلة. كان يجهل معنى الموت وانعكاساته عليه وعلى العائلة بصورة عامة. وبعد تناوله العشاء طوى هذه الصفحة عدة سنوات. لم يتغير عليه في أول الأمر أي شيء, فهو سيسير على الخطة التي كان قد وضعها والده، وبناء عليها يتوجب عليه مواصلة تعليمه في مدرسة النجاح الأهلية ذات المستوى الرفيع في مدينة نابلس التي تبعد 40 كم عن عرّابة, وبعد أن يحصل على شهادة المترك كان من المفروض أن ينتقل إلى الدراسه الجامعية في استانبول أو القاهرة. أما والدته سامية وأختاه فسيمكثان حسب تقاليد آل عطوان في القرية حفاظاً عليهن وعلى سمعتهن, كما أن سليمان سيقضي كل إجازاته في عرابة. طالب تولى بيع مخازن عطا ومكاتبه وبيته في حيفا، كما قام بإدارة أملاكه ريثما يبلغ سليمان سن الرشد.

في القسم الداخلي لمدرسة النجاح عاش سليمان ساعات حلوة ومرّة. المطبخ كان خارج نطاق المليح والعاطل, فقد أبلغ أمه بعد ابتلاعه لقمته الأولى, بأنه سيشنق نفسه إذا لم تضاعف الفلوس المخصصة لحياته اليومية. أعلن أنه يفضل الموت على افتراس هذه الوجبات التي تخلو من الدسم والطعم والرائحة. سامية لم تتخل عنه فقد أسعفته كالعادة بسرعة.

في أسواق نابلس ومطاعمها كان سليمان (الآن بلغ الثالثة عشرة) يصرف شهرياً أكثر من أب لأربعة أطفال يعمل في أحد مصانع الصابون النابلسي المشهور. لم يكن سليمان يكترث كثيراً بأناقة المطاعم

أو الأماكن العامة التي كان يتناول فيها وجبات الغداء، وكان يهتم فقط بطعم ونكهة ما يقدم له على صحنه أو في رغيفه. لم يكن يجد أي غضاضة مثلاً لو تناول أسياخ لحم الضأن المشوي في الشارع واقفاً عند عربة أبي العبد المشهور بالمشاوي. وبما أنّه كان مضطراً إلى أن
يفطر ويتعشى في مطعم المدرسة, فإنه كان يتخلص من مرارته في معظم الأحيان بالتهام نصف كيلو كنافة عند العكر, سيد الكنافة في جنة الكنافة.
في هذه الأيام واظب سليمان على التدخين واستمر في تلويث رئتيه حتى وافته المنية.

سليمان يهوى الأدب وابنة عمه عطاف

كان أساتذة مدرسة النجاح يتأملون شخصية سليمان السمين، وكانوا لا يلاحظون فقط أنه كان نزقاً ومدللاً وجريئاً، بل لفت انتباههم أيضاً أنه كان يتمتع بموهبة أدبية لا بأس بها بالإضافة إلى اهتمامه بالتاريخ. وعندما بلغ الخامسة عشرة كان يحفظ ويردد الكثير من قصائد شعراء العصور العربية القديمة والحديثة. لم يكن من السهل تجاهل حسه اللغوي. وكانت مواضيع الإنشاء التي يكتبها الأفضل في صفه دون منازع. وكم كان يهوى التردد على بيت الشاعر إبراهيم طوقان (1905 - 1941), أشهر شعراء المدينة وربما فلسطين كلها. لم تكن مثل هذه الزيارات صعبة المنال, فقد كان الشاعر زوج إحدى قريبات سليمان.

كانت مضافة إبراهيم طوقان أقرب إلى المكتبة والصالون الأدبي منها إلى غرفة الجلوس التقليدية, وربما يمكن القول ببعض المبالغة إن هذا الصالون كان المكان الوحيد في العالم الذي ينسى فيه سليمان موجات الجوع الأولى. كان يتغزل بأبيات الشعر العذبة التي يسمعها هناك على النحو التالي: دسم, طيب, حلو, ما أروع نكهته.. يا الله. لم يكن سليمان يستوعب محتوى جميع الأبيات والأحاديث.
كان في باديء الأمر يطرب للبسيط من شعر إبراهيم كالأبيات التالية:

وطبيبٍ رأى صحيفةَ وجهي ... شاحباً لونُها وعودي نحيفا
قال لا بدَّ من دمٍ، لك نعطيه – ... نقيّاً ملءَ العروق عنيفا
لك ما شئتَ يا طبيبُ، ولكن ... اعطني من دم يكون خفيفا

في البداية كان لا يتفاعل مع القضايا السياسية, ولكن ما كان يفهمه, خاصة عندما كان يسمعه بصوت الشاعر ووقع موسيقى الشعر العمودي, هذا الخليط السحري كان يفعل به الأعاجيب. هذه الأبيات على سبيل المثال كانت سهلة ممتنعة، وكان سليمان يتغنى بها:

باعوا الترابَ الى اعدائِهِمْ طمعاً بالمالِ، لكنَّما أوطانَهُمْ باعوا
قد يُعذَرون لَوَ انَّ الجوعَ ارغمَهُمْ، واللهِ ما عطِشوا يوماً، ولا جاعوا

في بعض الأحيان — خاصة حين كان سليمان يستمع إلى قصائد إبراهيم الغزلية - كان يتنفس بصعوبة ويصارع دموعه، ويخرج من الصالون احتراماً للجالسين ليدخن سيجارة في باحة المنزل وهو يردد: يا الله, كيف خطر بباله أن يقول هذه الأبيات؟ من أين له هذه الصور؟ وكيف نمت عنده هذه الموهبة التي نقرؤها في هذه الأبيات؟

اَلهوى أبلى شبابي جاءني من كل بابِ
من صدودٍ لعتابٍ من عذابٍ لعذابِ
كل هذا لا يطاقُ ثم لا يحلو الفراقُ
فرحتي يوم أراها جنَّتي نارُ هواها
ونعيمي في شقائي..

لم تكن غزليات إبراهيم قليلة، ولكن معظم القصائد وأحاديث اللقاءات في صالون إبراهيم كانت تدور حول السياسة، فقد عرفت فلسطين في العشرينات، خاصة بعد وعد بلفور في عام 1917، عدة انتفاضات. في هذه المرحلة حضر سليمان الكثير من الاجتماعات، التي كانت في كثير من الأحيان أقرب إلى المؤتمرات السياسية منها إلى الندوات الأدبية، وكان يلمس الاحترام الشديد في عيون الضيوف وإبراهيم عندما يتكلمون عن رجال المقاومة وعلى رأسهم الشيخ عز الدين القسام (1871-1935) الذي هاجر من سوريا إلى فلسطين في عام 1922 حيث بدأ في حيفا مقاومته

للإنجليز والصهاينة. ربما يمكن القول إن هذه الجلسات، بالإضافة إلى ما كان يسمعه من بعض الأساتذه في النجاح، كانت المدرسة التي تلقى فيها دروس حب الوطن.

كان الأساتذة يقدرون بوادر الموهبة الأدبية السليمانية، ولكنه كان يخيب آمالهم في الميادين الأخرى إلى أبعد الحدود، الأمر الذي يعود إلى كسله وانصرافه إلى الملذات. لم يكن على سبيل المثال بحاجة إلى تعلم مادة الحساب، وهو المراهق الذي يصرف من غير حساب، فهو لا يبخل على نفسه بشيء وكذلك على أولاد صفه؛ في بعض الأحيان كان يعزمهم، وكأنه رجل قدّ حاله, على وجبة لحم مشوي عند أبي العبد. زملاؤه في المدرسة كانوا يقدرون فيه أيضاً أنه لا يهاب الأساتذة. كان عملياً عريف الصف على الرغم من أن الأستاذ المسؤول كلّف رسمياً محموداً, هذا الشاب المجتهد المهذب, بهذه المهمة. سليمان – البكر الذكر لأمه، ولأبيه الغائب في معظم الأحيان - تعود أن يفرض إرادته على أمه وشقيقتيه, وها هو يحتل هنا أيضاً مكان الصدارة شاء الأساتذة أم أبوا. في هذه المرحلة أصبح سليمان يعي بعض الشيء أنه يتمتع بصفات قيادية, وإن كان في معظم الأحيان لا يحسن استغلالها. وعلى أي حال كان لا يسمح لأحد في هده المدرسة العريقة أن يقوده ويتحكم به وبرغباته.

"الفلاح الدب"– هكذا كان الأساتذة والتلاميذ يسمونه من وراء ظهره- لا يجهد نفسه بالتفكير في مثل هذه الأمور بل في تطور غريب وعنيف لاحظة في جسده بعيد بلوغه الخامسة عشرة. في الآونة الأخيرة أصبح يشعر بألم شديد في عضوه من شدة انتصابه، وبعد أن بالغ في ممارسة العادة السرية (معظم الناس يريدون لها على الرغم من شمولية انتشارها أن تظل سرية للغاية) نزلت منه بعض قطرات من الدم فقرر أن يبحث هذا التطور مع والدته أثناء عطلة الصيف في عرّابة.

وقفت والدته أمام نظرات عينيه الجاحظتين قليلاً، وكأنه سيغمى عليها في اللحظات القادمة: "أنا أحسدك على همومك، يا ولدي, يا حبيبي, يا روحي.. نحن على أبواب الإفلاس. طالب يبيع مزرعة وقطعة أرض الواحدة تلو الأخرى لإشباع رغباتك ومصاريفك العالية للمدرسة ولحياتك المرفّهة في نابلس, وأنت تأتي الآن وتعرض عليّ موضوع حمامتك. هل فقدت عقلك, يا بني؟"

كادت عينا سليمان تقدحان شرراً، ولم تستطع سامية أن تحتفظ بهدوئها، وأخذت ترتجف قليلاً, فهي تتوقع الآن أسوأ الاحتمالات. صمت سليمان طويلاً إلى أن قال بكل هدوء:

"أنت تعلمين تماماً، يا والدتي، إنني لم أكن ولداً عادياً. تذكرين أنني التهمت تسع كوسايات عندما كنت رضيعاً وكيف قاطعتُ الحليب بعد عيد ميلادي الأول بسبعة أيام. تعلمين أن الطبيعة منحتني قوة عظيمة, وأنا أعترف أنني رجل ملذات, فأنا أعلم تماماً "طَعْمَة تُمّي" (اللذيذ من الطعام), والفضل

بذلك يعود إليك. حماتي لا تختلف في حب المتعة عن معدتي, فجوعها يجب أن يُشبع. أم تريدين أن أذهب إلى بيوت الدعارة، أو أن أشبع رغباتي مع الأولاد أو الدواب؟"

رفعت سامية يديها باتجاه السماء وصاحت: "اللهم المغفرة" ثم أسرعت إلى قرآنها وقبلته. وأضاف سليمان بلهجة حاسمة للغاية: "لا أود أن أتزوج, بل يجب أن أتزوج, وإلا سيحدث ما لا تحمد عُقباه." استغرق الحديث ساعتين تخللهما تهديد ووعيد ودموع وآيات قرآنية تحفظها سامية عن ظهر قلب. القاريء ليس بحاجة إلى تحليل عميق ليعرف مسبقاً من الذي سيكسب هذه الجولة.

أخيراً اقترحت والدته عليه أن يخطب عطاف, ابنة عمه طالب, فعبر عن غبطته: "إن ذوقك رفيع, يا أمّاه, عطاف ليست أجمل بنت في القرية ولكنها مشهية وخفيفة الظل."

وافق طالب على الفور على الرغم من أنه كان يعلم أن سليمان سيعلن إفلاسه بعد سنتين أو ثلاث, ولكن مصلحة الأب كانت تقتضي ذلك, فهو يبحث عن عروس بعد وفاة زوجته الثانية, وهنا أصبح من الممكن أن تحدث عملية تبادل: طالب يود أن يتزوج لمياء, شقيقة سليمان التي تبلغ 20 عاما أي أصغر منه بثلاثين عاما, وفي المقابل سيتزوج سليمان ابنته عطاف. لم يسأل أحد عطاف أو لمياء عن رأيهما في الأمر الذي سيقلب حياتهما رأسا على عقب, فقد أصبح طالب بعد مقتل عطا ذا باع طويل ومن الصعب أن يُرد له طلب, كما أنه لم يكن هناك ما يدعو إلى طرح الأمر على عطاف.

المهر لا يلعب دوراً يذكر, خاصة حين تتم عملية التبادل في إطار العائلة؛ العطوانيون لا يتزوجون، إلاّ فيما ندر، من غير بنات العائلة, لأنهم يعتبرون أنفسهم أفضل من العائلات الأخرى. زواج التبادل ليس معقداً: أخت مقابل أخت أو ابنة والبقية على الله. الصبايا ينتقلن بكل بساطة من سرير إلى سرير في بيت قريب ويقضين الليل في أحضان أحد أقاربهن على أمل أن ينجبن عدداً كبيراً من الأطفال الذكور.

كانت المسعدة حسنية, ابنة طالب الكبرى حالة شاذة, فقد تزوجت شخصاً غير عطواني بعد وفاة أمها — زوجة طالب الأولى — وكان أحد كبار أغنياء قرية يعبد التي تبعد حوالي خمسة كيلومترات عن عرابة؛ الحصان كان يسير أكثر من ساعة من أول مزارع التبغ والزيتون إلى آخر أملاك هذا الرجل الإقطاعي. لم تكن عطاف — كما سنقرأ فيما بعد- محظوظة, على الأقل مادياً, فزواجها سيجئ بالدرجة الأولى من أجل إرضاء رغبات أبيها الذي كان يعتقد أنه ما زال, وهو ابن الخمسين شاباً قوياً, وأنه من حقه كأب أن يفكر في نفسه. بعد أسبوع يتم عقد قران طالب على لمياء والخطوبة بين سليمان وعطاف.

بعد الخطوبة بيومين دعت سامية كنتها المستقبلية عطاف إلى قهوة وقطائف. اعتذرت سامية من الخطيبين لأنها كانت مضطرة لتركهما بضع دقائق لتحضر بعض الحاجيات من المطبخ. وبعد ثوان من مغادرتها غرفة الاستقبال فوجئت عطاف بنظرات سليمان النهمة ويده المرتجفة التي بدأ يحاول أن يمررها بعصبية تحت تنورتها. وبخوف ووجل قالت له والدموع تبلل عينيها اللوزيتين: "لم نتزوج بعد." عودة سامية انقذتها من اندفاعه الشهواني, الذي كان سيتحول ولا شك إلى شبه عملية اغتصاب لو تأخرت سامية قليلاً. صرخت سامية: "ماذا تفعل يا بني؟ عليك الانتظار أياماً قليلة." وبحياء شديد قالت عطاف: "وحق القرآن أخذني على حين غرة, والله, يا عمتي.." فردت عليها سامية بهدوء: "أعرف يا بنتي حق المعرفة." طلبت سامية من عطاف ألا تتكلم مع أحد حول هذه الفضيحة التي لم تكن كذلك من وجهة نظر سليمان، الذي أوضح موقفه بصراحة وحسم: "لا أفعل ما يبعث الخجل, فنحن زوج وزوجة حسب الشريعة فقد كتب الشيخ كتابنا باسم الله وسنة رسوله وبوجود شاهدين وكل ذلك موثق وموقع عليه." ثم انقض مرة أخرى على عطاف التي أصيبت بخضة وموجة بكاء. سامية هددت بإحضار طالب, مما جعل سليمان يتردد قليلاً. عطاف استغلت تردده وغادرت غرفة الضيوف راكضة. سليمان كان يعلم أنه لا يستطيع اللحاق بهذا الغزال الشارد. لم يحاول ذلك ولكنه أخذ يوجه الشتائم لأمه ولعرابة ولبناتها الريفيات.

في الأحوال العادية كانت عطاف كالسجينة الاختيارية، إذ إنها لم تكن تغادر البيت إلاّ برفقة عمتيها اللتين قلما كانتا تخرجان لزيارة إحدى القريبات. لقد ولدت في هذا البيت ولقيت حتى الخامسة, أي حتى وفاة أمها, أحسن استقبال في أحضانها, وبقيت علاقتها بها قوية بعد موتها, فقد كانت تقتات على الذكريات. من الواضح أن عطاف ظلّ ّ ِت ملتصقة بوالدتها رغم غيابها، وعليه فقد ظلت عواطفها أقرب إلى الطفولة, مما جعلها لا تشعر بجسدها الذي تخلى منذ زمن طويل عن معالم الطفولة؛ ولذا، ولأنها لم تكن مستعدة نفسياً مطلقاً لتقارب الجنسين، فقد اعتبرت ما فعله سليمان بها عدواناً غاشماً ولا يمكن الصفح عنه.

كانت متقبلة تماما لمصيرها ولم تبذل أي جهد لتغييره على الرغم من أنه كان يبعث في نفسها – دون أن تعي ذلك – الحزن الذي كان يطغى على وجهها حتى عندما تبتسم قليلاً ابتسامتها المترددة وكأنها بحاجة لمن يوافق لها عليها. الآخرون, والدها وعماتها وبعض الأقارب الذين يترددون على البيت، لم

يكترثوا كثيراً بوجودها, والآن أصبحت مضطره أن تواجه سليمان, هذا البركان الثائر. وإذا قال أحدهم إن هذا التحدي أكبر بكثير من طاقتها فإنه لا توجد أي مبالغة في هذا الوصف.

لحسن الحظ هناك لديها فرصة لالتقاط أنفاسها فبعد أسبوع من هربها من سليمان غادر إلى مدرسته في نابلس, حيث واظب بشكل مركز إلى حد ما على مطالعة أعمال أبي نواس (762 - 813)، أحد أهم شعراء العصر العباسي وأشهرهم. وفي بغداد كثر الكلام عن صولاته في الحانات وتعاطيه الخمر وجميع أنواع الملذات وعُرف كشاعر الخمر. وقلما نجد طالباً في المدارس الثانوية لا يعرف بيته:

عاجَ الشقيُّ على رَسْمٍ يسائِلُه　　　ورُحْتُ أسألُ عن خمَّارةِ البلدِ

وهناك كلام كثير عن أبي نواس وما في أشعاره من المحرمات. وكان في مطلع حياته لا يتقيد بالتعاليم الإسلامية لا من قريب أو بعيد – كما يُقال - وكذلك بالتقاليد العربية التي أكل الدهر عليها وشرب. وفي إحدى قصائده، التي لن يراها القاريء في الكتب المدرسية، يهدد إبليس بأنه سيتخلى عن كل خطاياه وأنه سيسرف في تقوى الله إذا لم يقم إبليس بإعادة حبيبته التي هجرته إليه:

دعوتُ إبليسَ، ثم قلتُ له　　　في خَلْوةٍ والدموعُ تنحدرُ

أما تَرى كيف قد بُلِيتُ، وقد　　　أقرح جَفني البكاءُ والسَّهرُ

إن أنتَ لم تُلْقِ لِي المودَّةَ في　　　صدرِ حبيبي، وأنتَ مقتدرُ

لا قُلْتُ شعراً، ولا سمعتُ غِناً　　　ولا جَرى في مَفَاصلي السُّكُرُ

ولا أَزالُ القُرآنُ أدرُسُه　　　أروحُ　في درسِه وأبْتَكِرُ

فما مضتْ بعد ذاكَ ثالثةٌ　　　حتى أتانِي الحبيبُ يعتذرُ

هل كان أبو نواس في حياته كما هو في شعره ؟ الأديب السوداني المعروف الطيب صالح، رحمه الله، أشار في ندوة في ألمانيا/كولن في سياق حديثه عن العمل الأدبي وانعكاس حياة الأديب الواقعية عليه إلى أن أبا نواس على سبيل المثال لم يدخل حانة في حياته قط، وأنه لم يتعاطَ الخمر، وأن كل ما كتبه في هدا الصدد من وحي الخيال لا غير. وبالإضافه إلى ما قاله الطيب يحذر البعض من تسرب قصائد مختلقة إلى أعمال أبي نواس, فقد كان هذا الشاعر أو ذاك يتستر تحت اسمه خوفا من الاضطهاد والملاحقة.

وقع سليمان في غرام خطيبته عطاف وحاول، متأثراً بأبي نواس، للمرة الأولى أن يكتب قصيدة حب من وحي شوقه إليها, ولكن الوقت لم يحِن بعد لمثل هذه التجربة التي لم تنجح في هذه المرحلة من

حياته. بيد أن عشقه لأشعار أبي نواس كان آنذاك أقوى من رغبته في صياغة الشعر، ومن المرجح أنه شرب أول كأس عرق في حياته في نابلس على نخب أبي نواس الذي ربما يكون قد شجعه على تعاطي الكحول من خلال تغنيه في أشعاره بالخمر:

دعِ المساجدَ للعُبّادِ تسكنُها   وطُفْ بنا حولَ خمّارٍ ليسقينا
ما قال ربُّكَ ويلٌ للأُلى شربوا   لكنه قال ويلٌ للمصلّينا

من الممكن أن يُعاقب اليوم قائل مثل هذه الأبيات في المملكة العربية السعودية بالجلد, وبالمقارنه مع النظام السعودي كان العباسيون يتمتعون بقسط كبير من الحداثة والليبرالية. صحيح أن هارون الرشيد كان أحياناً يحبس أبا نواس عقاباً له على ما يورد في شعره من المجون, ولكنه لم يُعذب في سجنه وكان يفرج عنه بعد فترة قصيرة, وأغلب الظن أن ديوان الخليفة كان يفتقد للسمر وجمالية الأدب حين يغيب الشاعر.

كان سليمان خلافاً لأبي نواس يفضل العرق على النبيذ لأن العرق كان أرخص ومفعوله أقوى. كان هذا المفعول واضحاً للعيان عندما ضُبط سليمان متلبِّساً بالسُكْر والتدخين معا في بيت طلبة مدرسة النجاح. كاد أستاذ الرياضيات والمناوب في ذلك اليوم يفقد صوابه وهو يرى سليمان عاجزاً عن الكلام وتركيب الجمل المفيدة، كما كان هواء الغرفة التي يسكن بها أربعة تلاميذ ملوثاً للغاية بدخان السجائر. أعلن الأستاذ أمام سليمان ورفاقه أنه سيُحاسب أمام لجنة انضباط، الأمر الذي لم يرق لسليمان، فألقى كل وزنه على الأستاذ القصير النحيف فوقع على السرير وركب سليمان فوقة حتى كاد يختنق. لم يكتف سليمان أثناء هذه النوبة العصبية بذلك, بل صفع عدة مرّات أستاذه الذي لم يكن في وضع يمكنه من المقاومة، فأخذ يصيح: "شيلوا هالفلاح عني.. شيلوا هالفلاح عني!" تدخل التلاميذ وحرروا معلمهم الذي يعتبر من خيرة المربين في فلسطين ومن مؤسسي جامعة النجاح في عام 1941 التي تطورت من مدرسة (تأسست في عام 1918) إلى أكبر جامعة في البلاد. في اليوم التالي تلقى سليمان الإنذار الخامس والأخير.

بعد هذا الحادث بأسابيع قليلة قامت عطاف برفقة سامية وعمتها بزيارة هذا التلميذ المشاغب الشرس في مدرسته التي كان يكرهها من كل قلبه. وخلافاً له كانت خطيبته، وهي التي لم تغادر عرابة حتى ذلك اليوم، معجبة للغاية بالمدرسة ونابلس كلها.

عيناها كانتا تتفحصان كل شئ حولها، وعينا سليمان لم تكونا تريان سوى عطاف, وكم كان يتمنى لو استطاع أن يختلي بها ساعة واحدة, ولكن أمه وعمتها كانتا في حالة استنفار دائم، بالإضافة إلى أن عطاف كانت تحرص على المحافظة على الابتعاد عنه مسافة مترين على الأقل. زملاؤه كانوا يحسدونه لأنه في هذه السن المبكرة يتمتع بالجنس اللطيف. "آه، لو يعلمون أنني لم أنل منها شيئاً حتى الآن." هذه الجملة رددها أكثر من مرة.

بيد أن خطوبته المبكرة لم تبق دون انعكاسات على شخصيته, فقد أصبح يعتقد أنه رجل كامل ومُكمّل, بينما تدل الكثير من تصرفاته على عدم نضوجه. كان يتعاطى الكحول بحماقة وإسراف وكان يتردد على أوساط السفلة ويتفاخر والسيجارة في يده بكل هذه التفاهات. لم يحسن اختيار أصدقائه خارج المدرسة، ولم يتأثر في هذا الشأن بنصيحة مثله الأعلى أبي نواس الذي قال ما معناه: إذا شربت, فاختر جلساءك في سهرات الخمر والسمر بعناية.

لم يكن مجال اختيار هؤلاء الأصدقاء واسعاً. نحن هنا في مدينة كبيرة, ولكن أهلها بغاية المحافظة وتكاد تعد الأشخاص الذين يشربون الكحول على أصابع اليد؛ وبما أن المجتمع يعتبرهم ساقطين، فإنهم يشربون الكحول بشبه سرية. سليمان لم يكن يتقيد كثيراً بالمرغوب والممنوع اجتماعياً، فقد كان يتأرجح من شدة السكر أحياناً في طريقه إلى المدرسة أو الى البيت فيما بعد.

على أي حال ساهمت هذه الأجواء في خلق غربة بينه وبين مدرسته فلم يعد يتردد عليها بشكل منتظم، وكان يفضل بعد سهراته الطويلة أن ينام في بيوت أقاربه في وسط المدينة. وقبل أن تتخذ الإدارة قراراً بفصله تلقى الرسالة التالية من والدته: "عد حالاً إلى عرابة. أصبحنا قاب قوسين أو أدنى من الإفلاس. ليس لدينا أي أمل في أن تواصل تعليمك."

سليمان كاد يقفز من الفرح, فقد كان لا يطيق أن يسمع اسم المدرسة, كما أنه اختتم الصف الثامن وهو يعتبر في قريته آنذاك من المتعلمين. وبعد عودته لعرابة قالت له سامية: "والدك لم يتعلم في المدرسة أكثر من خمسة أعوام وأنت تعلم كم حقق من نجاح ومال. لا يوجد لدينا الآن مبلغ كبير من المال, ولكنه يكفي لتمويل احتياجات دكان لبيع الملابس والحاجيات الأخرى مثل الملبس والعلكة ودفاتر المدرسة الخ. أنت تتمتع بموهبة الكلام والحجة القوية ولن تكون مهمة شاقة بالنسبة لك أن تسحب

الفلوس من جيوب الفلاحين." سليمان كان يعلم تماما إنه لن يصبح في يوم من الأيام من التجار الناجحين, ولكنه لم يقاوم فكرة أمه, لأنه يود الزواج بأسرع وقت ممكن.
أصبح أهل عرابة يتبادلون النكات عن سليمان, البائع الفاشل, فقد كان هو نفسه أفضل زبائنه وكان لا يفكر لحظة قبل أن يهدي الملبس والعلكة للبنات والأولاد, كما كان يشتري بضاعته من أفخر المحلات في نابلس وحيفا إلى أن فهم أنه لا طاقة لدى معظم أهل عرابة بشراء مثل هذه الحاجيات.
كان يعبر عن سخطه على "الفلاحين" لأنهم لا يعرفون قيمة الأشياء الفاخرة. أمه كانت ترى أن البداية دائماً صعبة, خاصة لأن ابنها يجب أن يَرْكز وينضج قليلا، ولهذا لم تعد تتردد في مسألة زواجه, لأن الزواج سينمي فيه — كما كانت تعتقد بغير حق - روح المسؤولية.
أخيراً أحيت القرية عرسه، وفي نهاية السهرة وقبل أن يصل غرفة النوم بخطوات بدأ بعض الشباب — كما كان التقليد آنذاك - يقومون بضربه لكي لا يهاب من معاشرة زوجته ولكي يفور دمه, ولكن سامية كانت لهم بالمرصاد, فصاحت في وجوههم مطالبة بالكف عن هذه البربرية خوفاً من أن يصاب فلذة كبدها بأي سوء. من ناحية أخرى كانت تعلم تماماً أن ابنها ليس بحاجة إلى أي تحريض ليقوم بواجباته الذكورية, بل على العكس فهذا الثور الهائج كان بالأحرى بحاجة إلى مسكِّن.
سليمان كان يستقبل المهنئين بزواجه بالبيجامة التي لم يغيرها خلال الأسبوعين الأوَّلَيْن, ولم تكن أي غضاضة في ذلك فهي عادة العرسان في القرية. عطاف كانت تشعر بالسعادة والشكر عند قدوم أي ضيف لأنها كانت بحاجة ماسة إلى كل استراحة من الرجل الدي لا يقل وزنه عن المئة كيلوغرام. ولكن سيكون من الخطأ بمكان لو قيل إنها ليست معجبة بزوجها. صحيح أنه سمين ولكنه ببشرته غير المترهلة والبيضاء كان يُعتبر رجلاً وسيماً نوعاً ما, فالبياض في الريف كان وقتئذ مرغوباً, وبالإضافة إلى ذلك كان يتمتع بفم جميل ومنه كانت تخرج الكلمات التي كان يدللها بها في الأشهر الأولى من الزواج: كان فمه المدوّر يقطر عسلاً- كما كانت تقول عطاف لنفسها. كما كانت تعترف بينها وبين حالها أنها تشعر بلذة عندما يقبلها, كما كانت تهوى طريقته في الكلام والملاطفة, فمنذ وفاة والدتها لم تلامس أصابع شخص بشرتها. كان بطبيعة الحال ليس برقة أمها ولكنه كان بالرغم من ذلك يبعث الدفء والمحبة في جسدها الذي كان أثناء مراهقتها نائماً تماماً. الآن غفرت لسليمان ما اعتبرته "عدواناً غاشماً" عندما انقضَّ عليها في بيت أهله. وبينما كانت تعامل في بيت أبيها كخادمة لا قيمة لها ولا تستحق الاهتمام, أصبحت هنا مع سليمان تشعر أنها شيء ثمين وجميل جداً.

إنها تحب هذا الرجل من كل قلبها وستظل كذلك حتى مماتها رغم تناقضاته ومواطن ضعفه وخيبته في الحياة. لم يكن أي إنسان آخر في هذا العالم يستطيع أن يجد كل المبررات لفشل سليمان.

بطبيعة الحال لم تكن هذه الصبية تعي في هذه الفترة أنها تزوجت شاباً سيخسر بعد أشهر قليلة الأرضية اللازمه لحياة أسرته التي ستكبر وتكبر. ما من شك أنه مبذر وتاجر فاشل ولا يتحمل مسؤولية ضياع الجزء الأكبر من ثروة أبيه، ولكنه بالتأكيد لم يستغل الفرصة الأخيرة الممكنة. سنتجنى عليه لو قلنا إنه كان أيضاً أغلب الظن سيضيع ثروه أبيه كلها لو فُسح المجال لديه, ولكن الطريقة التي تمت تربيته بها كانت ترجح أنه سيكون مغواراً في التبذير, وعلى أي حال فإن "عمّه" طالب أبلى بلاءً حسنا في هذا المضمار، فلم يترك لسليمان ما يستحق الذكر.

بعد أقل من سنة أعلن سليمان إفلاس دكانه, وما كان من أمه إلاّ أن أعلنت أن نجلها مرشح لمهام أكبر, فهو لا يود هدر مواهبة في مفاصلة الفلاحين على تنزيل قرش أو قرشين. كان يكره المفاصلة ويقترح بسرعة على هؤلاء الأشخاص أن يذهبوا إلى الشيطان. لم يكن يفهم أن أبناء القرية يعتبرون المفاصلة من أنواع الرياضة, فالوقت عندهم باستثناء مواسم الزراعة والحصاد لا قيمة له. أما سليمان فقد كان يقول لهم إن وقته من ذهب, على الرغم من أن الذهب لم يتوفر في بيته أبداً.

باختصار يمكن القول إن سليمان وزبائنه لم يشعروا كثيراً بالسعادة في دكانه الذي أغلق لغير رجعة, خاصة لأن سليمان لا يفقه شيئاً في المحاسبة ولا يفرق بين الخارج والداخل.

سيغادر عرابة بعد أسابيع قليلة إلى جنين حيث رشحته والدته لأرفع المناصب.

سليمان بين بؤس كتابة الشعر وعروض الحال والمقاومة

على الرغم من أن سليمان كان يردد باستمرار أن عقل والدته أصغر من عقل العصفور، إلا أنه يشبهها أكثر مما يريد. إنه لا يقل عنها على سبيل المثال ميلاً للنوبات العصبية التي يمكن وصفها بأنها من أنواع الجنون المؤقت، كما أنه يشاطرها إلى حد ما اعتقادها بالخرافات. صحيح أنه لا يعتقد أن الله جل جلاله "يسخط" الإنسان خلال ثوان إلى قرد – وهذا ما تثق سامية بأنه يقدر عليه متى شاء – ولكن سليمان يؤمن مثلاً بالوجوه التي تجلب الخير والوجوه التي تجلب الشر: ظل مدى حياته يرفض الاستفتاح ببعض الوجوه لأن رؤيتها – كما كان يرى – ستخرب البيوت لا محالة. كما أنه كان يعتقد اعتقاداً جازماً بأن الطبيعة والقدر مزاجيان وأن لذلك تأثيراً حاسماً على البشر وحياتهم. ومن ناحية أخرى كانت الأحلام تلعب دوراً مهماً في تفسير شؤون حياته اليومية، ولا عجب في ذلك، فقد سمع خلال السنوات الماضية تفسيرات لمئات الأحلام من أمه. كان في كثير من الأحيان يصغي إلى إيضاحاتها، بما فيها من تفاصيل وصور مرسومة بدقة متناهية، باهتمام وهو فاتح فمه. لم يكن لديه أدنى شك في أن ما كان يعيشه على أرض الواقع بين الفينة والأخرى هو بالضبط ما استلهمته أمه قبل ذلك من هذا الحلم أو ذاك. هنا نشير إلى أن كتاب تفسير الأحلام الذي تستعين به سامية ترك انطباعا لا يستهان به على سليمان، فقد كان يشعر مدى حياته باحترام كبير لكل ما صدر في كتاب.

أمور كثيرة كانت في منتهى الوضوح بالنسبة له، ففشله في عالم التجارة يعود إلى أن هذا المجال ليس قدره، فهو لم يُخلق تاجراً، بالإضافة إلى أن الكثير من الحسّاد نحسوه وجلبوا له الحظ التعس. كما أنه لا بد من الإشارة إلى أن سامية رأت بكرها في المنام جالساً على مقعد وثير كان يملؤه تماما بجسده الضخم. هذا المقعد لم يكن في عرابة، وهذا الحلم كان لا يقبل تفسيراً آخر: هناك وظيفة عالية بانتظاره في جنين أو نابلس أو القدس. لم يكن هناك أدنى شك في أن جميع المواصفات متوفرة لدية، من الحسب إلى النسب، إلى الطول والعرض. وعلى صعيد آخر عرابة هذه لم تجلب له الحظ فلم يرزق فيها بولد، بل بثلاث بنات. ولم تكن سامية تعير بناته نجلاء وأنيسة ونازك – ربما لأنها كانت تعتقد أنهن جئن بالغلط – أي أهمية، ولم تكن تمنحهن أي قسط من حنان الجدة. في هذا الشأن لم يكن

سليمان يتفق تماماً مع والدته، ولكنه كان يرى أن الوقت حان لقدوم بكره، ولعل الانتقال من عرابة سيكون بادرة خير في هذا الخصوص أيضاً. وخلافاً لسامية وسليمان كانت عطاف تهيم ببناتها الثلاث وتضعهن في عينيها، وتقدم لهن كل ما لديها من عطف ورعاية.
في عام 1936 تقرر الرحيل من عرابة إلى جنين فالمسافة بينهما كانت أقل من عشرة كيلومترات. استعار من حماه حمارين وعربة، ونقل أغراض بيته إلى البلد التي ستصبح مقره خلال الأربعين عاماً القادمة. لم يتجاوز عمره آنذاك السادسة والعشرين أي أنه كان في عز الشباب والعطاء.
في جنين، التي كان يرى البعض أنها قرية كبيرة، وآخرون أنها من مدن فلسطين العشرين. بشكل أدق كانت جنين بقضائها تعد في عام 1945، أي أثناء الانتداب البريطاني، 60 ألف نسمة وكانت تعتبر – حسب السجلات البريطانية – من المدن الست عشرة المهمة في فلسطين.
في جنين كانت توجد حركة سياسية قوية بالمقارنة مع عرابة. لم يتمكن سليمان من شراء بعض الحاجيات من سوق جنين بعيد وصوله إليها، ففي الوقت الذي وصل فيه سليمان برفقة ابنة عمة عطاف وبناتهما الثلاث كان الإضراب العام الذي استغرق سته أشهر ما زال مستمراً. وكانت قيادة الشعب الفلسطيني آنذاك "اللجنة العليا" أقرت هذا الإضراب الفريد من نوعه في العالم احتجاجاً على سياسة الانتداب البريطاني وحركة الهجرة والاستيطان اليهودية. كانت العواطف متأججة، خاصة بعد استشهاد الشيخ عز الدين القسام ورفاقه في 15 نوفمبر 1935 في أحراش قرية يعبد إحدى قرى جنين التي تبعد عنها حوالي الخمسة عشر كيلومتراً فقط. ويذكر أن جثمان الشيخ الشهيد نقل في البداية إلى جنين قبل أن يتم نقله إلى حيفا حيث دفن في أرض وقفية إسلامية على بعد سبعة كيلومترات جنوب حيفا في قرية حوّاسة. روى أحد شيوخ جنين بعد وفاة سليمان بسنوات كثيرة أن سليمان ألقى خطابا في عام 1936 في ساحة البلدة أثناء مظاهرة عبر الناس فيها عن تمردهم على الانتداب البريطاني وعن مطلبهم وقف الهجرة اليهودية. كان بعض أهل جنين يتوقعون آنذاك أن سليمان سيصبح أحد الزعماء السياسيين أو الموظفين الكبار في قضاء جنين.
في بداية الأمر كان سليمان يسعى إلى توطيد علاقاته مع أقاربه وأهل البلد المشهورة ببساتينها وبياراتها، وبعد عام 1948 "بمقاثي" البطيخ الذي كان يصل حجمه إلى ضعف أو ثلاثة أمثال كرة القدم. يروى – أغلب الظن ببعض المبالغة – أنك كنت تسمع ليلاً صوت نمو البطيخ وأنت تتجول في أرضه، ومن كان لا يسمع هذا الصوت كان يعتبر من الطرشان. كما اشتهرت جنين أيضاً ببيارات البرتقال، خاصة بيارة الإقطاعي الكبير فؤاد عطوان، وكان بائع البرتقال ينادي في الأسواق: "فؤادي يا

برتقال." وقد حدثوا أن فؤاد العطوان نفسه مر ذات يوم على بائع ينادي: "فؤادي يا برتقال"، فلقطه من أذنه وقال له: "برتقالي لم ينزل بعد إلى السوق، يا ترس!" لم تكن في تلك الأيام أي مشكلة في الإنتاج الزراعي في منطقة جنين، فقد كان تراب أراضيها الأحمر، الذي يسميه الناس "سمقة"، خصباً للغاية وخالياً تقريباً من الحجارة، كما أن الأرض كانت منبسطة وتكاد تخلو من التلال وسهلة الفلاحة، ومنها كان ينبثق مرج بن عامر ليربط جنين بحيفا. وبالإضافة إلى ذلك كانت الزراعة في كثير من سهول المنطقة مروية وبعلية فقد توفرت المياه وكانت تزيد أحيانا عن الحاجة بسبب توفر أكثر من مصدر لها. وإذا كانت المنطقة تعاني من مشكلة، فقد كانت مشكلة التسويق وتصنيع المنتجات الزراعية، لأن أسعار صناديق البندورة والباذنجان والخضروات الأخرى وكذلك الفواكه في موسمها كانت بسعر الفجل – كما يقال في جنين التي كانت مشهورة أيضاً بالفجل. لكن المنطقة كانت على الرغم من ذلك تعيش بألف خير، وكنت تظن وأنت قادم من نابلس على أبواب جنين أنك أمام مدخل الجنة فقد كانت تزينه أشجار الكينا الشامخة التي كان يصل قطر جذع الشجرة منها إلى حوالي المترين. وكان جدول مياه نبع عين نيني تمر في طريقها على أطراف هذه الأشجار التي تغير بين كل فترة وأخرى قشرتها كالأفعى. مياه نبع عين نيني كانت تسقي المزارع غرب البلد في الوقت الذي كانت مياه "عين البلد" تتدفق فيه بغزارة من أغوار وسط المدينة عبر قنوات مفتوحة تمر في باحة الجامع الصغير ليتوضأ بها المصلون قبل أن تسقي بقية البساتين.

كان الفلاحون هنا، كإخوانهم في بقية أنحاء فلسطين، يحبون أراضيهم كما يحبون أطفالهم، فقد كانوا يعطون لكل قطعة أرض اسماً: الطويلة والحفيرة وإلى غير ذلك من الأسماء. وبينما معظم سكان عرابة من آل عطوان كان الحال هنا في جنين يختلف، فقد كان يقطنها عدد ليس قليلاً من العائلات غير الكبيرة: السوقي، عزوقة، منصور، العبوشي وشرار وآل عطوان الخ، بالإضافة إلى عدد متزايد من النازحين من الريف. وكان لآل عطوان أيضاً نفوذ كبير في جنين فقد نزحوا من عرابة في منتصف القرن التاسع عشر وكانوا من الملاكين الكبار في قضاء جنين والبلدة نفسها وكان أحدهم طويل الباع ويحمل لقب باشا. وقد تسلم "حافظ باشا" من عام 1883 حتى أوائل القرن العشرين ما سمي إبان العهد التركي متسلمة جنين، وكان أولاد عمه قد تسلموا الحكم في نابلس وجنين، ومنهم حسين (1832-1838) ومحمود في عام 1858. كانت السلطة، وفيما بعد المراكز المهمة مثل القائمقام ورئيس البلدية وأحيانا المحافظ، تنتقل من حمولة إلى أخرى، وكانت قوة حمائل شرار وعطوان وعبوشي تعتمد أيضاً على القرى القريبة الموالية وعلى الفلاحين فيها، فمن الناحية العددية لم تكن لإحداها القدرة

وحدها على السيطرة. الوصول إلى السلطة، رئاسة البلدية مثلاً، كان يتم من خلال تحالفات مع القوى الأخرى وتقاسم المناصب ومن خلال الرشاوى وشراء أصوات الناخبين. وكانت تحدث في بعض الأحيان صدامات بين العائلات، ولكنها قلما كانت تكون دموية.

لفت نظر سليمان في جنين ما لم يكن شاهده في عرابة، فهنا يتحرك الإنجليز بكل حرية، وقد أقاموا على أطراف المدينة معسكراً لهم (أصبح فيما بعد مخيم جنين المشهور)، ولم يكن يسمح لأهل جنين بدخوله. لم تكن من طبيعة سليمان معاداة الغرباء، فعداؤهم يعود عادة إلى عدم معرفتهم مما يولد الخوف منهم ومن ثم بغضهم عند معظم الناس، بيد أن سليمان لم يكن جباناً، بل على العكس كان جسوراً ويتمتع بقسط من الفضول وحب المعرفة. ولكنه من ناحية أخرى كان يرفض أي إنسان — بغض النظر عن أصله وفصله – يصبو إلى السيطرة عليه وعلى المجتمع الذي يحيط به. كان يرى أن هؤلاء الإنجليز يتصرفون في جنين وكأنهم أسيادها، وهو يعتقد أنه لا يوجد ما يبرر وجودهم كجنود أبداً. صحيح، كان يحدث نفسه، أنهم انتصروا على الأتراك في الحرب العالمية الأولى، ولكن العرب دعموهم آنذاك، لأنهم رفضوا الانصياع حتى لأبناء دينهم. غير أن الإنجليز خدعوا العرب وبدلاً من أن يمنحوهم الاستقلال وعدوا الصهاينة من خلال وعد بلفور في عام 1917 بإقامة وطن قومي لليهود هنا في فلسطين. هل هناك في هذا العالم لؤم مثل هذا الذي رأيناه من الإنجليز؟ كان سليمان يسأل نفسه ويشعر بقهر وغضب شديد حين كانت تدور هذه الأفكار في رأسه، وكان ذلك يبدو بشكل خاص في عينيه اللتين كانتا تصابان في مثل هذه الحالات ببعض الاحمرار. كان رفض حكم الأجنبي بالنسبة له أمراً غير قابل للمساومة، وقد ربى بناته وأولاده (والذكور منهم هنا ما زالوا في علم الغيب ولكنهم سيأتون — كما سنرى) على حب الوطن الحر الذي لا يقبل سيطرة الغير على إرادة شعبه وموارده. كان سليمان يردد دائماً في البيت أمام أولاده أشعاراً تعج بالوطنية كأشعار إبراهيم طوقان وأبي القاسم الشابي وأحمد شوقي، وهكذا أصبح أهل بيته يتنفسون روح الوطنية كهواء جنين. عطاف حدثت أبناءها فيما بعد أن والدهم ظل حتى ما بعد الأربعين يطالع كتب التاريخ العربي والإسلامي والأوروبي حتى الساعة الرابعة صباحاً.

ذات يوم لاحظ بكثير من الاستغراب هؤلاء الإنجليز وهم يمارسون نوعاً غريباً من الرياضة في الشارع العام. كانوا يقومون بالمشي القريب من الركض أو بالأحرى من الركض الذي يشبه المشي الذي عرف فيما بعد أنهم يسمونه Walking، فقال لنفسه "أولاد الكلب، حتى في الرياضة لا يحبون أن يفصحوا

عن مآربهم." وكان الجنود الذين يرتدون بناطيل قصيرة حتى الركبة شديدي البياض وكانت وجوههم بعد كيلومترات من كوكتيل المشي والركض تصبح حمراء كحز البطيخ في عز الصيف. وحدث أن أصيبت قدم أحدهم بجراح خفيفة فجالس أولاد البلد الذين كانوا يراقبون هذه الرياضة الغريبة وهم قاعدون في مقهى أبي نهار الصيفي. سليمان لم يكن يتكلم اللغة الإنجليزية، ولكن قاسم الذي كان يعمل في معسكر الإنجليز كان يترجم أسئلة سليمان التي وجهها للجندي:

سليمان: من أي مدينة حضرتك في إنجلترا؟

الجندي: من دبلن

سليمان: إذا أنت إيرلندي ولست إنجليزياً!

فوجيء الجندي بتوفر مثل هذه المعلومه عند هذا الشاب في آخر الدنيا، فأجاب: نعم، أنا من إيرلندة.

سليمان: كيف ترضى، يا أهبل، أن تشارك كجندي في جيش دولة تستعمر شعباً وهي نفس الدولة التي تستعمر شعبك، الشعب الإيرلندي؟ هل تنسى أيضاً أنهم تركوكم تموتون جوعاً عندما فتك الدود بمحصول البطاطا، المادة الغذائية الرئيسية في بلادكم، في عام 1845؟

لم يكن للقصة أي لواحق، ولكن سليمان كان يستلطفها ويحب أن يرويها بين الفينة والأخرى في هذا المقهى أو ذاك، كما أنه حدث بها أولاده أكثر من مرة.

كان يمقت الإنجليز.

بالنسبة له لم يكن هناك أي فرق بين اليهود والمسيحيين الفلسطينيين، فكلاهما كان يتمتع في صفوف المسلمين بسمعة طيبه بسبب كفاءات أبناء الطائفتين المهنية والثقافية. بيد أن نظرته لليهود تغيرت تماماً بعد أن علم علم اليقين أنهم عازمون على إقامة دولة لهم في فلسطين. كان واضحاً كالشمس بالنسبة له أن هذه الدولة لن تقوم إلا على أشلاء الفلسطينيين، ولذا كان يرفض هذا المشروع بكل قوته، ولكنه لم يصبح في يوم واحد من حياته "لاسامياً" بالمعنى الدارج أي لايهودياً. كان يميز بين اليهود الفلسطينيين واليهود الأوروبيين فهؤلاء كانوا أسوأ في نظره من البريطانيين. البريطانيون يريدون السيطرة على خيرات البلاد، بينما الصهاينة يريدون الأرض وتشريد الفلسطينيين. كان يعلم أن الإنجليز يستغلون اليهود لأهدافهم، ولكنه كان عازماً على التصدي للإنجليز وللخطط الصهيونية التي ترمي إلى إقامة دولة يهودية.

عندما يدور الحديث هنا عن عزم سليمان وإصراره على التصدي للإنجليز والصهاينة فإنه قد يخطر على البال أنه سيخرج للجبال من أجل المقاومة، ولكن الأمر لم يكن كذلك. كل ما لديه لم يكن أكثر من الكلام والكتابة، وعندما كان يتكلم، خاصة عندما يغضب ويثور، كنت تشعر أن الكلمات تتحول إلى حجارة وصخور يلقيها من قمم الجبال. وفي بعض الأحيان كان يدخل أبياتاً من الشعر بين كلماته، فقلما كان يعبر عن سخطه على الحكام العرب على سبيل المثال دون أن يستشهد ببيت طرفة بن العبد (539 – 569) المشهور:

وظلمُ ذوي القربى أشدُّ مَضاضةً   على المرءِ من وَقْعِ الحسامِ المهنَّدِ

في عام 1936 لم يكن يعرفه الكثير من الجنينيين. كل ما كانوا يعرفونه عنه أنه عطواني، ولذا كانوا لا يستبعدون، خاصة وأن منظره الخارجي كان لا يخلو من الوجاهة، أن أرفع المناصب في انتظاره. وعندما كان يتكلم كانوا يستمعون جيداً، ويبدو أنه كان يتخيل – وهي ظاهرة منتشره بين الأدباء ومحبي الأدب – أن كلماته بحد ذاتها عمل، فقد كان لا يرى أنه بحاجة إلى أن يفعل شيئاً بعد أن كان ينطق بها. ربما لم تكن هذه الظاهرة تقتصر على الأدباء فقد درج تعبير في تلك الأيام: " فلان من حزب "قل كلمتك وامض"."

في نفس العام تظاهر أهالي جنين استجابة لرغبة الشهيد فؤاد حجازي الذي كتب في وصيته أن يوم شنقه "يجب أن يكون يوم سرور وابتهاج وكذلك يجب إقامة الفرح والسرور في يوم 17 حزيران من كل سنة، إن هذا اليوم يجب أن يكون يوما تاريخياً تلقى فيها الخطب وتنشد الأناشيد على ذكرى دمائنا المراقة في سبيل فلسطين والقضية العربية."

"يا أهالي جنين"، كان سليمان يخطب أمام الجامع الصغير في جمهور يتظاهر ضد الإنجليز والمستوطنين اليهود في الذكرى السادسة لإعدام الإنجليز للأبطال الثلاثة فؤاد حجازي ومحمد جمجوم وعطا الزير، "علينا أن نُعلّم هؤلاء المستعمرين العنجهيين أننا نعتز بعروبتنا ونضالنا، وكما قال الشاعر التونسي أبو القاسم الشابي (1909 - 1934):

إذا الشعبُ يوماً أراد الحياةَ   فلا بدَّ أن يستجيبَ القدرْ

وفي ختام خطابه ألقى مقطعاً من قصيدة الشاعر إبراهيم طوقان في رثاء الأبطال الثلاثة:

أجسادُهُمْ في تربةِ الأوطانِ أرواحُهُمْ في جنةِ الرِّضوانِ
وهناكَ لا شكوى من الطغيانِ وهناك فيضُ العفوِ والغفرانِ

بعد أن نزل من عن المنصة أخبره أحد جيرانه: "مبروك، لقد رزقت منذ قليل بطفل ذكر." نزلت حالاً دموع سليمان الذي كان ما زال منفعلاً ومتأثراً بكلمات خطابه. وقال لنفسه: الحمد لله، أخيراً جاء الصبي، البنات يتزوجن ولا يقدمن يد العون لعائلتهن. إنه في غاية السعادة بمجيء عطا، الذي سيسميه هكذا طبعا على اسم والده. ثم عجل خطاه للبيت ليلاحظ أن زوجته مرهقة، ولكن فرحها ببكرها كان أكبر من تعبها. حمل سليمان عطا وكان لدية الانطباع أنه بهي الطلعة ويتمتع بجسد قوي وسليم. وكما سنرى فإن هذا الصغير سيصبح في سن مبكرة المعيل الأول لعائلة سليمان الكبيرة.
لم يمكث الأب طويلاً مع رضيعه، فهو ينتظر بفارغ الصبر طعام الغداء، الذي تناوله بغضب شديد. بصعوبة جمة حاول ابتلاع السبانخ.. شيء يرفض الدجاج التهامة. لم تكن عطاف التي تتلمذت على يد أمه تستطيع في يوم ولادة عطا أن تطبخ للعائلة، فقد كان البيت يعج بالناس: القابلة القانونية والجارات بما في ذلك "أم علي"، وهي التي تبرعت بحماس أن تعد أكلة السبانخ بلحم الضأن والرز. كان كل همّ سليمان ألا تسمع "أم علي" شتائمه، إذ كان يردد بصوت منخفض أنه لا ينكر أنها ست فاضلة، ولكن ينبغي أن تُمنع من دخول المطبخ، ولو كان أبو علي زلمة "قد حاله" لطلقها منذ سنين. كان يشعر بشفقة صادقة على أولادها وذويها.

في الأحوال العادية كان سليمان ينام بعد الظهر حوالي ساعتين، ولكن وضع البيت لم يكن يسمح اليوم بذلك، خاصة وأن بعض النساء جئن للمباركة بولادة عطا وسلامة أمه. سليمان قرر الذهاب إلى المقهى حيث التقى بالصديقين سعيد وخالد وكلاهما كان يقرض الشعر. خالد طلب من سليمان وسعيد أن يستمعا لقصيدته الجديدة التي استهلها بالقول:

حطِّمْ يراعَكَ يا أخي، أو أَلْقِه بالنارِ أو أَيقِظْ به الأرواحا

خالد شاب طويل القامة ورشيق. لا يوجد طبعاً شكل معين للشعراء، فهم أناس كغيرهم لا يتصفون في واقع الحال بمظهر ما: بالجمال أو النعومة أو المنظر الشاعري، إن صح التعبير. وعلى سبيل المثال اشتهر المعيْدي بالبشاعة، مما جعل أحدهم يقول مقولتة المشهورة: أن تسمع بالمعيْدي خير من أن تراه. ولعل معظم القراء يتذكرون رواية "الشاعر" التي ترجمها من الفرنسية إلى العربية الأديب المصري مصطفى لطفي المنفلوطي في عام 1921 وهي من أعمال الروائي الفرنسي إدمون روستان وصدرت بالفرنسية تحت عنوان "سيرانو دي برجراك". الشاعر كان في هذه الرواية في غاية القبح فأنفه كان كالبرج الخ، ولكنه كان شاعراً موهوباً ورقيقاً وعاشقاً لم يستطع بسبب بشاعته أن يبوح بحبه لحبيبته، ولذا اختبأ خلف شاب وسيم وغبي وهكذا إلى نهاية القصة المحزنة، التي ربما تكون ترجمتها أفضل من النص الأصلي.

خالد النصرة كان من أهم شعراء جنين وربما فلسطين، ولد في جنين في عام 1927 وتوفي في البيرة في عام 2007. أصدر ثمانية دواوين من الشعر العمودي، أولها أغاني الفجر 1956 وآخرها فوق السحاب 1999 وعمل محرراً للصفحة الأدبية في صحيفة القدس وغيرها من الصحف الفلسطينية. خالد لم يكن وسيماً بالمفهوم الدارج، ولكنه كان مصنوعاً بدقة فائقة. كان عندما يتكلم عن الحب يرسم بكلماته وبتعابير وجهه ونظراته صورة إنسان غارق في الحب، ملوع من الشوق.. باختصار يمكن القول إن خالداً لم يكن شاعراً فحسب بل كان شخصه بحد ذاته شعراً. لنترك لخيال القاريء أن يرى صورة هذا الشاب الذي كان يتجول وحيداً ببذلته البيضاء في طرق البلد الجانبية، وربما كانت تدور في خَلَد خالد قصيدته هذه:

ما بالُكَ تنكرُني أبداً   وأنا في حبّكَ كالعَلَمِ
وانا بحنانِك متَّهمٌ   وبريءٌ من هذي التُّهَمِ
فامنحني العطفَ وخذْ بِيدي   يكفي ما ذقتُ من الألمِ
ما حبلُ لِقاكَ بِمُتَّصلٍ   أو حبلُ هواكَ بِمُنفصمِ
وفؤادي المضنى بين هوىً   طاغٍ وصلودٍ مقتَسِمِ
الوجدُ غزا نِصفاً منه   والنصفُ الآخرُ للسَّقَمِ

اليوم كان خالد برفقة سعيد وسليمان. سعيد السوقي ينتمي كخالد النصرة إلى عائلة تعيش في جنين منذ مئات السنين، جميع أجداده وأجداد أجداده المعروفين ولدوا هنا. لم يكن من الأغنياء، وكان أهله من متوسطي الملاكين. أحب الشعر منذ مطلع شبابه وعمل في تدريس اللغة العربية. وإذا كان خالد يميل إلى الحزن، فلم يكن سعيد يتوقف عن الضحك والمرح البريء. لم يكن يتعاطى الكحول – خلافاً لسليمان – لأنه لم يكن بحاجة إليه، فسعيد كان فرحاً دون كحول، ومتعته كانت في حبه للناس وصفاء عقله وعشقه للأدب. للأسف لم يحافظ أقارب سعيد على قصائده على الرغم من شهادة أكثر من جنيني على موهبته الشعرية غير العادية. كان سعيد (1923–1983) يميل للتدين وهذا المقطع من قصيدته في مديح الرسول يدل على أنه يستحق أن يسمى شاعراً:

ماذا تقولُ وتنطقُ الأفواهُ　　　في مدحِ من أثنى عليهِ اللهُ
وحياتُنا ووجودُنا ومَعادُنا　　　في خيبةٍ وضلالةٍ لولاهُ
لكنَّ قولاً في مديحِ محمدٍ　　　يعلو ويبدو سامياً معناهُ

كان سعيد من مريدي سليمان، لأنه كان يعتبره ظاهرة فريدة وملفتة، فهو كما كان يعتقد يختزن كل مؤهلات الشعر دون أن يستعملها. لم يكن سعيد يرى ذلك لأن سليمان كان قارئاً نهماً فحسب، بل لأنه كان معجباً بنثره والصور التي يستعملها، كما سمعه بالصدفة يرتجل بعض الأبيات.

كان ذلك في مركز مدينة جنين الذي كان يعج بالناس في نهاية عام 1948، خاصة بعد أن هاجرت جحافل من آلاف اللاجئين التي شردتهم إسرائيل أيضاً إلى جنين، غالبيتهم إلى المعسكر البريطاني السابق الذي تحول إلى مخيم. وبقليل من التبسيط ربما يستطيع المرء أن يقول إن عربة الشاويش، بائع الفلافل، أصبحت مركزاً للمدينة، لأن جمهور الفقراء المتزايد كان يتجمع حولها ليقتات على سندويش من الفلافل – إذا توفر ثمنه الذي كان يبلغ قرشا – عند هذا الشاويش السابق. كان الكثير من الناس يحضرون معهم رغيفهم من البيت ليوفروا ملاليم قليلة. ويروى أن سليمان طلب من أحد أولاد الحارة أن يحضر له رغيفا لهذا الغرض من البيت وقال له: " انتبه تماماً عندما تصل بيتنا ماذا ستقول. لا تقل: 'إعطوني رغيفاً.. لسليمان' لأنهم سيشبعونك ضرباً حين يسمعون المقطع الأول من الجملة وهو 'إعطوني رغيفاً' ولكي تنجو عليك أن تقول: 'أعطوني لسليمان.. رغيفاً.' "

في ذلك اليوم كان "الشعراء" الثلاثة، خالد وسعيد وسليمان، يقفون في طابور الجائعين الذين ينتظرون حصتهم من أطيب فلافل في العالم – كما كان يعتقد أهل جنين – وفي لحظة انتظار ارتجل سليمان:

فلافلْ فلافلْ طعامُ الفقيرْ   وأكلُ الضعاف ورِفْدُ الأجيرْ
فلافلْ فلافلْ به أَستجيرْ   إذا قلَّ مالي وغابَ الشعيرْ
ألست حمارْ؟

فرد عليه سعيد بشكل عفوي ومرح كعادته: "لا أنت لست حماراً بل ثوراً، فهذا يتناسب أكثر مع وزنك." كان سعيد يضحك بإخلاص وصدق ويملأ العالم ضحكاً، وكان خالد، الذي يميل إلى الجدية، يجد صعوبة في مجاراته، ولكن ضحك سعيد كان معدياً حتى لخالد. في تلك الأمسية وبعد أن استمع الشاعران لارتجالية الفلافل شجعا سليمان على قرض الشعر وأسهبا في امتداح قدراته الأدبية.

بعد يومين قرأ سليمان قصيدته الأولى لصديقيه خالد وسعيد. كان ثلاثتهم يجلسون تحت شجرة في مقهى أبي نهار الصيفي:

" الحظ "

ليلي إذا حدَّثتُه أغواني   بجلالِه وسكونِه الفتَّانِ
وإذا أَنا استلطفتُه ألفيتُه   صِنواً يُشَابِه لوعةَ الحِرمانِ
حظِّي من الدنيا كحَالِكِ جُنْحِهِ   والدهرُ راشَ سِهامَه ورَماني
حَتَّامَ أبذلُ قوَّتي وبَلاغتي   للدُّونِ من سَقَطٍ ومِنْ خَوَّانِ
وأصوغُ غالي الدرِّ في مَدْحي لهمْ   وأقولُ ما لا يرتضي وِجداني
لو كان حظِّي في الدُّنى كبَلاغتي   لملأتُ داريَ عَسجَداً بأَمانِ

لم يكن شديد التواضع كما دل على ذلك خاصة البيت الأخير، كما أن المرء يستشف بعض ملامح شخصيته، منها على سبيل المثال ميله للشكوى. استقبل الشاعران قصيدة "الحظ" بإعجاب واضح بسلاسة القصيدة، وانتقدا بعض مواطن الضعف. سليمان قال لهما: "الرحمة، الرحمة، إنها قصيدتي الأولى!"

سليمان، الشاعر المبتدئ، طار من الفرح واعتبر نفسه منذ قصيدته الأولى شاعراً فحلاً، وظن أنه يستطيع الآن أن يسرح بأفكاره إلى عالم الله والأدب وفي لحظة نشوة وبعد كأس من العرق قال لصديقيه: "لست متديناً – كما تعلمان – ولكني لا أجد أن القرآن قمة اللغة والأدب فحسب، بل وأيضاً فيما يتعلق بالمحتوى. بالمناسبة زميلنا الشاعر الألماني غوته – ضحك الرجال الثلاثة للمقارنة بين هذا الشاعر المعروف عالميا وشعراء جنين الثلاثة الذين لم يسمع أحد عنهم – من أشد الناس إعجابا بالقرآن." ومضى سليمان قائلا: "ولكن هناك جملة في القرآن لا تروق لي وهي: "والشعراء يتَّبعهم الغاوون". أنا لا أوافق على ذلك، لأنني أرى أن الشعراء يجسدون روح الشعب وربما عقله أيضاً. في لغتنا تأتي كلمة شاعر من الشعور بالشيء، فهو الذي يعبر بصدق وإبداع عن ذاته وهموم الناس ويمزج التعابير الرقيقة والدقيقة بموسيقى الشعر." لم يؤيد سعيد مقولة سليمان فقد أشار إلى أن سليمان أخرج ما ورد في القرآن عن الشعراء من المرحلة التاريخية التي نزلت فيها هذه الآية، فقد كان المقصود بها شعراء الجاهلية الذين كانوا يتغنون في أشعارهم بالأصنام والخمر ويتعاملون مع المرأة كسلعة قابلة للتكديس، ولذا جاء تحذير القرآن من السير خلف مثل هؤلاء الشعراء في محله تماماً. خالد ظل صامتاً ولم يعلق على الحوار بين سليمان وسعيد. لم يكن بحاجة إلى الإفصاح عما يختلج في صدره، فقد كانت شخصيته النقية أسمى من أن تذكر في سياق الغاوين الذين ورد ذكرهم.

سليمان بدأ منذ ذلك اليوم ينظر إلى العالم من زاوية جديدة؛ أصبح عندما يتأثر بأي حدث يحرص على كتابته في دفتر صغير كان يضعه دائماً في جيبه. بين الفينة والأخرى كان ينشر خواطره في الصحف اليومية وأحيانا كان يقرض الشعر. كان يتحرك في جنين وكأنه يضع دفتره كالمرآة أمام وجوه الناس ليتعرف على مشاكلهم وأحزانهم. لعله كان يصبو أن ينقل بصدق وبشكل مباشر ما يجول بخاطر أبناء بلده ووطنه. حاول ذلك قدر المستطاع، ولكنه لم يصبح من فحول الشعر في فلسطين، فقد كانت تنقصه المثابرة والاستمرارية والغوص في أعماق الأشياء.

ظلت القراءة والكتابة والشعر جزءاً أصيلاً من حياة سليمان خلال العقود القادمة، ولكنها للأسف لم تغير شيئاً فيما يتعلق بفرص عمله. لم يتحقق أمله في الحصول على مركز مرموق في المجتمع رغم أن مؤهلاته كانت تسمح له بذلك، ففي تلك المرحلة كان يعتبر تحصيله الدراسي لا بأس به، فقد كان الكثيرون يشغلون مناصب رفيعة بتحصيل دراسي أقل، ففي الثلاثينات كان عدد الأكاديميين الذين درسوا في استانبول والقاهرة والجامعة الأمريكية في بيروت شحيحاً للغاية.

مشكلته كانت تكمن في أن ضغط عائلته التي أصبحت تتكون من ستة أفراد بات قوياً، ولذا كان يريد العثور على العمل المناسب بأسرع وقت ممكن، خاصة وأن الديون بدأت تتراكم عند أبي مصطفى في حسبة جنين وعند دكان أبي حسن. لم يكن هذا الوضع يصلح لإجراء مفاوضات من موقع قوة مع أصحاب العمل. ولكن مصيبة المصائب، والأهم أنها كانت صفة مميزة في شخصية سليمان: لم يكن يقبل أن يتلقى أوامر من أحد، وكان إن آجلاً أو عاجلاً يوجه كلماته النارية إلى صدور الوسطاء أو الأشخاص المرشحين أن يصبحوا رؤساءه. وبعد أن كان "يطرحهم أرضاً" بالمعنى المجازي، كان يردد جملته الشهيرة: "ورجيته نجوم الظهر!"

في نهاية المطاف خسر سليمان كل معاركه مع هؤلاء الذين كان عليه أن ينتزع خبز أولاده منهم. لم يتعلم أن الصراع ضروري في حياة البشر، ولكنه فن يجب أن يعرف المرء كيف يبدأه ويديره ويختتمه بنجاح.

بعد وصوله لجنين بعدة أشهر قام بصياغة نظريته عن أسباب الفشل: "عندما جئت لجنين كانت الوظائف المهمة موزعة. الحظ تحالف ضدي. هذا قدري."

هنا لا بد من إثارة مشكلة مهمة بالنسبة لمستقبل سليمان. لم يكن يعي هذه المعضلة آنذاك، ومن الصعب أن يقال إنه كان سيغير تصرفاته لو كان يعي ذلك. كان كالسيارة التي فقدت فراملها وهي على قمة جبل، فمن الذي سيستطيع عندها توقيفها؟ ولكي تتضح أبعاد هذه المشكلة سنعرج على قصته مع "أبي فضل"، وهو من أغنى وأهم شخصيات آل عطوان في جنين، إذ كان يعتبر أيضاً من أهم الوسطاء فيما يتعلق بسوق العمل لشباب العائلة الكبيرة. سليمان طلب مساعدته مستعملاً الأساليب التقليدية: مصلحة العائلة تقتضي كذا و"الدم لا يصير ماءً" الخ، ولكن مساعي سليمان لم تثمر، على الرغم من أن أبا فضل استقبله بحفاوة مشيراً إلى أنه سيتحدث مع "حسني بك" وهو

عطواني آخر متنفذ، ولكنه لم يتحدث لا معه ولا مع غيره ولم تكن لديه أي رغبة حقيقية في دعم سليمان، لأنه كان يعتبره شخصاً فاشلاً ومفلّساً وذا لسان طويل. كان في نفس الوقت يخشى هذا النوع من الرجال لأنه كان يعلم أنه لديهم قوة تحريضية هائلة، ولذا كان يحاول تجنبهم قدر المستطاع. كان أبو فضل يعتقد أن سليمان لن يجلب سوى وجع الرأس للعطوانيين. وبالفعل أصبح معظمهم يعتبرونه حملاً عليهم وشخصاً متعباً وكبير "قحمة". هنا يستطيع المراقب أن يقول إن حلم سليمان في التربع على مقعد وظائفي وثير تبخر إلى الأبد. ولعله كان يسأل نفسه في هذا السياق: "هل أخطأت الوالدة في تفسير ذاك الحلم؟" لن نتوصل من مثل هذه الأسئلة إلى نتيجة، وما علينا أن نسجله الآن أن سليمان أصبح في وضع لا يسمح له أبداً بوضع أي شروط، فعليه أن يقبل بالقليل لأن أولاده والدائنين لا يتحملون الانتظار أكثر من ذلك. ناهيك عن صاحب الشقة في البلدة القديمة التي تتكون من ثلاث غرف فهو لا يكف عن ملاحقته في المقهى والحسبة وحتى في المنام. أحيانا كان يزهق منه ويقول له: "يا أخي، قلت لك ألف مرة، ارفع قضية ضدي في المحكمة!"

الموظف سليمان

أخيرا وتحت الضغوط الكثيرة قرر "الباشا" سليمان التنازل والعمل ككاتب في دائرة الأشغال العامة، ولكنه قبل ذلك لا بد أن يحاسب "أبا فضل" على إهماله وعدم احترامه له، وهنا يأتي الكلام عن المعضلة التي لم يكن يعيها آنذاك. كان أبو فضل يستقبل شخصيات البلد والقرى المجاورة في ديوان بيته حيث كان بإمكان خمسين شخصاً أن يجلسوا بارتياح. الخادم كان يقدم القهوه وقطعة صغيرة من الحلوى وكانت الأحاديث تدور حول المهم والتافه. مستوى الحديث يتأثر في مثل هذه اللقاءات إلى حد كبير بثقافة صاحب البيت. وللأسف كانت القضايا العامة وشؤون الثقافة لا تعني شيئاً بالنسبة له، ولهذا كانت الأحاديث لا تتجاوز في معظم الأحيان القيل والقال. لم يكن الضيوف بحاجة إلى دعوة للحضور إلى هذه الاجتماعات المفتوحة، ولكن في الأحوال العادية لا يأتي إليها سوى الميسورين أو الذين يودون التقرب منهم. في هذه المرة جاء سليمان بصدره العريض متعمداً أن يدفعه من قبيل

التفاخر والاعتزاز إلى الأمام. لم يكن منظره يبشر بالخير، وعندما رآه أبو فضل قال لنفسه: "له ...له ..الله يستر، الرجل ليس ناوياً على الخير!" كان على حق، فبعد دقائق قليله رفع سليمان صوته: "أود أن أتحدث معك بصراحة، يا أبا فضل.." بكل هدوء رد عليه المضيف: "ولا يهمك، يا ابن العم، أعرف ما يشغلك وبحق، وأقترح أن نواصل حديثنا غداً، أنا وأنت في جلسة خاصة.."، سليمان: "لا، لأنني أود أن يعرف الحاضرون أنك وغد، فهم يريدون أن يعرفوا حقيقة أمرك.." أبو فاضل: "انتبه، يا سليمان.." لم ينتبه سليمان، فقد أضاف بتحد ونظرات ثاقبة: "نحن نعتبرك أو بالأحرى كنا نعتبرك قائدنا في جنين، ولكن شخصاً تافهاً وكذاباً مثلك لا يستطيع أن يقود آل عطوان في هذه المدينة الفاضلة. صفات القيادة لا تتوفر فيك أبداً، فأنت لا تتصف بالحكمة والكرم والوطنية. نحن العطوانيين نفخر بتاريخنا.." هنا تدخل بعض الرجال الكبار في السن: "سليمان لا يجوز لك أن تتحدث مع عمك هكذا." وعندما لاحظ سليمان أنه لا يستطيع أن يستمر في إلقاء خطابه حمل كأس ماء ورشق محتواه بقوة في وجه أبي فضل، وغادر المكان قبل أن يخرجه الموجودون من الديوان عنوة. هذا الحادث يعبر خير تعبير عن أن سليمان كان يحطم نفسه بيده، لأنه لم يكن يعرف أن يضع لنفسه حداً. وبغض النظر عن أن أبا فضل ربما يكون أخطأ في حقه ولكن تصرف سليمان على هذا النحو يجعل منه شخصاً صعب المراس، وهذا أقل ما يمكن أن يقال في هذا السياق. من الذي يود أن يشغّل مثل هذا الإنسان البركان الذي لا يمكن التنبؤ بطبيعة تصرفاته؟

غادر الديوان مزهواً مرفوع الرأس، وفي البيت قال لعطاف وهو يرشف قهوته: "ورجيته نجوم الظهر!" حدثها القصة من أولها إلى آخرها وكان جسدها يرتعش من رأسها إلى أخمص قدميها وهي تقول لنفسها: هذا الرجل يتصرف كجنرال وليس في كتيبته جندي واحد. إنها تفضل الألحان الناعمة، فهي تعلم أن الذي يتحمل مسؤولية أربعة أطفال يجب أن يصمت أحيانا ويبتلع المر. لم تقل له طبعاً ما كان يدور في خلدها، فهي تعرف تماماً كيف سيكون رد فعله: سينفجر من الغضب ويحطم بعض الصحون ويتهمها بالجبن والانهزامية. بعد أن فرّغ سليمان ما لديه ترك البيت، وانسحب إلى المقهى ليعود إلى البيت كالعادة في وقت متأخر من الليل.

في اليوم التالي استيقظت عطاف مع الفجر لتعد لسليمان فطوره وسلة من المواد الغذائية بالإضافة إلى شنطة تحتوي على الملابس التي سيحتاجها في عمله الجديد الذي سيبدأ بمزاولته اليوم. لأول وآخر مرة سيعمل سليمان مقابل أجر في مؤسسة حكومية وهي دائرة الأشغال العامة. كان يشعر بكثير من

الانزعاج لأنه أصبح أجيراً وموظفاً صغيراً، وأنه لا بد أن يتعود على حياة لا تخلو من المواظبة والانضباط. على الباب وعندما ودعته عطاف قالت له بصوت منخفض إنها حبلى، فهز رأسه وكأنها قالت له : اليوم يوم الأربعاء.

كان سليمان سارحاً في عالمه الجديد: لأول مرة سيتلقى، وهو ابن آل عطوان، أوامر من المهندسين، كما أنه يتوجب عليه أن يعيش في وسط عمالي بعيداً عن المدينة ومقاهيها وأصدقائه. كانت الورشة في منطقة معزولة بين قريتي عرابة ويعبد حيث كانت الدائرة تشق شارعاً جديداً، وفيها كانت مجموعة تتكون من عمال بناء بالإضافة إلى سليمان الذي كان مكلفاً بشؤون المحاسبة والكتابة، ولذا كان الوحيد الذي ينام ويعمل في خيمة وحده، بينما كان الآخرون يسكنون معاً في أكثر من خيمة. وعلى الرغم من أن سليمان كان من ناحية السكن أفضل من غيره في الورشة إلا أنه كان لا يرتاح على سريره الحديدي وفي هذا الحر، ناهيك عن هجمات الناموس.

كان يجد صعوبة كبيرة في التعامل مع المهندسين، فهو من ناحيه كان يشعر أنه ينتمي إلى نفس الطبقة، ولكنه كان في ذات الوقت يتلقى أوامره منهم. كما أنهم كانوا يأتون للورشة بسيارات فاخرة وينامون في بيوتهم ويرتدون ملابس لا تخلو من الأناقة والنظافة. وعلى صعيد آخر كان يشعر أن أميالاً تفصله عن العمال، إذ كان معظمهم ريفيين وأميين، ولكنه كان يعرف حق المعرفة أن كل شيء في هذه الورشة وفي معظم ورشات هذا العالم سيتوقف إذا أراد العمال ذلك. إنهم أقوياء، ولكنهم لا يعرفون ذلك، كما كان يعتقد. باختصار يمكن القول إن سليمان انسلخ مع بداية عمله هنا جزئياً عن طبقته، فهو يشعر بأنه نزل أكثر من درجة على السلم الاجتماعي. كان يهز رأسه عندما تأتيه هذه الأفكار ويردد بينه وبين نفسه: هذا حظي من الدنيا.

سليمان كان غريباً في هذا الجو الجديد: هو يعتقد أنه ينتمي إلى معشر المهندسين، ولكن هؤلاء يعتبرونه كاتباً صغيراً وعليه أن يعمل ما يكلفونه به. من هنا تأتي رغبته التي تعززت فيما بعد في أن يصبح أحد أبنائه مهندساً، وهذا ما حدث حقاً، ولكنه للأسف لم يعش تلك اللحظة فقد تخرج صائب مهندساً بعد وفاته بخمس سنوات. العمال كانوا ينظرون إليه خاصة في البداية بحذر لأنه أحد أبناء حمولة عريقة بالإضافة إلى أنه كان يبدو كأنه أحسن منهم.

كان دخله متواضعاً ولم يكن هناك أي مجال في هذه العزلة لأن يصرف منه شيئاً يذكر. لم يكن العمال- خلافاً لسليمان – يشعرون أن أي شيء تغير عليهم، فهم في بيوتهم وهنا يعيشون على المونة: زيت الزيتون، الزيتون، الزعتر والعدس الخ، ففي القرية قلما كانوا يأكلون لحماً طازجاً. في

أحسن الأحوال كان يُذبح مرتين أو ثلاثاً خروف في العام فتتقاسمه العائلة مع الجيران والأقارب. وكما نعلم، سليمان ترعرع في مطابخ عكا وحيفا وتعود على أحسن أنواع الطعام.

وفي ذات يوم استطاع سائقو سيارات الشحن تدبير كمية لا بأس بها من لحم الضأن والبطاطا والباذنجان والكوسا والبندورة أي كل لوازم "صينية البطاطا بالفرن". لقد تفرغ عامل ماهر عدة ساعات لإعداد هذه الأكلة المشهية. وبعد أن قام بهذه المهمة على أحسن وجه تجمع العمال وسليمان حول صينية البطاطا التي أنعشت رائحتها كل حواس المجموعة. وقبل أن يبدأوا بالأكل سألهم سليمان: "أين الفليفلة الخضراء؟" فرد عليه أحد سائقي سيارات الشحن بوجل: "لم نستطع الحصول على فليفلة خضراء!". بسرعة البرق حمل سليمان الصينية وألقاها بما فيها فوق تراب الأرض واختلطت اللحوم والبطاطا والخضار بالتراب والحصى. وصاح سليمان بأعلى صوته: "صينية بطاطا بدون فليفلة خضراء.. يا أولاد الحرام.. أين صار هذا؟" لا يستطيع أحد أن يتخيل غضب عمال الورشة الجائعين، ولولا تدخل عقلائهم لكسّروا عظام سليمان. لا يختلف أحد على أن الفليفلة الحارة ضرورية فعلا لهذه الوجبة، ولكنه هنا لم يكن في بيت أمه أو مطعم، وإنما في ورشة بين يعبد وعرابة حيث لم تتوفر الفليفلة.

أصبح العمال بعد أن مرت أسابيع على هذه الحادثة المبكية- المضحكة يضحكون عندما يتذكرون جنون سليمان المؤقت، فقد أصبحوا يحبونه ويستلطفون "طلعاته" ويعجبون بقدرته على مواجهة المهندسين. ومن ناحيته تعرف هو أكثر على هؤلاء الشباب الصلبين وظروف حياتهم القاسية، فمنهم من كان ينحدر من الفلاحين غير الملاك ومنهم من كانت عائلته تمتلك قطعة أرض صغيرة لا يكفي محصولها لإرضاء الحاجات الضرورية لجميع أفراد العائلة. كانوا يعملون ليطعموا إخوتهم الصغار، وكان سليمان يعمل ليطعم صغاره. هل هناك قرب أكثر من قربه من هؤلاء الشبيبة، وماذا يعني له انتسابه إلى آل عطوان؟

ربما حان الأوان هنا أن يتم تناول نظرة سليمان للجمال، فقد كان يهوى بتطرف – كمعظم أفراد عائلته – الوجوه والأجساد الجميلة سواء في الأطفال أو النساء أو الرجال. كان من النوع الذي يقال عنه إنه "يستحلي". لم يكن يصبو في هذا السياق إلى أي شئ آخر غير حبه للجمال. لا نستطيع أن نقول إنه كان لا يستلطف غير الجميلات والجميلين، ولكنهم كانوا يبعثون دون أن يبذلوا جهودا إضافية البهجة في قلبة شريطة أن يكون جمالهم طبيعياً وخفيف الظل فهو يمقت التكلف كالعمى. هنا

في هذه الورشة كان سليمان يهوى محموداً، وهو أحد شباب يعبد وعمره على حافة العشرين، طويل القامة، يعمل وهو عاري الصدر. سليمان كان يتمتع برؤية هذا الجسد الذي تأنى الله في صناعته، كان يراقب حركة عضلاته وجسده الرشيق وهو يتنقل كالقط من موقع إلى آخر. محمود لم يكن يعلم أن الله منحه كل هذا الجمال، ولكن سليمان كان يعرف ذلك جيداً، ولعل وجود محمود في هذه الورشة خفف من وطأة العزلة التي كان سليمان يعاني منها.

بيد أن هذه العزلة لن تستمر مدة طويلة، ففي وسط الأسبوع جاء للورشة في وقت غير متوقع المهندس حمادة. كان في تلك اللحظة سليمان يتحدث بعفوية مع محمود وفي يده كأس عرق. المهندس عبر عن استيائه الشديد لأن سليمان يشرب كحولا.. وأثناء الدوام، مما يصرف الآخرين عن العمل. سار المهندس حمادة بسرعة باتجاه سليمان وصاح به: "من أنت حتى تتصرف على هذا النحو، وهل تعتقد أنك تستطيع أن تعمل كل ما يحلو لك لأنك من آل عطوان، أيها الفيل الكسول؟" سليمان لم يكلف نفسه عناء الرد على هذا الهجوم وبدلاً من أن يتعب رأسه بالبحث عن الكلمات المناسبه عالج أنف حمادة بثلاثة رؤوس، وأضاف إليها ثلاث صفعات وأصبح وجه المهندس كتلة من الدم.
بعد ساعات قليلة من هذه المواجهة عاد سليمان – مفصولاً من العمل – إلى بيته ليقص القصة من أولها لآخرها على زوجته مؤكدا على قوله: "ورجيته نجوم الظهر!" لم تستطع عطاف هذه المرة التحكم بدموعها، ودون أن تلتفت إلى سليمان أخذت تنتحب وتتكلم مع نفسها وتردد بصوت منخفض، متقطع ويقطِّع القلب: "يا أولادي .. يا حبايبي.. يا أولادي.. يا حبايبي." سليمان لم يلحظ دموع وآلام زوجته وانصرف بسرعة إلى المقهى ليحدث أصدقاءه مقهقهاً على طاولة الورق كيف أرغم المهندس حمادة على مشاهدة "نجوم الظهر".

بعد مرور عدة أشهر وبعيد اندلاع الحرب العالمية الثانية (1939) ولدت عطاف ابنها حسن. سليمان لم يعبر عن ترحيبه بالمولود الجديد أو عن انزعاجه من قدومه، فقد كان سكران؛ وفي وضع مشابه سيستقبل أطفاله الخمسة الآخرين: إنهم مخلوقات القدر وليس أمام المرء سوى أن يتقبلهم، والله جل جلاله خلقهم ومعهم سيأتي رزقهم. هكذا كان يعتقد سليمان، ولكن أولاده يقولون إن رزقهم لم يأت معهم، فقد مرّوا بفترات عصيبة.

هاني، الطفل السادس، يحدِّث إخوته وأخواته بعد عشرات السنين من ميلاد حسن، يحدثهم وهم جميعاً يعيشون بأحسن حال وأهدأ بال: "أحيانا كانت تمر ليال وأيام دون أن تأكل شيئاً. كنت تذهب جائعاً إلى المدرسة. تعود إلى البيت فلا تجد حتى بصلة تأكلها. كنت تذهب وتعود وتظل جائعاً، ولا تفكر أبداً بغير الأكل." أخذ هاني يضرب يده فوق رأسه بقوة ويقول: "الله أكبر، نحن أطفال صغار.. ثلاثة عشر عاما.." اختنقت الكلمات بين دموعه. الغريب أنه يبكي الآن، فهو لم يكن يبكي أيام الجوع تلك، ربما لأنه كان بحاجة إلى الطاقة لمواجهة الجوع. أخواته وإخوانه أخذوا يواسونه الآن: "لا يوجد اليوم أي مبرر للبكاء. أنظر، فقد أصبح أولادك الثلاثة أكاديميين." ولكن هاني مضى قائلا: "حسن وأنا أصبنا بالسل من سوء التغذية ونحن في مطلع شبابنا. كنت أبصق دما.. وفي ذات مرة أرسلتني أمي من شدة يأسها لأشحد خبزاً من الجيران. أيضاً الطفل له كرامته. ما زلت أشعر أنني مهان وأن كل عزنا اليوم لا يمسح عني مذلة الماضي. إنها جراح عميقة نخرت عظام طفل ولم نسمع عن علاج لذلك." عاد هاني بعد موجة الحزن هذه إلى صوابه. كان الأخوات والإخوة يحاولون تخفيف وقع الماضي على بعضهم البعض وكانت هذه القعدات تشد من أزر وروابط الأخوة والعائلة، على الرغم من شعورهم أنهم ينتمون إلى أجيال مختلفة، فبعضهم تمرغ في وحل فقر بيت سليمان لأنه ولد مبكراً والبعض الآخر، الأصغر سناً، عاش تحت ظروف أفضل. أمهم كانت كلمة السر التي تجمعهم. كان فرق العمر بين نجلاء أكبرهم سناً ووضاح نهاية العنقود ثلاثين عاما. سيأتي الحديث عن هذا الأمر مرة أخرى.

لنعد مرة أخرى إلى سليمان العاطل عن العمل، الذي اضطر إلى أن ينتقل من شقة الثلاث غرف في الحي القديم إلى غرفة واحدة (العقد) في نهاية زقاق في الحارة الشرقية. صحيح أن مساحة هذه الغرفة - التي كانت جزءاً من مجموعة مما يشبه البنايات التي يزيد عمرها على المئة عام- كانت تزيد عن السبعين متراً مربعاً، إلا أنها كانت غرفة واحدة لسبعة أشخاص. هذا السكن كان يجسد انحداراً طبقياً قوياً، ولكن سليمان كان أقوى من أن يشعر بالنقص لتردي أحواله المعيشية التي كان يعزوها إلى الحظ أو إلى تقصير ذوي القربى أو الحسد الخ. بل على العكس كان يفخر لأنه لا يخجل من الفقر. ولم ير في يوم واحد من حياته أنه كان عليه أن يطور قدراته المهنية أو أن يغير من نمط حياته من أجل الحصول على عمل آخر. كان الحق دائماً على الآخرين، هكذا تربى، ولا شك أن أمه ساهمت بجدارة في صقل نظرته هذه.

عطاف كانت تتحمل بصبر وتقول: لا حول ولا قوة إلا بالله، عندما أصبحت تطبخ وتغسل على عتبة الغرفة أي في الهواء الطلق. الأولاد اعتبروا أن الانتقال إلى العقد خطوة إلى الأمام ففيه كانوا يلعبون كرة القدم ويجمعون تجارب جديدة في مواجهة الأفاعي. من ناحية أخرى كانت مقارعة عشرات من أولاد الجيران تزيدهم صلابة ورغبة في العشرة والحياة.
عطاف بدأت تفهم في ملعب الكرة أنها تزوجت طفلاً كبيراً، هذا الرجل الطفل الفاشل كم كانت تهابه وتحبه في ذات الوقت، وفي بعض الأحيان كانت لا ترى أنه كسول وغير منضبط وميال للهو واللعب فقط، بل قليل الحظ ومنحوس أيضاً. ما من شك في أن عطفها عليه وتعاطفها معه كان يعود أيضاً إلى أنه كان يصبح إنساناً رقيقاً للغاية حين يشرب كأساً من العرق. كانت تكرة رائحة هذا المشروب المحرم، ولكنها كانت تحب في كثير من الأحيان ما ينتج عن مفعوله، خاصة عندما كان يدللها ويلاعبها سليمان بأجمل التعابير، فمرة كانت تكون عندليبته وأخرى غزالته. ولكن للأسف في هذا الملعب الذي يعج باللاعبين لم يكن المجال واسعا لمزاولة ضروب الحب التي كان يجيدها سليمان.

سليمان خسر مع ضياع الشقة الواسعة في الحي القديم ملعبه، فقد كانت الشقة مكونة من مستويين؛ في المستوى السفلي كانت غرفتان ومطبخ وحمام وفي الطابق العلوي كانت غرفة سليمان حيث كان يستقبل أصدقاء البوكر الذين كانوا يلعبون مرة كل أسبوعين حتى ساعات الفجر. سليمان يعترف أيضاً أنه لم يكن فيما يتعلق بالميْسر من المحظوظين، فقد كان – لسوء طالع عائلته – يخسر في معظم الأحيان، ولكنه كان يتمتع بتلك الساعات التي كان يشعر فيها أنه إنسان مغامر وحر يعمل ما يحلو له. في بعض الأحيان كان حسن وهاني يقلبان أثاث "غرفة البوكر" رأسا على عقب عندما كان سليمان يغادرها. كانا يبحثان عن قروش تتساقط هنا وهناك، وكانا يجدان أحيانا مبالغ لا بأس بها، وكانا يقرران ألا يخبرا أحداً بذلك، ولكنهما كانا لا يستطيعان في معظم الأحيان الاحتفاظ بالسر.

لا يمكن الاستهانة بقدرة عطاف على التحمل، فقد كانت هموم السكن الجديد كثيرة، ولكنها كانت تتألم بصورة خاصة لأنها ابتعدت الآن عن جارتها في البلدة القديمة، وظلت حتى بعد مرور أكثر من 35 عاما على انتقالها تقول "سأذهب لزيارة جارتي أم فؤاد". أم فؤاد جاءت مع زوجها في منتصف الثلاثينات من قرية سيلة الظهر إلى جنين، وخلافا لسليمان تعلّم هذا الرجل الفاضل مهنة تصليح

السيارات ومع الوقت أصبح صاحب كراج. كانت عائلته تعيش بألف خير، ولم يعان أولاده يوماً واحداً من الجوع والفقر. زوجته كانت في منتهى الطيبة، وكانت تستمع إلى هموم عطاف وتشاركها البكاء وتحتفظ بأسرارها حتى يوم القيامة. كانت سيدة فاضلة وصادقة كزوجها وظل أولادها وأولاد عطاف خلال الستين سنة القادمة يتبادلون الود والاحترام.

بعد كارثة عام 1948 زادت الكثافة السكانية في زقاق "العقد" فقد انتقلت اليه عدة عائلات من اللاجئين الذين شردتهم إسرائيل. كانت الطريق عبر الزقاق غير صالحة لسير السيارات التي لم تتوفر على أي حال آنذاك لأي من الساكنين. صحيح أن أجرة سكن عائلة سليمان الجديد كانت حوالي ربع أجرة السكن القديم، ولكن ومهما بلغ مستواها لا بد من تسديدها أيضاً. لم يتوقف الصراع على القليل من تكاليف السكن وما يلزم من المواد الغذائية والحاجات الضرورية مثل كاز المصباح الذي أصبح يحتاجه عطا وحسن للدراسة في البيت. وهكذا كان لا بد أن يحدث شئ ما.

سليمان يقرر أن يعمل كاتب عروض حال

لم يكن سليمان بحاجة من أجل مزاولة مهنته الجديدة سوى لطاولة وكرسيين ومحبرة وكدسة من الورق. كان يفتتح "مكتبه" في الهواء الطلق كل صباح على رصيف الشارع أمام بناية المحكمة والجامع الكبير بالقرب من دوار جنين، وفي منتصف الخمسينات انتقلت المحكمة ومعها سليمان إلى السرايا القديمة التي بناها الإنجليز في العشرينات. في نهاية الأربعينات كانت نسبة الأميين، خاصة في الأرياف مرتفعة جداً، وكانت مهمة سليمان تتلخص ككاتب في أن يعرض حالهم في استدعاء أمام الحاكم وغيره من الموظفين. كان كتّاب عروض الحال، وعددهم آنذاك لم يزد في جنين عن الأربعة، يكتبون كل طلباتهم بأيديهم وبقلم حبر سائل، ولعل سليمان كان يكتب أفخمها، فقد كان خطه الرقعة جميلاً وواضحاً، كما أنه كان لا يجد أي صعوبة في أن يعبر عما يود أن يقوله.
سليمان كان يعتبر نفسه في مكان عمل لا يتناسب مع قدراته، ولكن عائلته التي انضم اليها هاني، طفله السادس، لم تترك له مجالاً آخر. كان يتوقع أن هاني سيجلب له الخير والحظ بعد أن خاب أمله في أولاده الآخرين، ولذا شعر ببعض الارتياح بعيد ولادته، ولكن للأسف تأكد خلال السنوات القادمة أن الأوضاع ازدادت سوءاً وأن الآمال التي علقها سليمان على صغيره الجديد ذهبت سدى.

على الرغم من العمل الجديد الذي يقوم به كان يبدو للعائلة وكأنه عاطل عن العمل، لأن مقياسها كان الدخل، أو بالأحرى المواد الغذائية الضرورية التي كان ينتظرها كل أفراد العائلة بفارغ الصبر: الطحين، الحليب، والعدس والرز.. لا يتجرأ أحد على الحديث ببساطة عن اللحم والخضروات والفواكه. جميع هذه المواد قلما كانت تتوفر في بيت عطاف.

علينا هنا أن نتوقف قليلاً عند مهمة سليمان الجديدة التي كانت تحتاج أيضاً إلى جسارة في مواجهة المسؤولين والدفاع عن حقوق الأشخاص الذين كان سليمان يعتبر نفسه محاميهم. لم يكن سليمان يتمسْكن في عروضه أمام المحاكم، فقد كان يتصدى بجرأة وبتحدٍّ إلى جانب موكليه على الرغم من أن مشاعره كانت مختلطة إزاءهم: كان يحترم الفلاحين، فهو بالأصل ابن قرية ويعرف الجهود التي يبذلها الفلاح لينتزع غلته من تحت الأرض الصلبة، ومن ناحية أخرى كان يزعجه فيهم أنهم يبيعون محصولاتهم الزراعية بأرخص الأسعار للتجار الكبار، وبدلاً من قيامهم بتنظيم أنفسهم في تعاونيات للحصول على سعر أفضل لزيتونهم وقمحهم وخضارهم، كانوا يفاصلون على كل قرش حين يتعلق الأمر بأتعاب سليمان وجهوده من أجل تحصيل حقهم وانتزاعه من فم الأسد. كان الفلاحون لا يقدّرون عمله الذي كان يبدو بالمقارنة مع كدّهم في الأرض كاللعب و"الخربشة" على الورق الأبيض، ولذا كانوا يعرضون عليه أجراً بخساً للغاية، وكان سليمان — خلافا للفلاحين – يكره المفاصلة كرهَه للعمى، وفي كثير من الأحيان عندما كان أحد موكلية يقول له: "لم تحتج أكثر من خمس دقائق لكتابة بعض الكلمات. هل تريد حقا أن أدفع لك شيئاً مقابل ذلك؟" عندها كان دم سليمان يغلي من القهر، وكان يرد كلاعب البوكر الذي يضع كل ما تبقى لديه من مال على الطاولة، فإما الإفلاس الكامل أو الربح الذي يستحق. كان يغامر رغم علمه أن خبز أولاده في هذه الظهيرة يتعلق بقدرته على المفاوضة: "اسمع، يا أبو محمد، أجري يعتمد على حجم المبلغ الذي نطالب به، فلو ذهبت للمحامي عبد الجبار لخرجت من مكتبه عارياً، فسيطلب منك خمسة أضعاف، أيها الأحمق. عقلك أصغر من عقل العصفور، وحمارك أفهم منك." وهكذا يستمر الصراع بين الرجلين الذي قد ينتهي بالشتائم وانصراف الفلاح ، ولكن سليمان لا يكف عندئذ عن مراقبته من بعيد، فالجولة لم تنته هنا، فقد يعود الرجل عندما يتخيل مكتب عبد الجبار الفخم وبذلته الأنيقة وما سيطلبه مقابل أتعابه. سليمان يود طبعاً أن يعود الرجل، فهو ليس متأكداً إن كان ثقَّل العيار أكثر من اللازم، أم لا. في

كثير من الأحيان كان الموكلون لا يعودون، وكانوا لا يذهبون إلى المحامي وإنما إلى كاتب عروض حال آخر كان ربما يرضى بنصف المبلغ الذي طلبه سليمان.

الفلاحون كانوا يعرفون صلابة سليمان وقوة شخصيته وقدرته على مقارعة البيروقراطيين، ولكنهم كانوا يعتقدون أن مثل هذا الشخص السمين يحتاج أيضاً إلى دخل عال ومصاريف كثيرة، خاصة وأنه من أبناء عائلة مرموقة. سليمان لم يكن يبالغ حين كان يطلب أحياناً_ خمسة دنانير، أو أكثر مقابل استعادة قطعة أرض قيمتها تزيد على العشرين ألف دينار، فقد كان على استعداد أن يخوض حرباً_ على أكثر من جبهة من أجل الفوز بالقضية، إذ كان لا يهاب الموظفين الكبار وكان في قرارة نفسه يحتقرهم ويواجههم بشراسة. وكان يربح قضايا ذات قيمة وميؤوساً منها. كان الجميع في القرى المجاورة يطّلعون على هذه الانتصارات وعلى الهزائم أيضاً التي كانت تلحق به لنفس الأسباب، فقد كان يقصف أحيانا العصافير بالمدافع.. نعم، كان يسرف في هجوميته، لأنه كان يصاب بنوبات جنون مؤقته تنجم — كما كان يعتقد – عن قصر نظر الموظفين وغباء المحامين والفلاحين، وعن ضيق حاله. باختصار يمكن القول إن دخل سليمان اليومي كان أقرب إلى اليانصيب من أي شيء آخر. لا داعي للتذكير بأن حالة الناس المادية بصورة عامة بعد عام 1948 كان يرثى لها، فمن كان يجد أكثر من قروش قليلة في جيبه، إن وجدت!

كان من مهام الأولاد، في السنوات الأولى عطا ثم حسن وأخيراً هاني، أن يذهبوا ظهراً لوالدهم أمام المحكمة ليعطيهم ما ملكت يداه في ذلك اليوم. ومن هذا المبلغ يتقرر كل يوم ماذا أو فيما إذا كانت ستأكل العائلة. مع مرور الزمن تخصص هاني، أصغر الأولاد بهذه المهمة البائسة، فمنذ انتقال المحكمة إلى السرايا في الحارة الغربية على أطراف البلدة أصبحت المسافة من البيت حتى المحكمة حوالي الكيلومتر. هذا يعني أن المشوار في اتجاه الوالد خاصة في أيام الصيف كان من المهام غير المرغوبة بين الأخوة، بالإضافة إلى أن الوالد لم يكن يستقبل ولده دائماً بحفاوة.

هاني تعود على القيام بوظيفته الجديدة بأريحية أثناء استراحة الظهر المدرسية. كان هذا الولد، الذي يميل إلى البياض، خفيف الظل والحركة، ولم يكن بحاجة عندما كان يقترب من طاولة أبيه إلى أن يتكلم، فقد كان الوالد وابنه يعرفان سبب قدومه. كان شكل هاني وتعبير وجهه يتكلم بما فيه الكفاية: أريد قروشاً لأشتري طحيناً وما يلزم العائلة من مواد غذائية. لقد تعلم من خلال تجاربه أن يترك مسافة بينه وبين أبيه الذي كان يستقبله أحيانا بجلافة ومسبّات ويرمي عليه أشياء إذا لم يفتحها الله في وجهه

في ذلك اليوم. سليمان كان يعرف طبعاً أنه لا ذنب لابنه، ولكن وجوده كان يذكر الأب بفشله وقلة حيلته. الأب كان يخرج غيظه وقهره في وجه هاني، وكان هاني – كما قال بعد عشرين عاما – يتفهم تصرف والده ولم يشعر في يوم من الأيام بأي نقمة عليه. يبدو أن هناك ميثاق شرف خاصاً بين الفقراء مفاده: أنت إنسان عزيز على قلبي وإذا كرهت شيئاً فسأكره ظرفك الصعب وليس شخصك. لم يسمع الأخوات والإخوة هاني مرة واحدة يوجه أي انتقاد لوالده. ظل يحب والده حتى مماته من كل قلبه.

اليوم كان يوماً سعيداً. من بعيد استشف هاني أن الحظ حالف والده، فقد كان يلاحظ من طريقة والده في الجلوس ومن الثنية في رقبته – كما أوضح ذات مرة – ما إذا كان الله قد جاد عليه في هذا النهار أم لا. لم يكن أحد في هذا العالم يستطيع تأويل هذه الثنية في رقبة سليمان غير هاني. لم يترك هذه المرّة مسافة بينه وبين أبيه الذي أخذه بالأحضان وقال له: "أنت سيء الطالع مثلي، ولكنني الآن في غاية السعادة"، وأخرج من جيبه ثلاثة دنانير. أعطاه ديناراً وقال: "اذهب إلى الحسبة واشترِ كذا، ولا تنس العنب، فلم نأكله في هذا العام ثم اشتر.." وقبل أن يغادر هاني المكان أضاف سليمان: "سأشتري لك حذاءً جديداً فالثقوب في حذائك أكبر من جلده ثم اشتر، يا ولدي علكة لك، ولا تتأخر على أمك وإخوانك، فهم بانتظارك." أسرع هاني الخطى وكاد يجري ويقفز من الفرح، وسليمان ظل يردد: هذا الولد منحوس مثلي.

كان هاني هنياً في البيت، ولطيف المعشر ومحبوباً من كل الذين يعرفونه ربما باستثناء بعض الأساتذه، لأنه كان تلميذاً سيئاً، على الرغم من أنه كان يتمتع بقسط لا بأس به من الذكاء. هل يعود ذلك إلى الجوع الذي كان يهد حيله أم إلى مرحه الزائد؟ كان يستطيع أن يحول صفه خلال ثوان إلى مسرحية فكاهيه، كلامه كثير خاصة في حصة الرياضيات, وإذا صمت عن الكلام تسمعه يقلد صوت النرجيلة والعصافير. علاماته في الصف كانت منخفضة للغاية، وربما إعجاب زملائه به كان يكفيه، كان يفضله على النجاح. لم يكن من النوع الذي يندم على ما حدث في الماضي، ولكنه دفع فيما بعد الثمن غالياً، لأنه مهنياً واجه صعوبات جمة.

على أي حال ما يهمنا الآن أن هاني عاد محملاً بالخضروات والفواكه والطحين للبيت الذي دبّت فيه الحياة: عطاف بدأت تعجن، وحسن سيذهب بالعجين للفرن، وبعد ذلك ستجتمع العائلة حول المقالي: البطاطا والبندورة والباذنجان والعجة. عطاف كانت آخر من يأكل، فهي تتأكد أولاً أن كل

شئ على ما يرام، ثم تراقب وجوه أطفالها وهم يأكلون وتتمتع بهذا المنظر الرائع، بهذه الوجوه التي تهواها والتي تضحك للرغيف السخن.

لنعد إلى سليمان المحظوظ في هذا اليوم، وبعد أن تركه هاني قرر الذهاب بسرعة إلى المقهى وحمل عدة "مكتبه" إلى المخزن الذي ناضل للحصول عليه في السرايا. في الطريق ترك العنان لأفكاره: إنه لم يُخلق لهذا النوع من الحياة، فهو يظل ساعات في هذا الحر، أحياناً دون ظل، مقابل قروش قليلة. ثم أخذ يشتم حظه: لماذا قتل والدي بالذات؟ ولماذا فارق الحياة في وقت مبكر؟ لو لم نكن نعلم أن والده قتل منذ حوالي الثلاثين عاما لظننا أنه مات في الأمس! هكذا كان سليمان عندما يتعلق الأمر بحسرته لأنه لم يعد يتمتع بالراحة والمال.

أخيرا وصل المقهى وبسرعة جاءه صاحبها أنور ليسأله بأسلوب لا يخلو من اليأس: "هل جئت لتسدد ديونك؟" ثم تفاجأ عندما سمع جواب سليمان: "نعم، ولكن المرء يحيي الضيف قبل أن يطرح عليه مثل هذه الأسئلة، ولكنك لم تتعلم الأدب في الأزقة التي ترعرعت فيها، أيها الدابة، خذ." سليمان سدد ديونه وأعطاه قرشين بخشيشاً. أنور وضع القروش في جيبه وعلق ضاحكاً: "الله يسترنا من لسان سليمان، خاصة عندما يكون جيبه ليس فارغاً." وأضاف: "أصحابك ينتظرونك على الطاولة، خذ بالك منهم، فهم يريدون أن يخلصوك من فلوسك التي حصلت عليها بعد جهد جهيد."

سليمان لم يكترث كثيراً بما قاله أنور لأنه كان يعتبره مملاً، ولأنه كان يعتقد أنه يرى العالم من خرم باب المقهى فقط. وبكثير من التحدي والبهجة نظر سليمان إلى مجموعة اللعب. سالم رحب به: "تفضل سليمان. اجلس هنا في الصدر، فنحن نراك تلقي الفلوس شمالاً ويميناً. ماذا تود أن تلعب: هاند، ليخة أم شيكيت؟" سليمان بحماس: "شيكيت". هذه اللعبة تسمح بالربح أو الخسارة بسرعة، واليوم يومه ولا شك، فقد كان متأكداً من أنه سيربح.

خسر ديناراً، وبكل صعوبة تمكن هذه المرة من الهرب بديناره الأخير، كما أنه بدأ يشعر بالجوع ومن المؤكد أن عطاف أعدت وجبة طيبة. وقف سليمان مودعاً:

"الهجمة المضادة ستأتي قريباً، أيها الأوغاد، ولكنني الآن سأذهب إلى البيت."

لم ينزعج كثيراً لخسارته فقد تمتع باللعبة، وليس من الصعب على ابنه هاني أن يتعايش خاصة في الصيف شهرين إضافيين مع الخروق في حذائه القديم. والآن بقي لديه ما يكفي لوجبة دسمه للغد. في طريقه إلى البيت كان يتساءل عن أنواع الخضروات المتوفرة في السوق حاليا: ملوخية، باذنجان.. ثم

أخذ يعد في خياله وجبة متكاملة: شوربة، سلطة وصحن رئيسي، كان يتصرف وكأنه سيلتهم ما فيه بعد دقائق قليلة.
بعد كل سنين زواجه مع عطاف أصبح يعترف بأنها طباخة جيدة، وعندما كان يستقبل ضيوفاً على مائدة بيته كان يقول لهم بصريح العبارة: "تمتعوا بالأكل فهنا الطعام طيب، وليس كطعام بيتكم!" أو أحيانا كان يطرح السؤال بكثير من الاعتزاز بالنفس: "قل بربك، الأكل نكهته رائعة, أليس كذلك؟" وكان بعض الضيوف يردون: "نعم طيب، ولكن عطاف هي التي طبخت وليس أنت." وبسرعة كان يأتي تعليقه: "هذا صحيح ، ولكن تحت إشرافي." لم يكن يترك لها استقلاليتها واعتدادها بنفسها حتى في الطهو مما كان يزعجها بعض الشيء.
كانت تخشى تدخلاته في المطبخ لأنه كان بارعاً ويعرف ما يريد. كان يذوق ويقرر: ينقصه بعض البهار أو الملح، والمرقة ينبغي أن تعقد أكثر. كان "ينقّ" قبل الأكل وبعده، وعطاف كانت تعترف بينها وبين نفسها أنه على حق، ولكنها كانت تعلم أن الأم التي تعتني بستة أطفال لا تستطيع أن تتفرغ تماما لطبختها. لم يكن سليمان يتفهم ذلك، فبالنسبة له لا شيء يعلو على الأكل.
روى عطا أنه سمع والدته وهي توجه دعاءها إلى الله: "اللهم اجعله يفقد حاسة التذوق والشم"، وأضاف عطا: "استجاب الرب لدعائها بعد أن أصاب زوجها الهرم". بالمناسبة - يقول حسن -أحضرت له ذات يوم بقلاوة من محله المفضل في دمشق. فوجئت بتمتعه الجارف بهذه الحلويات وكان يردد باستمرار: رائعة، رائعة. فقلت له، ولكن كيف عرفت ذلك وأنت لم تعد تستطعم، فأجاب: "صحيح أنني لا أستطعم، ولكن خيالي وذاكرتي قويان، يا عزيزي. بالإضافة إلى ذلك، ألا ترى، أيها الجاهل كم هي البقلاوة طرية وناعمة وكيف تذوب بالفم. ولكن من أين لكم أبناء الجيل الجديد أن تفهموا بالطيب من الطعام."
لم تكن أعصاب عطاف تتحمل دائماً تعليقات سليمان على طبخاتها، ولكنها كانت تعاني أكثر من نوباته العصبية. في يوم ما جاء كاتب عروض الحال سعيداً إلى البيت، ربما لأن دخله كان في هذا النهار معقولاً، جاء وهو يحمل ثلاثة كيلوغرامات عنب؛ سألته عطاف: "ماذا أحضرت، يا أبا عطا"، فقال: "عنباً" ، فصاحت: "يي، لدينا اليوم بطيخ!" جُن جنون سليمان فألقى العنب على الأرض وأخذ يدوس عليه بقدميه ويقفز أحياناً فوقه مردداً: "الأغنياء يضعون أربعة أنواع فواكه على الطاولة. هل هذه جريمة أن نأكل مرة في العمر بطيخاً وعنباً في نفس اليوم.. الله أكبر." عطاف أصيبت بصدمة، فهي بعد أن فكرت في الموضوع ارتأت أنه على حق، ولكن ليس هكذا يكون الاختلاف

في الرأي.. لا حول ولا قوة إلا بالله. شعرت عطاف بالحزن أكثر عندما رأت حسن وهاني ينقبان في الأرض عن حبة عنب نفذت من أقدام أبيهم، فهما لم يذوقا طعمه في ذلك الصيف.

سليمان كان يصبو دائماً إلى أحسن أنواع الأكل وأجودها، وكان خياله في هذا الشأن أكبر بكثير من طاقاته المادية التي كانت، كما نعلم، محدودة جداً، ولكن الخيال لا حدود له: كان يسلق ويقشر ويقلي في عالمه السحري بغض النظر عن المكان الذي يتواجد فيه، وكان أحيانا ينسى أن يحيي الناس في الشارع لأنه مشغول بهذه الطبخة أو تلك، وكان الذين لا يعرفونه جيداً يظنونه مغروراً، ولكنه كان في مرّة مقبلة يستقبلهم بحفاوة بالغة.

لم يكن مغروراً، ولكنه كان شديد الثقة بنفسه وبقدراته، على الرغم من أنه لا يوجد شهود على قيامه بعمل يتناسب مع اعتزازه بنفسه. لم يكن يشعر لحظة واحدة أن وجهاء البلد أهم أو أفهم منه. الحظ فقط هو الذي ينقصه، ولذا كان يبحث عنه دون جدوى حين يلعب الورق الذي كان يهواه دون أن يحقق أيضاً في هذا المضمار نجاحاً يذكر. كان يلعب معظم الألعاب المعروفة: جميع أنواع الشدّة، البلياردو، الشطرنج، طاولة الزهر وغيرها. كان يخسر في معظم الأحيان عندما يلعب مقابل مال، وقد اكتشف أولاده فيما بعد، لأنه خسر أيضاً حين لاعبهم، أن والدهم لاعب سيء لأنه لا يحفظ الداخل والخارج من الأوراق، كما أن وجهة معبر ولا يخلو من البراءة، وخصمه – خاصة إذا كان يلعب البوكر – يستطيع أن يستشف ما إن كانت أوراقه قوية أم ضعيفة.. لم يكن لديه وجه بوكر، كما يقول فقهاء هذه اللعبة. كان أولاده يقولون له عندما يلعبون معه لعبة "الهاند ريمي" في البيت: "الآن اكتشفنا سبب خراب بيتك أو بالأحرى بيتنا، فلم تكن، يا أبانا المحترم، لاعباً ماهراً" . كان يحتج بصوت عال ويقول: "لا والله.. الحظ لم يكن يحالفني. والآن ازداد مع الهرم الطين بلة."كانت مثل هذه الجلسات في البيت تتم في نهاية الستينات وقد ذُكرت هنا قبل الأوان.

نعود إلى عام 1945 إذ كان سليمان وقتها لم يتجاوز بعد الخامسة والثلاثين. بيد أن هذا العام كان مهماً لسببين: السبب الأول كان مهماً للعالم كله الذي تنفس الصعداء، ففي هذا العام انتهت الحرب العالمية الثانية التي أودت بحياة ما بين 50 و 80 مليون ضحية، في الاتحاد السوفييتي وحده عشرون مليوناً. السبب الثاني كان مهماً لعائلة سليمان، فقد طلب شوقي ابن اخته سميرة يد ابنته البكر نجلاء.

الزواج التعِس لنجلاء الهائمة بعريسها

شوقي كان طويلاً كوالده فهمي عطوان الذي تزوج سميرة شقيقة سليمان عندما كان طفلاً يلعب في طرقات عكا. فهمي، قائد آل عطوان والمحارب القديم – كما ورد في مكان آخر من هذا الكتاب – حارب مع الحاج أمين الحسيني ضد الإنجليز، وانقلب عليه، حسب رواية شيخ مسن في عرابة، وتحالف مع الإنجليز لأن الحاج أمين الحسيني ،كما تردد، أعطى أمراً بتصفيته. ابنه شوقي كان يعمل في حيفا مع الإنجليز ليس بهدف التحالف معهم أو محاربتهم، بل كموظف عادي في إدارة سكة الحديد. تعلم شوقي بحكم اختلاطه اليومي بالإنجليز اللغة الإنجليزية وأصبح يتكلمها بطلاقة ساهمت، بالإضافة إلى تحصيله الدراسي المتوسط، في تحصيل رزق عائلته بعد الهجرة من فلسطين إلى دمشق في عام 1948.

قبل أن نبحر في قصة نجلاء نود أن نتعرض لمسألة لم نعرج عليها حتى الآن. فهمي، هذا الرجل صعب المراس، لم يعد شاباً في مطلع الأربعينات، وأصبح لا يستلطف معاشرة سميرة وأخذ يعاملها بقسوة؛ وفي أحد الأيام ضربها دون رحمة، فاحتمت بأخيها سليمان، الذي لم يكن يقدر على مواجهة فهمي، ولكن سليمان – كما لاحظنا أكثر من مرّة – لم يكن ماهراً في قياس موازين القوى، أو بالأحرى لم يكن دائماً يراعيها.

غلى الدم وقتها في عروق سليمان وأسرع إلى بيت فهمي الذي كان أقرب إلى الحصن من كونه بيتاً عادياً. فهمي كان، عندما جاء سليمان يرغي ويزبد، يجلس مع ضيوفه وبعض رجاله في الديوان. ودون تردد هجم سليمان حالاً على فهمي حالماً شاهده، ولكن ثلاثة من رجاله تلقفوه وأبعدوه عن فهمي الذي قال له بنبرة ساخرة ومهينة: "ماذا تريد هنا، يا برميل؟"

سليمان: "لا أسمح لك بمعاملة أختي، ابنة عطا عطوان، هكذا، أيها الوغد المتوحش!"

فهمي: "لا أنتظر تعليماتك، فأنا أعامل زوجتي كما يحلو لي."

سليمان كان يحاول أن يتملص من قبضة الرجال الثلاثة ولكن دون جدوى، ولكنهم كانوا يحرصون على عدم ضربه لأنهم لم يكونوا يعلمون هل يسمح لهم فهمي بلكم أحد أفراد حمولته.

ثم صاح سليمان: "لولا مساعدة والدي لك لما أصبحت زعيماً ولبقيت فلاحاً صغيراً، والآن هذا هو عرفانك بالجميل.. كيف تسمح لنفسك بضرب ابنة عطا، أيها الوغد."

فهمي: "لا تبالغ في كيل المديح لأبيك، تاجر الحبوب. صحيح كان يملك المال ولكنه كان يفتقد إلى كل عناصر القيادة. أما أنت، أيها الفيل الصغير، فلا تملك مالاً ولا جاهاً. وبدلاً عن ذلك أرى أمامي شخصاً نهماً مهتزاً وفي الطريق لإعلان إفلاسه."

كان فهمي يتلذذ بسطوته فقد اقترب من سليمان المكبل بستة أيدٍ قوية وقرصه في خده الأيسر بشدة وطبطب بسخرية على خده الأيمن وكأنه يتعامل مع طفل. سليمان كان يحاول ان يدافع عن نفسه بقدميه ولكن دون جدوى، إلى أن قال له فهمي:

"اهدأ، أيها الصغير، يا مدلل أمك، فأنت هنا لست في بيتها. سأصنع منك رجلا يا.." سليمان انتهز فرصة اقتراب فهمي منه وبصق بكل قوته في وجهه وقال:

"تستطيع أن تعطي أوامرك لهؤلاء الزعران، ولكن ليس لسليمان عطوان."

حالاً صفعه فهمي بقوة وقال لرجاله: "ارموه في السجن ولا تعطوه سوى الخبز والماء، وهذه ستكون عقوبه أكبر من السجن، فهو لا يستطيع أن يعيش يوماً واحداً دون مطبخ أمه التركية."

سليمان شتم جد فهمي وجد جده ولكن ذلك لم يغير شيئاً، فقد نقلوه إلى السجن الذي كان في السابق بئر ماء تم توسيعه واستصلاحه. بعد ساعات أحضروا له دلواً من الماء ورغيفين. لم يشعر بالسعادة في تلك الساعات. ولكن عندما علم أسد، منافس فهمي القديم على زعامة آل عطوان والذي بلغ الآن حوالي الثمانين عاماً من العمر، عندما علم بقصة فهمي وسليمان هز رأسه وحمل نفسه وذهب إلى بيت فهمي ليقول له: "ما تعمله بابن عمك ليس في صالح الحموله، فالناس ستفكر أنه من السهل أن يُعتدى علينا. العفو عند المقدرة، يا رجل، سليمان أضعف من أن يكون خصماً لك. ومهما كان سيظل واحداً منا."

فهمي: "لقد مضى عليه أسبوع في السجن. هذا يكفيه. لقد لقنته درساً."

فهمي كان يشعر في ذلك اليوم بالانشراح لأنه قدم أوراق طلاقه من سميره للمحكمة، وسيعقد قرانه على صبية لا يتجاوز عمرها الثامنة عشرة. بيد أن سعادته لن تستمر طويلاً فبعد أشهر قليلة سيطلق عليه الرصاص في عام 1943 ابن عطواني آخر أهانه فهمي في أحد الاجتماعات.

لم تتأثر مطلقته سميرة وأولادها الثلاثة بمصرعه فقد بدأوا حياتهم الجديدة في حيفا، وفي الجزء الثاني من الأربعينات أصبحت أوضاعهم المادية لا بأس بها بفضل نشاط شوقي وهمته العالية في عمله في إدارة سكة الحديد.

وفي عام 1946 جاءت سميرة إلى جنين وطلبت من أخيها سليمان أن يتحدث معها حول موضوع ذي شأن. قالت له: "ابني شوقي، ليس لدي ابن غيره، يرغب في الزواج من ابنتك أنيسة. لا داعي أن أعرفك بولدي فكل أم تشتهي أن يصبح زوجاً لابنتها."

سليمان: "صحيح، لست بحاجة أن تعرفيني به، فهو كأحد أولادي، ولكنني يجب أن أسأل أنيسة أولاً."

صمتت أنيسة حين سألها والدها. ولم يعد يعترض الزواج أي مانع لولا أن أختها نجلاء ظلت تبكي بهدوء وحسرة دون أن تلفت الأنظار، ولكن عطاف التي تعرف خفايا بناتها، عرفت سر البنت، التي كانت تهيم بشوقي منذ مطلع شبابها دون أن تفصح عن ذلك. عطاف تحدثت مع سميرة في الموضوع، وردت أم شوقي بقولها: "كلاهما خير وبركة. سنأخذ نجلاء، ولا أظن أن شوقي، الله يرضى عليه، سيعارض." نجلاء كانت وقتها أسعد عروس في العالم، هكذا كانت تشعر. كانت نجلاء تميل خلافاً لأختها الأصغر إلى السمرة، كما أنها كانت أقل منها جمالاً، ولكنها كانت خفيفة الظل وقريبة إلى القلب، كما أنها الصبية الوحيدة في البيت المتعلمة، فقد تخرجت من كلية المعلمات في القدس وعملت مدى حياتها معلمة للمرحلة الإبتدائية.

بعد عدة شهور من زواجها لاحظت نجلاء أن حظها لن يستمر طويلاً. عمتها سميره كانت سبب شقائها، فقد أصبحت هذه المرأة التي تتكلف الطيبة بنجاح لا تقل استبداداً وسطوة عن زوجها السابق فهمي، ففي بيته تعلمت ضروب القسوة والنزعة إلى السيطرة الكاملة خاصة على أولادها وذويهم. كانت تعلم أنهم ملاذها الوحيد بعد أن ألقى بها فهمي خارج البيت، ولهذا حرصت منذ نعومة أظفارهم على ولائهم المطلق، القريب من العبودية. في البداية لفت نظر نجلاء أن زوجها يقبل يد أمه أكثر من غيره من الرجال، ثم اتضح لها أنه يفعل ذلك صباحاً قبل أن يخرج من البيت ومساء حين يعود إليه. كان يقوم بذلك برغبة صادقة. بعد أسابيع قليلة تأكدت أنه لا يملك أي استقلالية إزاء أمه فكلمتها لا تصير اثنتين, وفي حوار قصير معها أوضح لها شوقي شعاره، وكيف عليها أن تتصرف تجاه أمه: "أمي على صواب ولو كانت على خطأ. هكذا ربتنا أمي، ولم يكن لنا أحد غيرها."

كانت سميرة في غاية الذكاء وقد أصبحت صلبة كالفولاذ أثناء حياتها الزوجية مع فهمي، ولكنها كان تظهر له وللآخرين ناعمة ومرنة، لأنها كانت لا تستطيع مواجهة هذا الرجل الشرس، وظلت تحتفظ بنفس الأسلوب في إدارتها للبيت وشؤون أولادها، ولكنها كانت في نهاية المطاف تنتظر منهم طاعتهم العمياء لأوامرها المغلفة بورق شوكلاتة ذهبي. كانت تبدو وكأنها تطلب كذا وكذا لمصلحة العائلة.

كانت نجلاء تشعر بالقشعريرة عندما تلاحظ انصياع زوجها المطلق لأمه، وفي ذات يوم اختلفت مع سميرة على شراء غرض تافه. وبعد أن عاد شوقي إلى البيت وانتهى من تقديم مراسيم الولاء لأمه، التي

لم تكف عن طلب رضى الله له، ألحت نجلاء له أنها تود أن تحدثة بينه وبينها، وعندما أخبرته بالقصة باختصار، قال لها: "اصمتي، علي أن أتكلم أولاً مع أمي!" الأم لم تكلف نفسها عناء الاختلاء بابنها فقد أعطت تعليماتها له أمام نجلاء على النحو التالي: "إنها تهوى النق وكثرة الكلام وترفض التقيد بتعليماتي، وأنت تعلم أنني من اجل مصلحة عائلتنا أرفض مخالفة أوامري. قاطع سرير زوجتك لمدة شهر ودعها تنام كالكلبة في المطبخ."

"بأمرك، يا أمي"، قال شوقي ونظر باحتقار إلى زوجته مشيراً إلى المطبخ: "اذهبي إلى هذه الزاوية." وهناك نامت نجلاء شهراً كاملاً.

أصبحت حياة نجلاء في السنوات القادمة لا تطاق، حماتها وزوجها كانا يعاملانها كالخادمة. فيما بعد خلّفت ثلاثة أولاد كانت تحرص جدتهم على تربيتهم، مما جعلهم لا يكنون أي احترام لأمهم. وهكذا أصبحت تتلقى تعليمات من خمسة أشخاص وبالإضافة إلى كل أعمال البيت لم تتوقف يوماً عن التدريس في المدرسة دون أي احترام لجهودها. وفي نفس الوقت كانت تحرص على عدم إطلاع والدها على وضعها المزري لأنه لو علم ذلك لخسف الدار على من فيها، ولكان ذلك نهاية حياتها الزوجية، ولكنها – يا للهول – ظلت تحب زوجها، كما أنها لم تكن تستطيع قضاء يوم واحد دون أولادها.

في حيفا كان بيت أم شوقي ليس بعيداً عن البحر، وكان من السهل تجاوز المسافة التي لا تزيد على الخمسين كيلومتراً بين جنين وحيفا بسيارات الأجرة. عائلة سليمان كانت تستغل كل مناسبة لزيارة نجلاء التي كانت بغاية الشوق خاصة لأمها. الأولاد كانوا يتمتعون بالبحر وسليمان بأسماكه، خاصة سمك السلطان إبراهيم.

سليمان يتصدى خطابياً لإقامة دولة إسرائيل

عندما انتهت الحرب العالمية الثانية في 8 مايو 1945 كان حسن قد اقترب من السادسة. بعد خمسين عاما على هذا التاريخ أخذ حسن يتذكر كيف عاش نهاية هذه الحرب:

"كان صمت الموت يعم شوارع جنين وأزقتها. حافظ، أبو داود،أحد سائقي التكسي، كان كالمشلول عندما سمع من إذاعة لندن أن ألمانيا هُزمت. الكلمات خرجت من حلقه كأنها حشرجات الموت: "هتلر خسر الحرب وخسرنا كل شئ مع هزيمته". حزنت معه دون أن أدري تماما ما حدث، ولكن

يبدو أنني أحسست بأنها ليست هزيمة أبي داود وإنما هزيمة جماعية. لم أكن وقتئذ أستطيع أن أتصور ما حدث، ولكن بالنسبة لأهل جنين كانت هزيمة ألمانيا تعني السقوط المطلق إلى الهاوية. كان الفلسطينيون ومعهم الجماهير العربية يتخيلون – بسبب ضعفهم – أن هتلر فقط هو الذي يستطيع أن يحررهم من قبضة أعدائهم الإنجليز والصهاينة."

لم تختلف نظرة سليمان عن نهج تفكير أهل البلد، ولكنه لم يكن مجرد مراقب للأحداث، كما أننا لا نستطيع أن نقول إنه كان عنصراً نشيطاً وحاسماً. كان يتعاطف مع حركة المقاومة التي كانت تنظم الانتفاضات في الثلاثينات. كان يحرض الشباب ويلقي خطابات ولكنه لم يكن منظماً، لذا كانت جهوده تتبخر بسرعة لأن عمله كان يفتقد للاستمرارية. كانت طريقة عمله تفسح المجال أمامه لتطوير أفكار فردية ملفتة، ولكنها لم تكن ذات فاعلية حقيقية.

في ذاك الوقت، خاصة في الفترة ما بين 1945 و 1948 كان الطريق مفتوحاً للأعمال الفوضوية: الفلسطينيون يقاتلون تارة ضد الإنجليز، وتارة ضد المستوطنين وتارة أخرى ضد كليهما؛ وكذلك اليهود فقد كانوا يتصدون للفلسطينيين وأحياناً للإنجليز عندما كان هؤلاء يحدّون مؤقتا من هجرة اليهود إلى فلسطين لأسباب تكتيكية، وتجنباً لتعاظم المقاومة الفلسطينية. في حيفا والقدس ونابلس وجنين كانت الصدامات أقرب إلى حرب الشوارع. كانت سيارات الشحن اليهودية تمر على سبيل المثال عبر جنين بسبب موقعها الاستراتيجي بين الشمال والجنوب. سليمان كان يحرض الشبيبة والأولاد على المقاومة بما في ذلك رمي الحجارة على تلك السيارات التي كانت في طريقها إلى حيفا والعفولة.

في أحد أيام عام 1947 جاء بِكرُه عطا (11 عاما) راكضا إلى البيت والعرق يتصبب منه. ومن المعروف عن عطا أنه كان عدَّاءً من الدرجة الأولى كما أنه كان لا يترك شجاراً يمر إلا ويشارك فيه. عطا قال لوالده بصوت عال: "ورجيناهم نجوم الظهر!" فصاح به سليمان: "من، أيها الشقي الوقح؟ معاركك مع الناس ستقصم ظهري وتقرب أجلي. كل يوم.. عندما أجيء للبيت أرى طابوراً من الناس يشتكون لأنك أدميت ابنهم وكسرت زجاج نوافذ بيتهم، أيها الوغد.." عطا قاطع سليمان بقوله: "إنني أتكلم عن سائق شاحنة يهودية. كان يسوق سيارته بسرعة جنونية وسط المدينة بالقرب من الجامع الصغير لأنه كان، كما يبدو، يتوقع هجماتنا، ولكننا كنا على أهبة الاستعداد، فقد كنا نحن الاثني عشر ولداً ننتظره بالقرب من تقاطع الطرق وكان كل منا يحمل كوماً من الحجارة. بسرعة البرق قدفناها على واجهة السيارة الأمامية وعلى هذا الخنزير. لقد تحطم زجاج الشاحنة حالاً، وأخدت

السيارة تتأرجح فتصطدم مرة بالعمود وأخرى بمحددة أبو يوسف وأخيرا نفذ ابن الكلب – من المؤكد بنطلونه الملآن بالبراز – بسرعة تزيد على المئة كيلومتر باتجاه حيفا." سليمان عبر عن اعتزازه بابنه وقال له: "أيوة، هكذا تعجبني، يا جدع، الله يرضى عليك."

حسن كان يلاحق سير "الحوار" بين أبيه وعطا باهتمام لا يخلو من الحسد، فقد كان هذا التلميذ الوديع يود أن يكون جدعاً كأخيه. كانت هناك منافسة خفية بين الأخوين لم يتكلما عنها مطلقاً حتى بعد أن أصبحا رجلين، ولكن لا شك أنها لعبت دوراً لا يستهان به في تكوين شخصيتيهما. سليمان كان يحرص دائماً على تربية أولاده على نهج يهدف إلى توطيد التضامن بينهم، وكانت تستهويه صورة الأب الذي كسر عصا بسهولة أمام أولاده ولكنه لم يستطع أن يكسر عشرة عصي دفعة واحدة. كان درس التضامن مهماً وضرورياً، ولكن الحياة كانت أشمل وأشد تعقيداً.

اليهود بدورهم لم يكن ينقصهم أشقياء كعطا وأبيه. وفي ذات يوم سافر سليمان في حافلة من حيفا إلى جنين. سائق الحافلة اضطر أن يتوقف فجأة عن السير، لأن مجموعة متطرفة يهودية أغلقت الشارع ببضع صخور. كان أبو جمال سائق السيارة عملاقاً يقترب طوله من المترين ووزنه من المئة وأربعين كيلوغراماً. منظره، خاصة عندما يغضب، كان يبعث الخوف في قلب أشرس الناس، ولكن للأسف كان صوته رقيقا كصوت الطفل المبحوح. سليمان لاحظ الورطة فقد كان معظم ركاب الباص من العجزة والنساء، ولذا قال لأبي جمال بلهجة حازمة: "قبل أن تفتح الباب عليك أن تعرف تماما ماذا عليك أن تعمل. عليك أن تحمل هذا القضيب الفولاذي وأن ترفعه فوق رأسك مهددا العصابة اليهودية، ولكن إياك ثم إياك أن تنبس ببنت شفة!" في البداية سار كل شيء حسب إرشادات سليمان، فقد ابتعد أفراد المجموعة اليهودية عندما شاهدوا هذا العملاق والوحش الهائج، وعندما شعر بالانتصار صاح بهم بصوته الطفولي :

" يا أولاد الكلب.. سأكسر عظامكم.. يا أولاد.." دفعة واحدة تحول العملاق إلى مهرج مضحك وعندما اكتشف المهاجمون ذلك أعادوا الكرة وأشبعوا ركاب الباص بما فيهم سليمان ضرباً. سليمان لم يكن مشغولاً باليهود وإنما بأبي جمال, فقد قال له: "ليس هم أولاد الكلب.. بل أنت ابن الكلب.. قلت لك.."

فيما بعد أصبح سليمان يقارن الدول العربية وجيوشها بهذا العملاق، بأبي جمال الذي يبدو قوياً حتى يكتشف العدو أنه لا حول له ولا قوة. ظهرت للعالم كوارث الجيوش العربية التي كان يقودها من

عمان كلوب باشا وضباط إنجليز آخرون يعطون أوامرهم من لندن وبغداد والقاهرة للجنود والضباط العرب.

ولكن معركة جنين التي جرت بين الثاني والرابع من حزيران في عام 1948 كانت معركة حقيقية ذات أبعاد وانعكاسات على صمود هذه المنطقة المهمة من فلسطين وعلى معنويات شعبها. فبعد أن احتلت القوات اليهودية قرى المزار ونوريس وزرعين وشردت أهلها في أيار 1948 بدأت في قصف مدينة جنين بهدف احتلالها والوصول إلى مفرقي قباطية ودير شرف الاستراتيجيين، لتتمكن القوات اليهودية من عزل القوات العراقية المتمركزة في المثلث ومفاجأتها من الخلف بشكل يضطرها للانسحاب أو التسليم، وكان ذلك سيعزز الوضع العسكري للقوات الإسرائيلية في المواقع التي كانت احتلتها في قضائي حيفا وبيسان.

وعلى صعيد آخر كان هذا القصف يهدف لترويع السكان المدنيين، وإلى تهجير سكان المدينة واللاجئين الذين هاجروا إليها من القرى المحتلة الأمر الذي كان سيؤدي إلى إبعاد اللاجئين مسافة أكبر عن قراهم ويزعزع لديهم المعنويات والإصرار على العودة.

ثم هاجمت القوات الإسرائيلية التي بلغ تعدادها أربعة آلاف جندي جنين بشكل فعلي، وقد تصدى لهم بضع مئات من الجنود العراقيين الذين خالفوا أوامر بغداد آنذاك، ولولا مقاومة هؤلاء البواسل ومشاركة عدد لا بأس به من المتطوعين الفلسطينيين والأردنيين لسقطت جنين وقضاؤها ولكان لذلك تأثير هام على خريطة إسرائيل والضفة الغربية. ومن المعروف أن الخسائر في صفوف القوات اليهودية وصلت إلى ثلاثمئة بين قتيل وجريح، وفي صفوف الجنود العراقيين والمتطوعين مئة شهيد بالإضافة إلى خمسين مدنياً.

سليمان الفوضوي لم يكن متدرباً عسكرياً، ولكنه رافق المقاتلين إلى الجبال حيث كان يشد من أزرهم. وكان سليمان قد قرر أثناء اشتداد قصف جنين قبيل هجوم القوات الإسرائيلية على المدينة تسفير ابنتيه إلى أقاربهما في عمان. أما أبناؤه الثلاثة فقد أرسلهم إلى قرية عرابة مسقط رأسه. حسن يتذكر: "سافرنا الإخوة الثلاثة في سيارة حتى مفرق عرابة وسرنا منه حوالي الكيلومترين على الأقدام. كانت أعمارنا تتراوح بين الثمانية والاثني عشر عاماً. وعندما كدنا نصل قمة الجبل خيم الظلام على المنطقة ورأينا وسمعنا الطائرات اليهودية وهي تقصف جنين التي تبعد حوالي الستة أو السبعة كيلومترات عن رأس الجبل. كنا قبل ساعات ودعنا أمي وأبي فقد قررا عدم مغادرة جنين. هاني أخد يصرخ : "يا

يابا... يا يابا " وعطا: " يا يمّا .. يا يمّا." لم نتوقف ثلاثتنا عن البكاء والصراخ بصوت عالٍ حتى وصلنا القرية، وعندها أخذتنا الحاجة إلهام عطوان في الأحضان."

احتلت إسرائيل آنذاك 78 بالمئة من مساحة فلسطين وتجاوزت بذلك مساحة الستة وخمسين بالمئة التي وافق عليها قرار تقسيم فلسطين المجحف الصادر عن هيئة الأمم المتحدة في عام 1947. جنين لم تُحتل وأهلها يعتزون بصمودهم وببسالة المناضلين فيها، ولكن انعكاسات إقامة دولة إسرائيل على تطور المدينة كانت سلبية للغاية.

الفلاحون خسروا آلاف الدونمات من أراضيهم، وعشرات الآلاف شردوا إلى جنين وقضائها. عشرة آلاف لاجيء استقروا في المعسكر البريطاني السابق بعد أن انسحبت القوات البريطانية منه. آلاف آخرون سكنوا في السنوات الأولى في الخيام التي نصبتها وكالة غوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين (الأونروا) بين جنين وقرية قباطية، كما حل الكثير من المشردين في بيوت العائلات الجنينية.

عائلة أبو ندى استأجرت غرفة في الزقاق الذي تسكن فيه عائلة سليمان. أبو ندى كان فلاحاً ولم يتعلم أي شيء آخر غير الفلاحة. الآن خسر أرضه ومصدر رزقه، فلم يكن باستطاعته الانتقال إلى جنين مع أرضه وغلته وأبقاره. كان بُعَيْد تشريده كالمشلول، فهو لا يعرف ماذا سيعمل في هذه الأوضاع، وبعد مرور عدة أسابيع كنت تراه وهو يجر بوجل عربة فواكه. كان يبيع تفاحاً، وكان دخله في بداية الأمر ضئيلاً، لأنه لم يتمكن خلافاً للباعة المحترفين من رفع صوته والإشادة بالتفاح: "أحمر الخدين يا تفاح". كانت كبرياء الفلاح تمنعه من ترديد مثل هذه العبارات. زوجته أم ندى كانت تختلف عنه تماماً شكلا ومضموناً. فبينما كان أبو ندى رجلاً شديد السمرة ونحيلاً وقصير القامة وقليل المرح، كانت زوجته طويلة وبيضاء وتعج مرحاً وحيوية. كانت تقدم خدماتها لبعض العائلات الغنية وتشارك بهمة عالية في الأعمال البيتية. كنت لا ترى يديها وهي تجلي من شدة سرعتها، ولعل هذه الجارة كانت اللاجئة التي وصفها سليمان في إحدى قصائده بعد نكبة 1948 بأيام قليلة:

وخيامُ الإذلالِ! قمْ لنراها فَهْي للشيخِ والوليدِ مُعَسكرْ
أَتَراها، فتِلكَ كَاعِبُ تمشي بانكسارٍ، والذلُّ فيها تَصَوَّرْ
شَفَّها البؤسُ فهْيَ تندبُ عِزّاً كان بالأمس، ثم ولّى وأدبرْ
أين تَمضينَ غادَتي فَتَعالَيْ واحذَري القصفَ، فالطبيعةُ تَزْأَرْ
فأجابتْ والعينُ نحوَ خِبَاها : ليتَ حتفي أتَى ولم يتأخَّرْ
فاطلبي الدفءَ وانشُديه بِبيتي إن عدمْتِ الإخوانَ، والكونُ أقفَرْ

لم تتأثر عائلة سليمان بشكل مباشر بحرب عام 1948، إن صحت تسمية هذه المهزلة حرباً. الكاتب الفلسطيني الحيفاوي إميل حبيبي قال في نهاية الستينات: "يقولون الجيش الإسرائيلي قوي. ونحن نقول: لا نعلم ذلك لأننا لم نجربه!"

بيد أنه كان لهجرة عائلة ابنة سليمان نجلاء تأثير كبير فقد اضطرت إبان الصراع الدائم بين اليهود والفلسطينيين وبعيد نكبة 1948 أن تهاجر مع عائلتها إلى دمشق. استفاد شوقي في العاصمة السورية من لغته الإنجليزية التي أتقنها إلى حد كبير أثناء عمله مع البريطانيين في إدارة سكة الحديد في حيفا، ففي نهاية الأربعينات أصبحت هذه اللغة تحتل ببطء مكان اللغة الثانية بدلاً عن اللغة الفرنسية، لغة الدولة التي استعمرت سوريا من عام 1920 حتى الاستقلال عام 1943. كما أن زوجته المدرسة نجلاء انتقلت من المدرسة التي كانت تدِّرس فيها في حيفا إلى مدرسة قريبة من بيتها الجديد في دمشق. ويمكن القول إن عائلة شوقي لم تتأثر مادياً بالهجرة من فلسطين، فهي لم تسكن يوماً واحداً في مخيم، خلافاً لعشرات الآلاف من اللاجيئن الذين خسروا كل شيء وأصبحوا يعيشون في ستة مخيمات أهمها مخيم اليرموك في دمشق. كما أن عائلة شوقي لم تجد نفسها مضطرة للوقوف في طابور اللاجئين الذين يتلقون المواد الغذائية الضرورية كالزيت والطحين من الأونروا.
بالنسبة لسليمان وعائلته في جنين التي كانت تبعد في عام 1948 ثلاثة كيلومترات فقط عن حدود إسرائيل فقد كان التأثير غير المباشر لهذا الكيان الجديد قوياً على نوعية الحياة. فمع أن البحر يبعد كيلومترات قليلة عن جنين حُرِم الناس منه تماماً فلم يعد بإمكان سليمان وأفراد عائلته أن يتمتعوا ساعات بجماله وخيراته، كما كانوا يفعلون عندما كانوا يزورون بيت نجلاء هناك. الآن أصبحت نجلاء تسكن في دمشق وهذا كان يعني خمسة أضعاف المسافة من جنين إلى حيفا. الآن أصبح المسافر يغير أكثر من سيارة عمومية ويقطع معظم الأردن ويعبر الحدود السورية ويقطع ساعات في أراضيها حتى يصل دمشق. لم تكن رحلة سهلة بالإضافة إلى تكاليفها التي أدت في نهاية المطاف إلى شبه قطيعة بين نجلاء وأهلها في جنين. نجلاء كانت تفتقد إلى حنان أمها وأخواتها وإخوانها وحماية والدها الأدبية، وهكذا استفردت بها حماتها سميرة وأذلتها إلى حد لا يمكن تصوره. استسلمت نجلاء للأسف لقدرها ولم تعد تقاوم. مادياً لم يكن ينقصها شيء، ولكنها كانت محطمة نفسية، ولعل هذه الحالة المؤلمة أدّت

إلى وفاتها متأثرة بسرطان الأمعاء وعمرها لم يزد على 42 عاما. لم يكن هناك للأسف – كما كانت تبدو الأمور لها – حل آخر لمأساتها، ولذا اختارت بصمت الخلاص عن طريق الموت.

أبو عطا يسلّم علم العائلة لعطا

"أتمنى لو كان لدي شجرة لأستلقي في ظلها." حسن وهاني سمعا والدهما سليمان أكثر من مرّة وهو يردد هذه العبارة. كانت هذه مشاعر امريء ترعرع في قرية وهذه طريقته في التعبير عن ضيق الحال. خلف هذه الكلمات تكمن قلّة الحيلة وحاجة الفقراء للعون، ولكن خلافاً لنهج معظم الناس في الشرق يرى سليمان الفقر أيضاً من زاوية أخرى. عادة يقول الناس في بلادنا: "إنها مشيئة الله ونحن نتقبل ما كتب لنا." أما سليمان فيفصح عن موقفه على نحو آخر: "كان المفروض ألاّ يعاملني الرب بهذه القسوة!"

ولكي لا نقع في سوء فهم لا بد من الإشارة هنا إلى أنه لم يقصد التصدي لإرادة الله والفقر أو التفكير في زرع شجرة لينعم بظلها. كان سيعلق على مثل هذه الخاطرة: من أين لي الارض لكي أزرع عليها شجرة؟ لا، الأمر ليس أكثر من تسجيل احتجاج على ما حلّ به. وبكل بساطة نفهم من نظرته إلى الفقر أنه يسبب له آلاماً شديدة وأنه يميل إلى الشكوى، كما نقرأ في قصيدة "الحظ" التي كتبها عام 1951 وتناول فيها معاناته ومعاناة "الأكثرية الساحقة" من أبناء بلاده، كما ذكر في مقدمة القصيدة التي تتكون من 15 بيتاً:

ليلي إذا حدثته أغراني	بجلاله، وسكونه الفتّانِ
وإذا أنا استلْطفتُه ألفيتُه	صِنواً يشابه لوعةَ الحرمانِ
حظّي من الدنيا كحالِكِ جُنْحِهِ	والدهرُ راشَ سهامَه، ورماني
بالبؤسِ والحرمانِ، والفقرِ الذي	أعيا حَصَاتي، واستَرَقَّ بياني

لا يكثر الحديث في بيت سليمان عن الفاقة فقط، وإنما أيضاً عن الأكل. وفي هذا السياق يُستشهد غير مرة بما يروى عن علي بن أبي طالب، واليه يُنسب القول: "لو كان الفقر رجلاً لقتلته!" وبغض النظر عن مدى الدقة في تحديد قائل هذه الكلمات، التي لا تخلو من البلاغة، الا أن سليمان كان يرددها باحترام عظيم وكأنها آية قرآنية. وبما أن الفقر في واقع الأمر لم يكن رجلاً ليُقتل، فقد كان

يصول ويجول دون من يهدده، ليس في بيت سليمان وحده وإنما أيضاً في بيوت عشرات الآلاف من الفلسطينيين. إنها سنوات ما بعد النكبة.

لنعد إلى بيت سليمان وأحاديث الأكل. الأغنياء يتمتعون بالطعام، ولكنهم قلما يتعاملون معه كموضوع يستحق الكلام، بل على العكس فهم يروْن في بعض الأحيان أنه من العيب الحديث عنه. ولكن في بيت سليمان للأكل حضور ونكهة خاصة. إنهم يحلُمون به – بكل ما في هذه الكلمة من معنى – وعندما يستيقظون يقصون على بعضهم أنهم رأوا في المنام صينية كفتة وتفاحاً وعنباً وكنافة. قلما يستهلون كلامهم بالحديث عن الحلويات أو الفواكه، فدورها يأتي، كما في الحياة، بعد الوجبة الرئيسية.
عطاف التي لم تُمنح مكاناً يذكر حتى الآن في هذا الكتاب، لأنها دائماً مشغولة وليس لديها فسحة للكلام والمزاح، نعم، هذه الأم التي تقضي ساعات النهار من الفجر حتى يخيم الليل وهي تمسح وتجلي وتطبخ وتُرْضع، هذه السيدة تروي أيضاً نكتة عن الفقر. أولادها يقولون إنها النكتة الوحيدة التي سمعوها من والدتهم طيلة حياتها:
" في شهر رمضان صحّى المسحراتي كل الناس بما فيهم عائلة أم أحمد. الناس تصحو لتأكل لعلها تتحمل جوع اليوم التالي. أما عائلة أم أحمد فلم يكن في بيتها ما تأكله بالمرّة. أخذ أفراد العائلة ينظرون إلى بعضهم بعضاً ليلاحظوا أن في الأمر مرارة وحلاوة البكاء المضحك. استغربت العائلة الوضع أيما استغراب، وأخذ أفرادها يضحكون ويضحكون ويضحكون حتى شبعوا ضحكا وناموا بعد ذلك نومة هنية". كانت عطاف أول من يضحك على نكتتها، ومن كل قلبها. عندها كانت الدموع تختلط بضحكها، وأولادها لم يكونوا يعرفون حقيقة هذه الدموع: هل هي دموع الضحك التي تنهمر أحيانا من شدة الفرح أم دموع الحزن الأبدي الدفين في صدر عطاف؟ وعندما كان البعض يواسي عطاف لشدة الفقر المطبق على عائلتها كالكمّاشة كانت تخفف من قلقهم: "غناي في أولادي.. بكرة بكبروا."

بِكرها ترعرع في ظل ثقافة الفقر والأجواء الاجتماعية وعائلته تنتظر على أحر من الجمر أن يشتد عوده ليتحمل ما لا طاقة له به من المسؤوليات المادية والأدبية. عطا كان يتمتع بحيوية عالية للغاية ولم تكن تنقصه الشجاعة والوسامة. كانت رموش عينيه طويلة لدرجة كانت توحي لأساتذته في الصف

بأنه نائم. لم ينم قطعا في المدرسة ولكنه كان يكرهها ويعتبرها مضيعة للوقت. لم يكن يفكر إلا بشيء واحد: الانتفاضة والثورة على الفقر. كان يحب والديه وأخواته وإخوته من كل قلبه وكان يريد أن يكون منقذهم من براثن الجوع والحاجة. كان يريد أن يحقق ما لم يستطع والده أن يحققه.

في البداية حاول أن يصل إلى ما يصبو اليه بسرعة: كان يسرق كميات ضخمة من الحمضيات من البيارات. حفر نفقاً تحت سياج بيارة عمه الإقطاعي وكان يخرج منها معفرا بالتراب وبعدة أكياس من البرتقال والمندلينا والحامض، وكان يحضر كيسا منها للبيت ويبيع ما تبقى في سوق الخضار. لم يكن يترك باباً إلا طرقه: كان ينتزع أسلاك القصدير أينما يجدها ويعرض بضاعته المسروقة في الأسواق. كان يتصارع مع الملاّكين وحراسهم، وتعلم من هذه التجربة أن الحراس أشد قسوة وضراوة من أسيادهم.

بعد فترة معينة لاحظ أن المشاكل أكبر من دخل مثل هذه المشاريع. قرر – على الأقل مؤقتا – أن يلتزم بالشرعية والقانون وأن يحصّل القرش بتعبه. في البداية عمل في مصلحة بناء الطرق. كانت شفتاه ترتجفان عندما سلم كل راتبه الأول لعطاف. كان مبلغاً صغيراً ولا يشكل مخرجاً من همجية الفقر. لم تعرف عطاف ماذا تعمل: هل عليها أن تفرح بقروش بكرها أم تبكي على ما لحق يديه من رضوض وخدوش تتخللها آثار الدم؟ حاول بعد ذلك أن يتعلم مهنة ميكانيكي سيارات. كان يلقي بنفسه دون حماس يذكر تحت السيارات. على أي حال لم يكن هناك أدنى شك أنه سيظل يمشي إلى أن يصل إلى هدفه: دحر الفقر وكسر رقبته. لم يكن يعلم تماما آنذاك بشكل حاسم فيما إذا كان سيحقق ذلك بالطرق الشرعية أو غير الشرعية، ففي هذه الفترة – كما روى فيما بعد لإخوته – لم يكن يعرف إلى أين ستنتهي به السبل.

كان يفكر في أن يصبح مهرباً، ثم قرر في نهاية المطاف ان يذهب مُهرَّباً إلى مشيخة الكويت النفطية. نفطها كان له جاذبية الذهب وبريقه، ولكن الفيزا كانت تحول دون الوصول إليها، لأن السلطات الكويتية لم تكن تمنحها إلا للذين تلقوا دراسة أكاديمية أو تعلموا مهناً مطلوبة. بيد أن عطا الذي بلغ عمره آنذاك السابعة عشرة لم يحصل حتى على الشهادة الثانوية.

أيضاً المهرّب الذي كان يتوجب عليه أن يقطع معه ورفاقه الصحراء العراقية إلى الكويت كان يطلب عشرات الدنانير. من أين للعائلة بهذا المبلغ؟ وبعد أن توفرت بعض الدنانير ظلّ سليمان متردداً فهو بحاجة ماسة لكل قرش، كما كان يخشى على مصير ولده، فهو يعلم أن بعض أبناء البلد لم يصلوا الكويت وماتوا في الصحراء عطشاً بعد أن تركهم المهربون وفرّوا. كان عطا يقول لأبيه: "أرجوك، أنت لا تعرفني. أنا قد حالي. أعطني هذه الفرصة، بحق الإله، يابا." ولكن سليمان بقي حيْران. تكررت

مثل هذه الجلسات إلى أن لم تعد أعصاب عطا تتحمل، فصرخ باكيا: "سأقتل نفسي إذا لم أسافر إلى الكويت." ظل يبكي دون انقطاع إلى أن ارتمى على الأرض من شدة حسرته وشعوره بالانكسار، عندها ترغرغت عينا والده بالدموع فضمّ بِكره وقال له: "ستذهب يا ولدي للكويت، ولو كلفني ذلك حياتي."

كان عطا جدعاً ويتمتع بجسد معافىً وقوي، وبعد ثلاثة أيام من السير على الأقدام في الصحراء وصل مدينة الكويت مرهقا وليس مُستهلكا. استقبلته عمته وصفية التي تعمل قابلة قانونية في الكويت منذ خمسة أعوام بحفاوة بالغة. سألته: "جوعان، يا عمتي؟" قال لها بهدوء: "قليلا، لم آكل شيئاً منذ ثلاثة أيام." وقفت وصاحت: "الله أكبر" واسرعت جارية إلى المطبخ الذي كان يعج بأطيب المأكولات والفواكه والمشروبات، فقد كان دخلها عالياً، ويزيد بصورة خاصة عندما كانت تساهم في ولادة أطفال ذكور للكويتيين الأغنياء.

لم تتحدد معالم الطريق التي سيسير فيها عطا بعد. في جنين كان والداه وإخوته ينتظرون بفارغ الصبر أول حوالة مالية منه وكأن شوارع الكويت مرصوفة بالشيكات. سليمان أخذ يراقب باهتمام وعصبية "مهند" ساعي البريد وهو يسلم الحوالات لآباء الشباب الذين يعملون في الخليج. كان يرى البهجة في وجوه هؤلاء الآباء، وأخذ يقول لنفسه: "يا من درى!"

في نفس الساعة كان عطا يقف أكثر من ساعة أمام فترينة دكان لبيع اللوازم المكتبية. ظل هكذا يحملق في آلة كاتبة، إلى أن خرج صاحب الدكان، فلسطيني من غزة، وقال له: "أراك، يا ابني، وأنت تتأمل هذه الآلة الكاتبة البديعة، فلماذا لا تشتريها وترتاح؟" ابتسم عطا ورد قائلا: "صحيح، نعم، ولكنني وصلت منذ يومين فقط للكويت والفلوس المتوفرة لدي تكفي لشراء علبة سجائر لا غير."

رد الرجل بابتسامة طيبة كشفت أسنانه الصفراء: "مش مهم، تستطيع أن تشتريها بالتقسيط، على أن تدفع القسط الأول بعد ثلاثة أشهر."

وصل عطا بيت عمته لاهثاً وبدأ حالاً بالبحث عن الحروف في الآلة الكاتبة وبطرقها على الورق. "ثلاث ليال.." – كان يروي لإخوته عن بداياته في الكويت – "ثلاث ليال وأنا أطبع حتى كاد الدم يسيل من أصابعي. كنت أكافح من أجل الحصول على عمل نظيف. كنت أريد الخروج من الوسخ. وبعد ذلك ذهبت لوزارة الصحة. كنت أعلم انهم يبحثون عن طبّيع. سألوني: "هل تجيد الطباعة؟" فأجبت دون أي تردد: "نعم، نعم، طبعا، طبعا! ولْ باطل!" كان عطا ينفعل كثيراً عندما يتحدث عن بدايات تحديه للحاجة – على الرغم من أنه أصبح فيما بعد صحفياً معروفاً وميسور الحال – وكان

إخوته يعلمون رقته وحزنه الشديد أمام هذه الذكريات المؤلمة، ولهذا كانوا في مثل هذا الموقف يقفون احتراما لكبيرهم، يقبلونه ويقولون له: "أنت الآن بألف خير وأفضالك علينا جميعاً وعلى كل الاصدقاء."

لنعد إلى سليمان في جنين، فلم تمض إلا بضعة أسابيع منذ سفر عطا حتى تسلم أول شيك من بكره، فأسرع إلى البنك، ولأول مرة شعر في حياته أن هناك فائدة من إنجاب الأطفال. وبعد أن وضع الدنانير في جيبه اتخذ إجراء حيوياً ـ فقد أهدى مكتبه، إن صح التعبير، طاولة قديمة وكرسيين يتأرجحان، إلى زميله الذي تردد كثيراً قبل أن يوافق على تلقي هذه الهدية المهلهلة. ثم ذهب إلى ثلاثة دكاكين ليسدد ديونه وليشتري بعض المواد الغذائية. في نفس اليوم، وقد بلغ عمره الخامسة والأربعين، قرر أنه لن يعمل بعد اليوم أبداً، لأنه كان يعتقد أنه قدم ما فيه الكفاية لعائلته الكبيرة.
هذا القرار جاء في هذه الحالة – كما سنرى – قبل أوانه، ولكنه في الشرق لم يكن قراراً غير عادي، لأن معظم الشباب الفالحين والمحترمين، على الأقل في الخمسينات وقبل ذلك، كانوا يروْن أن الأخلاق الحميدة تُلزمهم بأن يعرضوا على آبائهم بعد وصول هؤلاء الآباء سن الأربعين أن يتوقفوا عن العمل، لأن الدور الآن عليهم بعد أن كدّ والدهم ما يزيد على ربع قرن. في كثير من الأحيان تسمع الشباب يقولون لأبيهم: "الله يعطيك العافية. إنك تستحق الآن الراحة فسنخدمك بأعيننا." كما أنه ليس غريباً أن يحتل الابن البكر مكان والده فيما يتعلق بدخل العائلة، وأن يقوم وحدة بمهام الأب حتى يبدأ الأخ الثاني بالعمل، وهكذا.
في الريف لم يكن ما يقلل من صلاحية هذه النظرة للأمور، ولكن القضية تختلف فيما يتعلق بعائلة سليمان الكبيرة (وقتذاك ثمانية أفراد) التي كانت تعيش في المدينة. لا خير في المدينة إذا قل دخل معيل العائلة. في المقابل ففي القرية تعطي الأرض أبناءها على الأقل نصيبهم من الزيت والزعتر والعدس والقمح الخ. الآن وبعد أن قدم سليمان "استقالته" وأهدى "مكتبه" الذي كان يداوم فيه أمام محكمة البلدة أصبحت العائلة معلقة برقبة موظف صغير، براتبه المتواضع وإن كان مكان عمله في وزارة الصحة في دولة الكويت الغنية يوحي تجنياً بأنه أصبح ميسوراً وقادراً على العطاء.
وبالإضافة إلى ذلك كان في سلسلة دخل عطا رجلان، عطا وسليمان، لا يحسنان استعمال القطع النقدية ولا يحترمان ندرتها. بالنسبة لعطا كان موضوع إعالة أسرته قطعة من قلبه، فهو سيتعذب كثيراً لو علم أن أحباءه في جنين يتضورون جوعاً، وإذا اقتضى الأمر كان يستدين في منتصف الشهر لكي

لا تتأخر الحوالة للأهل. من ناحية أخرى كان عطا تواقاً للحياة، فقد كان على سبيل المثال محروماً طيلة حياته من الملابس الأنيقة وهو في عز الشباب. كان في جنين في السادسة عشرة لا يملك سوى بنطلون كاكي وقميص من نفس اللون، يغسله كل ليلة وفي الصباح يكويه بيده. كان يبدو شاباً نظيفاً وأنيقاً، فقد كان بهي الطلعة، لم تبخل الطبيعة عليه بشيء. المال كان ينقصه ولكنه ليس من الطبيعة فهو على الأرجح نقيضها. في محلات الملابس الثمينة في الكويت كان عطا يصاب بما يشبه الدوخة، فلو استطاع لاشترى المحل عن بكرة أبيه، ولكن أباه كان يهدده من جنين: "أين الحوالة؟" لأول مرّة في حياة عطا تراه وهو يرتدي بدلة بصفين يظهر فيها بشبابه اليافع كعارض للأزياء. وجد نفسه يشتري بدلات كثيرة غيرها. وفي بعض الأحيان كان يمضي الشهر دون أن يتسلم سليمان شيكه. حدث ذلك ذات مرة في شهر رمضان. لم يكن سليمان صائماً وكان من شدة غضبه يدخن السيجارة وراء الأخرى. نسي وحالته يرثى لها أن التدخين في الشارع ممنوع قانونياً فخرج من البيت والسيجارة بيده، فركض أحد الجيران خلفه ليقول له: "أبو عطا... انتبه السيجارة بيدك...رمضان، يا رجل!" القى سليمان السيجارة ودعسها بحذائة بقوة، وقال حانقا: "الله يلعنك يا عطا.. فضحتني." لم يكن يكتفي في مثل هذه الحالات التي لم تتكرر كثيراً بالإسراف في التدخين وبكيل الشتائم لبكره، فقد كان يهجو ابنه بقصائد تقطر دماً وحسرة. في قصيدة "لو كنت يا ولدي" يقول:

هيهاتَ أرجو الخيرَ من وَلدي الذي   بَزَّ الدُّنَى في فُجره وقِلاهُ
أرضى غريزتَه، وأرضى طيشَه   وكرامتي قد داسَها أوّاهُ
هذا يناديهِ: أَيا رَبَّ الندَى   فتَغُرُّه الألفاظُ، ما أغباهُ
إني أتيتُكَ، يا (بُنيَّ)، مؤمّلاً   رِفْدَ الكريم، فهل يُرَدُّ رجاهُ؟

إلى أن يختتم القصيدة التي تتكون من سبعة وثلاثين بيتاً بقوله:

فارْعَ الأبوّةَ، واعطِ أمَّكَ حقَّها   ولئنْ عَقَقْتَ.. فبينَنا أللهُ

كان أول ما يفعل بُعيد أن ينتهي من صياغة مثل هذه القصيدة أن يرسلها حالاً بالبريد الجوي للكويت، ثم يقرؤها بعد ذلك على صديقه الشاعر سعيد بعينين غاضبتين لا تخلوان من الاحمرار.

كان يهدد عطا إذا تأخر أسابيع عن دفع "استحقاقاته" بالقدوم إلى الكويت "ليشلع" له أذنيه أو إذا اقتضى الأمر ليلقي قصيدته شديدة المرارة أمام شيخ البلاد الأمير الصباح. كان عطا يرتجف من رأسه إلى قدمية عندما كان يطالع قصيدة الهجاء والنثر الذي يرافقها في رسالته، إذ كان نثر سليمان أشد روعة وجمالاً من شعره. كان عطا يتخيل والده السمين في ديوان الشيخ، الذي تعود على استقبال ضيوفه كل يوم جمعه ليستمع إلى شكاواهم. في مخيلته كان عطا يرى مدى التأثر في وجه أمير البلاد وهو يستمع إلى كلمات أبيه البليغة إلى أن ينفد صبر الشيخ ولا يعود يتحمل هذا العقوق فيتخذ قراره: "خُذوا هذا العطا واجلدوه.. القرآن (الذي يستنجد سليمان أيضاً به) أوصى بالوالدين إحسانا." تحت وقع هذا الكابوس اتصل عطا بصديقه محسن هاتفياً وطلب منه أن يمنحه قرضاً حتى نهاية الشهر.

سليمان كان يتخيل أن دخل ابنه كبير للغاية، وعطا لم يكن يريد أن يعترف أنه على الرغم من بذلتة الأنيقة فدخله لا يكفي لقفزات كبيرة ولحياة ميسرة في الكويت ولإرضاء طموح والده في جنين.

وعلى أي حال تغيرت حياة عائلة سليمان رأساً على عقب بعد ذهاب بكره إلى الكويت. لقد أصبحت شؤونهم ميسرة بعض الشيء وأكثر طراوة. أصبحت العائلة تقضي مجتمعة ساعات جميلة. الأطفال يلعبون ويغنون ولا يبكون جوعاً، هذا البكاء الذي يقطع القلوب. بعد القيلولة تقدم عطاف لسيلمان فنجان قهوة عربية بالهال، سكر وسط. كان يحتسي قهوته صامتاً وببطء لذيذ. وفي ذات يوم قالت له عطاف: "غريب. يقولون إنك لا تصمت في المقاهي والمجالس ويدّعون أنك شيخ المحدثين وأن الناس تسترق السمع لكلماتك، فلماذا تصمت كالبئر في البيت، يا أبا عطا؟" فأجابها سليمان: "عن ماذا أحدثك؟ عن الأدب أو السياسة؟ لن تفقهي شيئاً من كل ذلك، لأنك حمارة وفلاّحة!" احتجت عطاف بشدة: "غادرت قريتنا معك بنفس اليوم، يا شاطر." كان سليمان يهوى معاكستها ويحاول أحيانا تخفيف دمه على حسابها، ولكنها كانت لا تستلطف "طلعاته" هذه.

صحيح أن سليمان كان يحدثها ببساطة عن الحياة اليومية ومشاكلها غير المعقدة، وصحيح أيضاً أنها كانت تخلط بين اصطلاحين يرددهما أولادها كثيراً: "الرياضة" و "الرياضيات". وعلى الرغم من انعدام ثقافة عطاف إلا أن سليمان النرجسي كان لا يتورع عن قراءة قصائده لها، فقد كان بحاجة إلى سمّيعة بغض النظر عن مدى فهمهم، وفي بعض الأحيان كانت تستوعب وتتجاوب مع بعضها، خاصة عندما كانت تتناول حياة العائلة وعندما ترد فيها أسماء أولادها.

منذ أن أصبح عطا يوافيه تقريباً شهرياً بحصته الكبيرة من معاشه، ومنذ أن شب بعض أبنائه عن طوق الطفولة واقتربوا من سن العطاء أخذت معالم شخصيته تتغير ببطء. لم يعد ينفجر كالبركان ودون سابق إنذار. الآن أصبح يتمتع بقضاء ساعات جميلة مع عائلته ليحدث بناته وأولاده قصصاً عاشها أو قرأها. كانوا يتجمهرون حوله في أيام الشتاء في منتصف الغرفة وحول كانون النار. في شتاء عام 1970 روى لهم هذه القصة:

العكر – بائع الكنافة

تدور أحداث قصتي في نابلس. أظن أنكم جميعاً زرتم نابلس؟ أصغر أبنائه قال: "لا، لم أزرها بعد، خذني معك المرة القادمة". سليمان: "إن شاء الله، ولكن القصة ستزداد تشويقا لك لأنك لا تعرف هذه المدينة الرائعة. بداية أود أن أقول لكم إنها لغلطة مخيفة ألا يقوم المرء بزيارة نابلس. أنا أعترف أنني أحب نابلس، ليس لأنها من أقدم مدن الشرق الأوسط فحسب. كما أنني أهوى زيارتها، ليس فقط لأتجول في أسواق بلدتها القديمة وزواياها السحرية التي تخبيء الكثير من الأسرار والحكايا، وبالإضافة إلى ذلك أعشق جوامعها الجميلة التي تحمل عادة اسم شخص ثري بناها بعد هرمه خوفاً من الموت وطلباً لرحمة الله.. ولكن كل هذه الروائع ليست ما يدفعني بالدرجة الأولى لزيارة نابلس."

هنا قاطعه الأولاد: "لماذا تزورها إذن. قل لنا من شان الله!"

سليمان: "الصبر الصبر أيها الزعران." ومضى قائلا: "يجذبني جبل الطور وجبل جرزيم وإطلالتهما على المدينة والصور الخلابة التي يكشفها لك هذا العلو الشاهق حيث تنتشر الآثار الرومانية القديمة، كما أستلطف زيارة طائفة اليهود السامريين التي تعيش منذ مئات السنين فوق قمة الجبل. بيد أنني أقول بصراحة إن كل هذه الأسباب ليست المحرك الذي يجعلني أستغل كل مناسبة لزيارة نابلس.."

الأولاد يصيحون مرة ثانية: "لماذا إذن؟ "

لم يكترث سليمان باحتجاجهم ومقاطعتهم وأضاف: "لا أنكر أنني أهوى أيضاً اللهجة النابلسية التي يتفوه بها المئة ألف نابلسي، فهي لهجة دسمة وخفيفة الظل، وما أشطر حكواتية أهل نابلس، ويُقال إن خيرة الحكواتية المقدسيين يفضلون السكوت في نابلس. باختصار: أنا معجب بأهل نابلس ونمطهم في الحياة. كل هذه الإيجابيات التي حدثتكم عنها تستحق الذكر وذات قيمة، إلا أنني أشعر

ببعض الحرج لأنني سأقول لكم إنني أزور نابلس بالدرجة الأولى من أجل أكلة نابلسية، والمحرج في الموضوع أنها ليست وجبة رئيسية، بل من صنف الحلويات.."

الأطفال بصوت واحد: "كنافة .. كنافة.. قل من الأول إنك تعشق نابلس من أجل الكنافة، فنحن كلنا نموت في الكنافة."

سليمان: "نعم، أيها الأحباء، الحكاية كالطبخة لا تنجح الا إذا طبخناها على نار هادئة." ثم واصل كلامه عن القصة التي عاشها في نابلس في طريقه لنيل حصته من الكنافة:

"أنتم تعلمون أن الكنافة سبب شهرة نابلس في العالم العربي. في بيروت والقاهرة والكويت لن تجد محل كنافة ناجحاً إلا وكتب على يافطته بأحرف عريضة: المعلم من نابلس. جميع المقلدين غير النوابلسية أصيبوا بفشل ذريع."

سليمان كان يحرك رأسه من الشمال إلى اليمين ومن اليمين إلى الشمال وكان الأطفال يراقبون حركاته بغاية الدقة. لاحظ سليمان اهتمامهم فبالغ بعض الشيء في تحريك رأسه، وأضاف حركات جديدة من الأعلى إلى الأسفل إلى أن استقر الأمر تماماً، وبهدوء شديد أكد على ما يلي:

"الكنافة سهلة ممتنعة. لا أظن أن أحدكم يعرف كيف تُعد الكنافة، أم؟ " ثم جاء شرحه المبسط للعملية. وأضاف قوله: "لعلكم ستقولون: مسألة غير معقدة. لماذا لا نصنعها في البيت، فجميع متطلباتها موجودة. ولكن الأمر ليس بهذه السهولة. إنني أحذركم يا أهل الدار، لأن معلمي الكنافة لا يكشفون النقاب أبداً عن بعض أسرار صنعتهم، وأنا لن أنصح أحداً أن يغامر بتقليدهم. اللهم إني حذرت القاصي والداني، لأن كنافة المقلدين لن يكون لها طعم ولا لون ولا رائحة، وسيعود ذلك إلى غياب ما لا يخطر على البال مما يظنه البعض لا قيمة له ولكن الشيطان – كما يقول مثل ألماني قديم – يكمن في التفاصيل."

واصل سليمان سردة بطريقة درامية وكأنه يتحدث عن عرس تتخلله الدبكة وموسيقى الشبّابة:

"الكنافة أطيب أنواع الحلويات في العالم، ولا تؤكل الا إذا أشرف معلم نابلسي على صناعتها، ولا يوجد في نابلس أطيب من كنافة المعلم "العكر" ومحله بالقرب من جامعة النجاح يعتبر من الأماكن التي يحج إليها يوميا مئات من عشاق الكنافة."

أشعل سليمان سيجارته من جمرة في الكانون وقرّب مسنده الذي يجلس عليه قليلا من النار. هنا كاد التشوق للقصة يصل قمته فقد لفت أنظار الأطفال أن أحداث القصة الحقيقية ستبدأ الآن. تمتع سليمان بشدة تركيزهم وعيونهم اليقظة تماماً ومضى في كلامه بصوت منخفض:

"قصتي تبدأ في اللحظة هذه. عشتها شخصياً قبل نصف عام. لم يكن لدي متسع من الوقت فبعد ساعة سيتحرك آخر باص لجنين. وهكذا أسرعت الخطى حتى كدت أركض، وأخيراً وصلت واستقبلني المعلم "العكر" بطوله وعرضه، هذا الرجل الذي ذاع صيته في فلسطين وربما أيضاً في سورية ولبنان. لم يتجاوز عمره الخمسين. رحب بي قائلا: "أهلاً وسهلاً" . قلت: "ليس لدي وقت أضيعه. وقية كنافة ونصف إذا سمحت." نظرت حولي ولم أجد كالعادة سدر الكنافة على كانون النار الكبير في وسط المكان. ثم سمعت تصريح العكر المخيب للآمال بل المفزع: " للأسف نفد منذ لحظات السدر العشرين اليوم." وبصوت لا يخلو من الغضب قلت له: "جئتك من آخر الدنيا!"
وبصوت دافئ حاول العكر أن يهدئ من روعي: "بعد خمس دقائق ستتمتع بأطيب كنافة في العالم. أنت شخص محظوظ، فستكون في قمتها.. طازجة ومشهية للغاية." صفنت محدثا نفسي: "في بلادنا تتحول الخمس دقائق إلى الساعة، ولكن الباص لن ينتظرني دقيقة واحدة." لاحظ العكر نفاد صبري: "تفضل، اجلس. سأروي لك قصة قصيرة جداً، وعندما تنتهي سيخرج السدر من الفرن"، هذا ما وعدني المعلم به، وبدون أن أوافق على اقتراحه بدأ يقص علي:

"لم تعرف نابلس ولداً في طيبة محمود الذي اشتهر برضا الوالدين عليه. كان يقرأ كل رغبات الوالد من عينيه. والده كان يكرر بعزم لا رجعة فيه أن المدرسة أهم شيء في الحياة. رد الشاب المراهق بقوله "أمرك يابا" وأنهى الثانوية بامتياز. ثم أعلن الأب حالا: لا قيمة للتوجيهي دون شهادة جامعية رفيعة المستوى. أجاب الابن المرضي الوالديْن: "سأفعل كل ما تشاء. بأمرك!" وتخرج بعد أربع سنوات مهندساً بامتياز."
كان العكر يتكلم بهدوء وبطء شديد، بينما كنت أسدد نظري على باب المطبخ، فأنا لم آت إلى العكر لأسمع قصصاً. سألته: "هل أنت متأكد أن الكنافة ستكون جاهزة بعد خمس دقائق." صوتي لم يكن يخلو من التوسل، فقد كنت أعلم أن كل الأوراق بيدي المعلم. "نعم" قال العكر: "ويحك، ألا تشم الرائحة؟" ثم مضى في روايته قائلا: " أين توقفنا؟ آه، وصلنا إلى أن الابن أصبح متعلماً، ولكن طموحات أبيه لم تتوقف عند هذا الحد. "حان وقت زواجك." قرر الوالد فاستجاب الابن: "بأمرك!" "ستجد أمك لك العروس المناسبة"، وافق محمود بهز رأسه ثلاث مرّات وبقوله: "بتمون أنت وأمي"، وبعد ذلك بأسابيع قليلة تزوج محمود بنتاً من الحارة الشرقية. مرت أيام قليلة ليعلن الوالد: "لا ينقصك الآن سوى البيت"، وافق محمود دون تردد وبدأ بنقل أمتعته وأمتعة زوجته إلى بيته الجديد."

سليمان رفع صوته بحدة، وأطفاله حملقوا بكثير من الفضول بتعبير وجهه الجدي. ثم قال بعد أن رفع وتيرة صوته مرة أخرى: "ليذهب الأب وابنه للشيطان" – هذا ما حدثت به نفسي – "أين كنافتي؟" لم يكن المرء بحاجة إلى ذهن ثاقب ليلاحظ أن العكر، هذا الثعلب المحنك، كان يطوّل قصته بأشباه جمل أقرب إلى "طق الحنك" ليكسب بعض الوقت. لا أريد هنا - لكي لا أضيع وقتكم الثمين - أن أعيدها على أسماعكم. لكنني بدأت أنظر إلى ساعتي بقلق، باصي.. رجل الأعمال المجرب يواصل كلامه على النحو التالي: " إنك تجيد الاستماع وهذه ظاهرة أصبحت نادرة في أيامنا، أطال الله عمرك. كما ذكرت لم يعد الشاب يسكن في بيت أهله ولكنه كان يزوره يوم الجمعة. وأثناء زيارته الأولى سأله والده: "كم تحمل معك من النقود؟" فأجاب محمود: "مئة دينار." عندها قال الأب لابنه: "أود أن تلقي هذا المبلغ في المرحاض وأن تضغط على السيفون"، وهذا ما فعله الابن، ولو أنه شعر بهزة صغيرة من رأسه لقدميه."

من فم واحد صاح أولاد سليمان:"كل هذه الفلوس ذهبت من غير رجعة. هل أصيب الأب بالجنون ولماذا ينفذ الولد أوامر الأب المجنون؟"

طلب سليمان بصوت جازم من أبنائه الالتزام بالهدوء: الصمت ثم الصمت لنترك الكلام للمعلم العكر الذي لم ينهِ بعد قصته:

" أثناء زيارة الجمعه القادمة يعلم الأب أن ابنه محمود يحمل معه خمسين ديناراً، فأمره حالاً برميها في غياهب المرحاض، وكالعادة نفذ وحيده المهمة "بجدارة" ودون أي تردد أو مقاومة فهو كما ذكرنا مرضي والديْن.

ثم بعد عدة أسابيع زار محمود بيت والده في أحد أيام الجمعة وبعد فنجان القهوة سأله الوالد: "وماذا عن اليوم، كيف أنت والفلوس؟" لأول مرة نظر الابن إلى أبيه بتحد وتوتر وجاءت كلماته كطلقات مدفع رشاش: "معي مئتا دينار وقد حصلت عليها من كدّي وعرقي.. وإذا أمرتني أن ألقي بها في حوّامة المرحاض فسأقول لك: تستطيع أن تفعل ما تشاء، أن تطلّق أمي، أن تشعل البيت ناراً أو أن تشنق نفسك ولكن لا توجد قوة في العالم تستطيع أن تنتزعها مني، ولن أقذف بفلوسي التي حصّلتها لأول مرة بعد جهد جهيد في المجاري!

سألت المعلم العكر بحماس: "كيف كان رد فعل الأب؟"

"نعم"، أجاب العكر، وكان لأول مرة ينظر بثقة عالية بالنفس وبكل اعتزاز إلى باب المطبخ الذي خرج منه سدر الكنافة لتوه ووُضع فوق كانون النار، ولكنني في تلك اللحظة لم أكترث كثيراً لذلك.
كررت سؤالي: "ماذا فعل الأب؟"
العكر: "هجم الأب على ابنه، أخذه بالأحضان، قبله بحرارة وقال له بود يختلط بالعصبية: شكراً للإله. أخيراً أصبحت رجلاً وإنساناً ناضجاً."

هنا انتهت قصة العكر وبعدها جاء صحن الكنافة الطازجة الساخنة. كنت أمضغها بروية وأحرص على التحكم بخيط الجبنة البيضاء الذي يربط صحن الكنافة بفمي. شعرت وقتها بارتياح ومتعة وقلت لنفسي ما أحلى نابلس وزياراتها. المرة القادمة سأحضر معي الكثير من الوقت، نابلس كالحكاية، والحكاية كالطبخة – وكما قلت لكم الطبخة لن تنجح إلا إذا طبخناها على نار هادئة."
صفن الأولاد وكان كل منهم يفكر بالحكاية حسب عمره ونضوجه. أصغرهم لم يفهمها ولم يستوعب سوى أن الأب أهبل، لأنه طلب أكثر من مرّة من ابنه أن يلقي الدنانير في المرحاض. أخوه الأكبر كان يرفض أن يشرح له المقصود من القصة واكتفى بالقول: "أنت غبي وحمار." اندلع خلاف بين الأخوين كاد يصل إلى شجار لولا تدخل سليمان الذي قال بصوت حازم: "الأب لم يكن غبياً وإنما الابن.. والآن أعدوا حقائب المدرسة فقد حان الأوان."
الأولاد كانوا معجبين للغاية بسليمان وقصته وطريقته المسرحية في روايتها، ولكنهم كانوا يعلمون أن مزاجه قد ينقلب من ساعة لأخرى. وبما أن سليمان تسلم بالأمس شيكاً من عطا فإنه يشعر بالسعادة، وفي مثل هذا الوضع قلما يثور ويعربد.
بيد أن تجليه في ذلك اليوم لا يجوز أن يصرف الأنظار عن تهوره وعدم حكمته فقد كان يبالغ في تقدير دخله الحقيقي لمجرد أن لديه ابناً "كويتياً". وهكذا وجد نفسه يواجه في المحكمة الدائنين وانتهى الأمر بسجنه في سبتمبر عام 1956. لم تتألم عطاف كثيراً على احتجازه بضعة أيام في سرايا جنين التي بناها الإنجليز في العشرينات فهي تعرف قدرته على التحمل والمقارعة في مثل هذه الحالات، ولعلها فكرت أنها سترتاح قليلاً من مصاريفه العالية: سجائر ومقاهٍ وكميات مواد غذائية ضخمة. من ناحية أخرى تضاعف الضغط على عطا، وأخيراً وصل شيكه الذي حرر سليمان هذه المرّة بكل ما في هذه الكلمة من معنى.

حسن، ابن سليمان الثاني الذي ولد ثلاث سنوات بعد عطا ولم يبلغ السابعة عشرة بعد، كان يشعر بكثير من الإحراج لأن والده كان كما كان: سميناً، فقيراً، ويتعاطى الكحول في بلدة صغيرة ومحافظة. اليوم قدم لوالده سيجارة من نوع "سيد" حال استقباله له بعد الإفراج عنه من السجن لقيام عطا بسداد ديونه. أخذ سليمان يدخنها وأصابعه ترتجف لحاجته إلى نيكوتينها الذي حرم منه في السجن حوالي الأسبوعين. لم يحيِّ سليمان حسن واستهل كلامه بشتيمة عطا: "بعث الفلوس.. هذا الكلب." حسن كان في المرحلة الأخيرة من دراسته في مدرسة جنين الثانوية. لم يكن يستوعب تماماً حقيقة العلاقة بين والده وأخيه الأكبر، ولكنه كان يرى أن عدم الالتزام الدقيق لعطا بتحويل مستحقات الأسرة المالية عمل غير مسؤول وغير مرضي، ولكنه في نفس الوقت لم يكن مرتاحاً من عدم احترام الأب لبكره وما قدمه ويقدمه للعائلة. هكذا كانت تبدو الأمور لحسن آنذاك ولكنه كان في الواقع – كما اعترف بعد سنوات – يخجل في قرارة نفسه لأنه لم يحاول أبداً أن يدعم أخاه الأكبر في هذه المهمة الضخمة التي ألقيت كلها على كاهله. كان حسن ينسحب من هموم العائلة كالشعرة من العجينة ويختبيء خلف كتبه، وسنراه بعد أيام قليله يصبح أول ابن للعائلة يحصل على شهادة المترك، وكم كانت عائلته آنذاك فخورة به، ولكن عطا، منقذ العائلة، كان هو الذي يستحق الفخر والاعتزاز. فيما بعد أصبح حسن يقيّم العلاقة بينه وبين أخيه الاكبر بشكل أدق، فبينما كان عطا ثائراً على الفقر، وساهم فيما بعد بتعليم جميع أخوته في الجامعات، كان حسن يتفاخر بشكل انتهازي بنجاحه في المدرسة، هذا النجاح الذي لم يكن فيه فائدة تذكر للعائلة التي كانت بأمس الحاجة لكل يد.

قبيل تخرج حسن من المدرسة بأيام كان يحضّر مع صديقه مروان في البيت للامتحان القادم. دون سابق إنذار دخل سليمان الغرفة فوقف الشابان احتراما له، وبعد التحية سأله حسن: "هل يمكنني أن أقدم لك أي خدمة؟" سليمان: "لا، واصلا دراستكما ولا تكترثا بي." قال ذلك وجلس صامتاً على كرسي في زاوية إلى أن أغلق الشابان كتبهما، فمد سليمان يده إلى جيبه ليخرج قصيدة كتبها لتوه عن تأميم قناة السويس وانتصار عبد الناصر على إسرائيل وفرنسا وإنجلترا. كان الشابان أول من استمع لهذه القصيدة التي كان لها وقع مثير ورائع في نفوسهما. حسن وقف وقبّل يدي أبيه وقال له: "أبدعت يابا."

مروان، الذي كان والده صاحب دكان في الحارة الغربية، كان شديد الإعجاب بسليمان، خاصة بعد استماعه لهذه القصيدة، فلم تكن تخطر على بال والده مثلا مجرد فكرة أن "يضيع" وقته بكتابة أو قراءة قصيدة. مروان وهو من أنصار عبد الناصر أيضاً كان يحسد حسن على هذا الألأ ب الذي كان كنافذة البيت على الأدب والعالم الفسيح. كان يعلم أن حسن ينتمي إلى عائلة فقيرة، وطالما عرض عليه أن

يتقاسم معه فلوس جيبه ولكن حسن كان يرفض بعزة نفس الفقير ولأنه كان لا يستطيع أن يرد الكرم.
وخلافاً لمشاعر مروان الإيجابية تجاه العم أبي عطا فإن مشاعر حسن إزاء أبيه كانت مركبة وخليطا من الاحترام والإعجاب والخوف والحب والكراهية. لم يكن يعرف حقيقة هذه التناقضات التي ظلت ترافقه عقوداً كثيرة من حياته.
كانت بعض تجاربه مع أبيه قاسية. حسن يروي وقد بلغ عمره حوالي الخمسين عاما القصة التالية لأختيه أنيسة ونازك، وككثير غيرها من القصص حدثت في شهر رمضان أيضاً:
" قبل غياب الشمس بدقائق أرسلني والدي لأنور أفضل بائع ليمونادة في جنين. أخذت معي إبريقاً زجاجياً يتسع للترين. أسرعت الخطى فقد كنت – وعمري آنذاك حوالي الحادية عشرة – جائعاً وعطشان. بيد أن أنور لم يكن للأسف في مكانه فقد ذهب كما يبدو إلى البيت ليتناول وجبة الإفطار. قررت رغم جوعي وعطشي أن أنتظره لكي لا أعود خالي الوفاض. عاد أنور بعد ربع ساعة من أذان المغرب، فأخذت أعدو لكي لا أتأخر على الأهل وخاصة الوالد الذي كان يحب أن يكسر صيامه بكأس ليمونادة. كان ينتظرني على الباب والشرر يقدح من عينيه وقبل أن أوضح له الأمر صفعني بكل ما لديه من قوة. قلت له باكياً: "لم أكن ألعب، فقد انتظرت أنور.." هذا التصرف الأحمق كان مهيناً وظالماً وأصابني في الصميم. لم يعتذر الوالد عما فعل، ومن ناحيتي قاطعت طعام الفطور. بعد سنوات شعر والدي بالذنب وفي رسالة تلقيتها منه في ألمانيا بعد عشرين عاما من حادث الليمونادة اعتذر قائلاً إنه كان عليه أن يسأل أولاً عن سبب التأخير. لا أظن أنني غفرت له آنذاك."
لاحظ حسن أن مزاجه ومزاج أختيه تعكر على أثر روايته للحادث الذي أكل الدهر عليه وشرب، فقرر أن يسرد لهما ما يبعث الفرح:
"أنتما تعرفان الوالد ومدى اهتمامه باختيار نوع اللحمة حسب كل طبخة، وفي أحد الأيام وقع الاختيار على الكوسا وورق الدالية. كلف هاني بشراء كيلوغرام من اللحم على ألا تزيد اللّيّة (الشحم) فيه عن قطعة بحجم رأس العصفور. وبعد تناول طعام الفطور كان المرحوم يود كعادته أن "يتغزل" باللحم الذي اشتراه هاني، فوجد — يا للهول — أن القطعة تتكون جميعها تقريبا من الشحم وهبرتها بحجم رأس الدويري. فقد الوالد صوابه. كنا – الإخوة الثلاثة صائب وهاني وأنا – نتناول طعام الفطور ونجلس على مساندنا حول الطاولة (الطبلية) المستديرة التي لا يزيد ارتفاعها عن طول المسطرة. دفعة واحدة سمعنا الوالد يصيح ويرغي ويزبد ويوجه كلامه للجاني هاني، الذي وقف متأهباً لأسوأ الاحتمالات. الوالد بأعلى صوته: "يا كلب يا ابن الكلب.. قلت لك قليلاً من الشحم.. ماذا فعلت يا حيوان؟" قبل أن

يرمي أبوه قطعة اللحم في وجهه فرّ هاني تاركاً خلفه الباب مفتوحاً فما كان من سليمان إلا أن رمى قطعة اللحم خلفه إلى الشارع العام أمام البيت. شاهدنا صائب وأنا هذا المنظر المضحك: الشتائم، هاني الهارب وكرش الوالد يهتز مع حركاته أثناء رميه للَّحم، فأخذنا نضحك. وإذ بالوالد يصيح بي: "وأنت ويلك، يا حمار، رأيتني رميت اللحم للشارع، فلماذا لا تسرع وتحضره!"..

"كان من الممكن أن أسأله (متساقعا): لماذا رميته إذا أردت أن نحضره، ولكنني لم أجرؤ، فركضت قبل أن تسبقني إحدى قطط الحي التي كانت تشبه النمور."

حسن وأختاه ضحكوا من كل قلبهم حتى تدفقت الدموع من أعينهم. أنيسة أسرعت قبل أن يفوت الأوان للمرحاض كعادتها عندما تأتيها موجة عاتية من الضحك. وبعد قليل خيم الحزن من جديد على وجه حسن.

تمثال الوالد يتحطم

تردد حسن قليلا قبل أن يواصل كلامه ثم استطرد قائلا لأختيه: "سأحدثكما قصة أخرى، ولكنها هذة المرة مؤلمة للغاية، صارت لي مع الوالد. سأسألكما في بداية كلامي: ماذا يحدث لروح مراهق عندما يتحول والده أمامه خلال دقائق من عملاق إلى قزم؟ لأول مرة في حياتي أتطرق إلى الكلام عن هذا الموضوع أمام آخرين، وكم حاولت أن أمحوه من ذاكرتي دون جدوى. بعد هذا الحادث أصبحت أرى والدي بعينين مختلفتين تماما. أصبح يبدو أمامي كرجل مشوه ولم أستطع أن أتخلص بسهولة من الصور التي تلاحقني."

ومضى حسن قائلا: "مكان القصة فيلا أنيقة – هكذا كانت تبدو لي في أيام الفقر – كانت تبدو لي بالمقارنة مع بيتنا كالبيت الأبيض. نعمان، صاحب البيت، كان شاباً مهندماً لم يتجاوز عمره الأربعين. أولاد البلد كانوا يسمونه صاحب الخمّارة وفيها كانت تدور الكؤوس والفلوس ففي هذا "المقهى" كانت تُرتكب المحرمتان في ذات الوقت: الخمر والميسر. كنا نعلم جميعا أن الوالد من الزبائن الدائمين الذين يترددون على هذا المكان سيء الصيت في بلدتنا المحافظة.

كان صاحب الحانة يتلقى دخلاً لا بأس به مقابل جرأته على تحدي أهل البلدة ومقابل خدماته النادرة لعشرات الزبائن. هذا الدخل مكّنه من الهرب من بيت عائلته التي كانت تسكن في قبو تحت سطح الأرض بالقرب من بيتنا في نهاية الزقاق. عطا وأنا كنا نهوى التردد على هذا القبو ربما لأن والدنا منعنا من الذهاب إليه. ومن ناحية أخرى لم يكن من السهل مقاومة جاذبية المكان لأننا كنا نلمس – دون أن نعي ذلك– أن ناسه أحرار، خاصة حسّان. حسّان كان كسيحاً ويتحرك على مؤخرته ويدفع نفسه بيدية وكأنه يجدّف بهما. لم يتجاوز عمره الثامنة عشرة، من الصعب تحديد لون بشرته فقد كانت دائماً تختلط بالتراب ولعلها كانت تميل كأسنانه إلى الصفرة، فوجهه الذي كان يغسله ربما مرة في الأسبوع كان قلما يرى الشمس. كانت جميع الأبواب مغلقة أمامه: ترعرع دون أن يرى مدرسة من الداخل وقلما كان يُحمل إلى خارج السكن. والده كان يعيل أسرته من بيع "الهريسة" – بالمناسبة أطيب هريسة أكلتها في حياتي. كان يتجول بسدره في أطراف المدينة. عرفت عندما شاهدته يصنعها أحد أسباب المرض في بلدتنا، فقد رأيت بأم عيني أن أبسط شروط النظافة لم تكن متوفرة.

كان حسّان شاباً نبيهاً، الذكاء والخبث يشعان من عينيه. فرصته للخروج من هذا القبر كادت تقترب من الصفر. لم يكن أمامه سوى منازلة الآخرين من خلال الكلام المبتذل، الذي كنّا آنذاك نعتبره بغباء ثورة.. ثورة على الفقر، على جنين وعقلية الناس فيها التي لم تتغير منذ مئات السنين. ربما يمكن القول إنه كان يصارع طبقياً – دون أن يدري – ولكن بمستوى متدنٍ للغاية. بيد أننا، عطا وأنا، كنا نحبه ونتقاسم معه الفرح والحزن وآخر قطعة من الخبز. كنا نعتقد أنه أقوى منّا، فلم يكن لديه ما يخسره. كان يشتم معنا بكلمات لا توصف في انحطاطها أستاذ الأحياء المشهور بلؤمه وساديته، وكان حسّان هو الذي علمنا كيف نمارس العادة السرية دون أن نصاب بأي أذى. كنت تشعر أنه كان يبحث - دون جدوى - كأخيه نعمان عن طريق غير شرعي للخروج من القبو.

أخوه نعمان، هذا الشاب المهندم، خرج إلى الأبد من هذا البيت، خرج من تحت الأرض.. متحدياً إسلام جنين ومسلميها وعندما فتح باب الخمّارة في الشارع الرئيسي قرر ألا يفتح باب سكن أهله أبداً، كما منعهم من الدخول إلى "فيلته"، باستثناء أمه التي كان يسمح لها بتنظيفها مقابل قروش قليلة.

شاءت الصدف أن كنا، الوالد وأنا، ذات يوم في طريقنا من بيت عمتي إلى الدار حين رأينا نعمان أمام داره فرحب بنا أيما ترحيب ودعانا لزيارته وألمح للوالد أن كأسا ينتظره. لم أشعر بالارتياح فأنا أمقت هذا الرجل الذي أعتبره ساقطاً ومريباً. من ناحية أخرى كان لدي قسط غير قليل من الفضول وحب معرفة هذا النوع من البشر الذي نقرأ عنه في الروايات البوليسية. رفضي كان أقوى من فضولي في تلك اللحظة،

ولكن أبي قبل الدعوة بحماس ولم يكن أمامي الا الانصياع لرغبته، خاصة وأنني كنت أشعر أنني في حمايته، وأغلب الظن أن والدي ما كان ليُدعى للدخول لو لم أكن برفقته. كنت وقتذاك في السادسة عشرة وأظن أنني كنت رشيقاً ومقبول الشكل وأميل إلى لونين محببين للناس في هذه البقعة من العالم: البياض والشقرة. زاد نفوري من البيت عندما دخلت: غرفة الجلوس بكنباتها الحمراء والطاولة الزجاجية التي كانت تعج بأنواع الخمر المختلفة.

وبعد لحظات قدّم نعمان لوالدي كأس عرق وكثيراً من الثلج. استغربت حين قدّم لي أيضاً كأساً من العرق فرفضت بحسم وأدب. داخليا كنت أغلي وأتوقع أن يوبخه الوالد ولكنه لم يفعل، وشرب بدلاً عن ذلك بصحة نعمان."

هنا قاطعت نازك حسن وقالت له: "تذكرت الآن نعمان، هذا، ابن الحرام. ولكن بيته لم يكن بهذه الفخامة التي وصفته بها. لا يمكن القول عنه أنه كان فيلا "، فرد عليها حسن بقوله: "قلت، يا نازك، إنني اعتبرته كذلك بالمقارنة مع بيتنا، ولكن معك كل الحق أغلب الظن أنه كان بيتاً عادياً.." ومضى حسن مكملاً قصته:

"كنت أشعر أن نعمان كان مستأنساً بوجودي ويصبو إلى التقرب مني، فوالدي كان بالنسبة له في أحسن الأحوال أديباً "كحْياناً". كان الشعر بالنسبة لي أهم بكثير من المال، ولكنه كان بالنسبة لنعمان التافه الهارب بنجاح من براثن الفقر، بالنسبة له كان شعر أبي وكل قصائد فحول شعرائنا بما في ذلك المعلقات لا تساوي شيئاً، بل كان شعر أبي مبعثاً لضحكه وسخريته. كان نعمان يعلم تماماً أنك لا تستطيع أن تسدد ديونك في جنين بأبيات من الشعر. وكنت أشعر أن خلف التأدب واللسان الحلو في بيت نعمان تكمن هجومية همجية وقسوة. كل هذه الخواطر لم تكن ذات قيمة من زاوية والدي، فهو في هذه الحالة لم يكن يفكر أبعد من الكأس وربما حتى أول زجاجة عرق، فلم يكن من السهل دائماً في جنين أن يشتري المرء أنواع الخمور المختلفة."

نازك قاطعت حسن مجدداً وأرادت أن يصل بسرعة إلى صلب الموضوع: "ماذا حدث بعد ذلك؟" استطرد حسن: "لم أكن أشعر بالارتياح، فنظرات نعمان كانت مثقلة بالتحدي، وأظن أنه لاحظ أن والدي كان مثلي الأعلى ومعلمي الأكبر، فأراد أن يحط من قيمته. لم يكن والدي يتوقع ذلك أبداً فقد كان مشغولاً بإعداد كأس آخر، وعندما جلس كان يحرك قدمه بإيقاع ولم يبق إلا أن يرقص من شدة بهجته. ثم جاءت كلمات نعمان التي تقطر دماً: هل تتذكر أبو عطا عندما كنا نلعب هنا على هذه

الطاولة بوكر، وكيف أمسكت بيدك وأنت متلبس بعطالة الغش؟ فرد والدي بكل بساطة: نعم، نعم، أتذكر جيداً، أجاب دون أي إحراج وكأن هذا القواد قد سأله عن الساعة. ثم حملق نعمان بوالدي وأخيراً بوجهي ليقول لأبي: هل تتذكر كيف صفعتك عقابا لك على حرمنتك؟ بدأت أشعر بوجع شديد في مؤخرة رأسي، ولكنني كنت أنتظر أن يقول له أبي: لعلك لم تنس أيضاً كيف تصديت لك بلكماتي ولعنت أباك. ولكن الوالد ظل يهز قدمة اليمنى ويتمتع بكأسه ليقول: "حصل!" لم يعتبر الوالد أن هذا الكلام كان يقلل من شأنه، فلم يكن يكترث الا بتفريغ كأس وملء آخر. كان نعمان يتخيل الآن أنه انتزع سيادة أبي عليَّ وأنه احتل مكانه. ودون مقدمات قلت: "استودعكما الله. أنا مضطر للذهاب، لأن صديقي مروان سيأتي الآن إلى بيتنا لنذاكر معا. لم أنتظر موافقتهما وبسرعة البرق كنت أجري إلى البيت."

هنا توقف حسن عن الكلام وأخذ يتفحص تعابير وجهي أختيه عندما سألهما: "ماذا تعني حياة المراهق بعد أن تحطم تمثال أبيه؟ هل ما زال نفس الأب وهل ما زال نفس الشاب؟.. بعد أن مرت سنوات كثيرة أصبحت أشكر صاحب الخمارة لأنه صفع والدي، فبدون هذه الصفعة كنت ربما لن أتحرر من سطوته وأكوّن شخصيتي المستقلة. ولكن في البداية لم أبح بالقصة لأحد، كانت كالكابوس الذي يلاحقني ليل نهار. كنت أسأل نفسي: إذا كان والدي وهو قدوتي وبطلي، منبطحاً إلى هذه الدرجة، فماذا سيكون مصيري، فقد كنت أشعر أنني صغير جداً بالنسبة له؟ كيف أستطيع أن أواجه مصاعب هذا العالم الآن؟ وعندما اقتربت من الثلاثين أصبحت أدرك أن والدي لم يكن جباناً وإنما كان غرقان في مستنقع الكحول والميسر. كان يستطيع أن يتصدى لجيش ولكنه كان أعجز عن مواجهة شخص يجسد له المشروبات الروحية والميسر وكأن نعمان كان شيخ شياطين اللذة والمتعة. لم يفكر والدي لحظة واحدة بمشاعري أثناء هذه الجلسة الفاضحة لأن لذته كانت طاغية على أي شيء آخر. صحيح أنه كان أباً لعشرة بنات وأولاد ولكنه كان يحرص دائماً على حصته من الكعكة التي كانت دائماً أكبر قطعة – خلافا لزوجته عطاف التي طالما تنازلت عن كل حصتها لصغارها."

حسن كان يشعر بإرهاق شديد بعد أن سرد قصته المخيبة للآمال. كان يقول لنفسه:

ماذا دهاني، وهل كان من الضروري أن ننبش القبور وأن نتذكر أسوأ الأشياء، كما أنه لم يكن متأكداً فيما إذا بالغ في سرد بعض التفاصيل.

نازك ظلت غارقة في التفكير إلى أن قالت: "يا الله.. لقد كان والدنا نمرة فريدة من نوعها. شخصية قلما تتكرر في الدنيا. يا إلهي، كم عانينا، والغريب أننا نحبه ونحترمه! أم ؟ ماذا تقول يا حسن؟ "

كما علمنا في سياق آخر، حسن لا يستطيع الإجابة على هذا السؤال بنعم أو لا. ولكن هناك ميادين يحبه فيها إلى أبعد الحدود، لا بل وما زال يعتبره فيها قدوة وقمة للاحترام كما روى لأختيه:

"بعيد انتهاء الفترة المحرجة في سجن جنين والناجمة عن تأخيره في سداد ديونه تم القبض عليه مرة أخرى وإن اختلفت الأسباب، ففي هذه المرة سُجن لأنه عبر عن رأية بطريقة لم يرتح لها رئيس مقاطعة جنين. كان ذلك في عام 1956 بعد قيام الزعيم المصري جمال عبد الناصر بتأميم قناة السويس. انتصر عبد الناصر عندما تصدت القوات المصرية للعدوان الإسرائيلي-الفرنسي-البريطاني وأرغمها بعد الدعم السوفييتي-الأمريكي على الانسحاب من شبه جزيرة سيناء. في هذه الحقبة التاريخية المهمة رفع عبد الناصر شعار الاستقلال: "ارفع رأسك يا أخي فقد ولّى عهد الاستعمار!" كانت العواطف وقتذاك هائجة.

وبناء على أمر ملكي مُنع الاستماع في المقاهي والأماكن العامة لإذاعة "صوت العرب". كانت منطقة جنين كبقية المناطق في الضفة الغربية في تلك الأيام تحت سلطة الملك حسين. وعندما بدأ تعليق أحمد سعيد المعلق الأول في هذه الاذاعة، هذا المحرض والديماغوجي الخطير، خشي صاحب المقهى الصيفي أن يخسر رخصة المحل، فقام وحوَّل إبرة الراديو إلى أغنية من أغاني أم كلثوم التي يقدسها الجمهور؛ لكن، الآن لم يكن وقتها. هنا وقف سليمان، ذهب لصاحب المقهى وقال له بصوت مسموع من كل روّاد المقهى: "جميعنا هنا نريد أن نسمع أحمد سعيد. أنا أتحمل مسؤولية كلامي. الملك يستطيع أن يسمع راديو لندن كما يحلو له. ولكننا هنا عرب ونريد أن نسمع "صوت العرب". تعيش الثورة المصرية. يعيش جمال عبد الناصر." كاد الناس في المقهى يثورون من شدة الحماس، فالوضع في جنين وجميع أنحاء فلسطين وربما العالم العربي كله كان مكهرباً وموجهاً من هذا البطل الذي علم العرب من جديد أن يرفعوا رؤوسهم ويعتزوا بأنفسهم ولا يقولوا ما كان يُردد باستمرار قبل 1952: العرب جرب. لم تكن هذه الحقبة – كما كان يرى معظم المواطنين – تتميز ببحث الناس عن الديمقراطية، التي لم يجسدها عبد الناصر، وإنما عن الذات والهوية والتحرر من الاستعمار.

كان رمزي يجلس في زاوية مظلمة من المقهى وكان يلاحق تطورات الموقف باهتمام. وبهدوء انسحب من الجلسة وعيون الجميع تلاحق خطواته. كان الكل يعلم أن هذا المخبر الحقير سيعد بعد دقائق قليلة تقريره بسليمان. بعد ساعات طرق شرطي باب بيت سليمان. والدي قال لعطاف: أعطني الشنطة من فوق الخزانة. كانت أغراضه مُهيأة للسجن. هذه المرة نُقل مع مئات المعتقلين إلى سجن نابلس. كانت الشوارع

في تلك المرحلة تعج بالمظاهرات المؤيدة للحركة الناصرية. أيضاً البعثيون وحركة القوميين العرب بزعامة الدكتور جورج حبش كانوا يساهمون في قيادة الشارع المؤيد لعبد الناصر.

في سجن نابلس كان المطبخ سيئاً للغاية، وكان سليمان يصاب بالقشعريرة عندما يتذكر الوجبات التي تخرج من هذا المكان الكريه. ولهذا وقع الاختيار عليه ليتكلم باسم لجنة تقرر أن تتفاوض مع مدير السجن بهدف تحسين نوعية الأكل.

عقد سليمان الهمة على القيام بدوره على أجرأ وأفضل وجه. أحضر معه رغيفاً وطلب من المدير أن يجرب قطعة منه. استغرب المدير، وهو ضابط نحيف وقصير القامة وعمره يبلغ الخمسين تقريباً، وقال: "لماذا؟" سليمان طلب منه مجددا أن يفعل: "رجاء، جرب قطعة، إذا سمحت؟" بدأ المدير يلوك قطعة صغيرة، فسأله سليمان: "كيف طعمها؟" فأجاب: "لا تخلو من المرارة!" فأضاف سليمان: "ابلعها إذا سمحت." بلعها الرجل دون أن تكون لديه أية رغبة، ثم عاد سليمان للسؤال: "كيف؟". أجاب مدير السجن والزعل يبدو على وجهه: "فيها شيء من الرمل!" عندها هجم سليمان عليه، سحبه من تلابيبه ودفعه الى الخلف وصاح في وجهه: "ماذا بقي؟ لا يوجد ما هو أسوأ من ذلك، أيها القزم." حاول بقية أعضاء الوفد أن يُهدئوا من روع سليمان ولكنه ظل هائجاً: "العائلة المالكة تنهب الشعب.. ونحن هنا.." ألقى الجنود بأعضاء اللجنة الثلاثة في زنزانتهم. بكثير من الاعتزاز قال سليمان لبقية المعتقلين: "أعطيت هذا البندوق درساً لن ينساه."

بعد ثلاثة أشهر كان حسن يستقبل أباه خارج سجن نابلس بالأحضان. كان فخوراً به إلى أبعد الحدود، وكان قد ولّع له سيجارة "السيد" التي أخذ سليمان يدخنها بعصبية وهو يقول لابنه إن السجن للرجال وأنه قضى فيه أجمل أيام حياته. "في الصباح، يا ولدي، كنّا نهز جدران السجن حين ننشد الأغاني الوطنية. كنا نستهل اليوم بقصيدة موطني لإبراهيم طوقان. سليمان أخذ يدندن بأبياتها الأولى:

مَوطِنِي
الجلالُ والجمالُ والسَّنَاءُ والبَهَاءُ
في رُبَاكْ
والحياةُ والنجاةُ والهناءُ والرجاءُ
في هواكْ

هـلْ أراكْ

سالِماً مُنَعَّماً   وغانِمَاً مُكَرَّمَاً

هـلْ أراكْ في عُـلاكْ

تبلُغُ السِّمَاكْ

مَوطِنِي ....

كنا نردد أيضاً أشعار أحمد شوقي (1886- 1932) ومقاطع من قصيدته المشهورة:

وَلِلأَوطانِ في دَمِ كُلِّ حُرٍّ   يَدٌ سَلَفَت وَدَينٌ مُستَحَقُّ

وَمَن يَسقي وَيَشرَبُ بِالمَنايا   إِذا الاحرارُ لَم يُسقوْا وَيَسقوا

وَلا يَبني المَمالِكَ كَالضَحايا   وَلا يُدني الحُقوقَ وَلا يُحِقُّ

فَفي القَتلى لأَجيالٍ حَياةٌ   وَفي الاسرى فِدىً لَهُمُ وَعِتقُ

وَلِلحُرِّيَّةِ الحَمراءِ بابٌ   بِكُلِّ يَدٍ مُضَرَّجَةٍ يُدَقُّ

حسن ضم والده، وكم كان يتمنى في هذه اللحظة لو شاهده كل أصدقائه معه أمام سجن نابلس. عطا كان أيضاً فخوراً بأبيه، فأرسل قبيل خروجه من السجن شيكاً إضافياً. عطاف لا تستطيع أن تحلل الوضع السياسي، ولكنها كانت على ثقة كاملة أن أبا عطا يناضل من أجل قضية عادلة. الجو العام وأقوال أولادها المؤيدة دون أدنى تردُّد تركت مفعولها على عطاف التي لاحظت أيضاً أن خيرة شباب البلد كانوا آنذاك في السجون.

لم يثن أولاد سليمان دائماً على أبيهم، لكن الحال كان مختلفاً في ذلك اليوم، ففي حالات غضبهم وعندما لم يكن يسمعهم كانوا يصفونه "بالسكير". عطاف كانت تتأثر كثيراً وتدافع عن رفيق حياتها بضراوة. كانت تعرف نقاط ضعفه ولكنها لم تكن تسمح لأحد منهم بالنيل منه. كانت تطالبهم دائماً باحترام أبيهم، فهي ترى أنه عمل المستحيل لعائلته ولكنه للأسف كان قليل الحظ.

بيد أن سليمان لم يكن بحاجة لمن يدعمه، فلم يكن أحد من أبنائه ليتجرأ على مواجهته. أيضاً عطا الذي سلمه راية العائلة وأصبح معيلها الوحيد كان ينحني احتراماً لأبيه في كل مناسبه. في غيابه كان لا يعبر دائماً عن إعجابه به. سليمان كان يتمتع بكل هذا الاحترام ليس بسبب قوة شخصيته وقوته الجسدية فحسب، وإنما أيضاً لأن تقاليد آلاف السنين تقف إلى جانبه وفي صف الآباء في الشرق حتى

يومنا هذا. ليس من قبيل الصدف أن يسمى الأب في بلادنا "رب العائلة" وأن يسمى صاحب الشركة "رب العمل". الله لا يحفظ سيادته الربانية على عباده فقط. المؤمنون بالله وضعوا في بلادنا بعضاً من روح الله على الأقل لفظياً في الآباء وأصحاب العمل.

سليمان يرشح نفسه لمجلس النواب

صحيح أن الفقر المهين، للروح والجسد على حد سواء، والذي أثقل كاهل عائلة سليمان قد انقشع منذ العبور التاريخي لابنهم البكر للصحراء، إلا أنه لا يمكن القول إن العائلة أصبحت ترفل في الرفاه.
ورغم إمكان نعت سليمان بصفات كثيرة، إلاّ أنه من الصعب أن يُعتبر من الأشخاص المنظمين، بيد أن هناك أموراً يتمسك بحذافيرها بشكل ملفت أحياناً: من ذلك مثلاً حرصه على تسجيل ابنه الرابع عثمان بعد الولادة مباشرة في دائرة النفوس، تماماً كما فعل مع باقي أبنائه. وهو لا يفعل ذلك طمعاً في الحصول على مساعدة مادية أو إعانة للأطفال، إذ من المعروف أنه لا وجود لمثل هذه الإعانات والمساعدات الاجتماعية في الدول الفقيرة، وإنما يريد بهذا الفعل التأكيد على أن أولاده مواطنون وأن لهم حقوقاً. كما يحاول أن يحفر في أذهان أبنائه مبدأ يعتبر التمسك به ضرورياً للحياة: "عليك الدفاع عن جواز سفرك كما تدافع عن حياتك، ولا يحق لأحد انتزاعه منك". هل يا ترى هناك علاقة بين هذا الموقف وفهمه الخاص لهويته؟ سنعود إلى هذا السؤال، لأن له علاقة بوجهات نظر سليمان السياسية.
أما الآن فلننتهز مناسبة ولادة عثمان للإشارة إلى تطور جديد في حياة العائلة التي فيها الرضيع والطفل والمراهق والبالغ. هذه العائلة لم تعد تتحمل أو ترغب في البقاء في سكنها، الذي يتكون من غرفة واحدة، وإن كانت مساحتها سبعين متراً مربعاً.
ذات يوم، وكان ذلك في عام 1955، قرر الأب احتلال بيت شقيقته وصفية، وذلك في وقت كانت فيه فكرة احتلال البيوت الفارغة، حتى لدى أكثر الحركات اليسارية تطرفاً في أوروبا، من المحرمات. كان البيت، الذي فرغ حديثاً، مكوناً من طابقين وخمس غرف ويقع على بعد 200 متر من سكن العائلة. وكان أن أمر سليمان ابنه هاني، النحيف كالعود، بالتسلق على السطح ودخول البيت من البرندة لفتح الباب من الداخل. ولم تستغرق عملية الانتقال إلى "القصر" -كما كان يسمى بيت العمة- إلاّ سويعات، فقد تلاقفت أيدي الأبناء وأطفال الحارة العفش البسيط وركضوا به وهم يغنون ويلعبون إلى البيت الجديد. أما وصفية التي كانت تعيش وتكدح في الكويت، والتي خططت لأن يكون هذا البيت بمثابة ذخر لها في تقاعدها، فقد لطمت على رأسها حين وصلها الخبر وصرخت "يا

الله، هذا قدري، فلا أنا أقدر على مقاضاة سليمان، ولا يمكنني الطلب من الشرطة أن تلقي أطفاله على قارعة الطريق، لأن أهالي جنين سيبصقون في وجهي". وهكذا احتلت العائلة البيت للسنوات الثلاثين التالية. وبعد عقدين من الزمن راحت الحاجة وصفية تتباهى، بأن عائلة سليمان الكبيرة، التي تولعت بها مع الأيام، تعيش سعيدة في بيتها. ولم تتطرق يوماً ولا بكلمة واحدة إلى أنها في الأصل عارضت الأمر وفكرت ولو لثوان حتى في رفع دعوى ضد سليمان. لكن وفيما بعد، وهذا ينبغي أن يقال هنا، فإنها لم توافق على احتلال بيتها فقط، بل وأيدته بقلب ورب. وبما أن الله حرمها من الأطفال، فقد ازداد تعلقها بعائلة سليمان الغنية بالأطفال. وبشكل مفعم بالأمومة والرغبة في مشاكسة الصغار، أحبت العمة المسنة كل طفل تقريباً، أولا عطا ثم حسن والآخرين. وربما لذلك أيضاً بقي قلبها شاباً ومفعماً بالحيوية. وبعد سنوات طويلة عادت إلى جنين وسكنت بيتاً قريباً من "القصر"، وكان أبناء سليمان يتناوبون على النوم عندها. وقد اعترفوا لاحقاً بأن الاستيقاظ معها في الصباح، وخاصة في الشتاء، كان جميلاً ويبعث النشوة في القلب، فالعمة تستيقظ في الفجر وتصلي صلاة الصبح ثم تشعل كانون النار المصنوع من النحاس والمزينة حوافُّه. وكانت تعمل القهوة في دلة نحاسية صغيرة في الكانون، وعندما يستيقظ أولاد أخيها تعبق رائحة القهوة المخلوطة بالهال. وحتى بعد 30 عاماً يسترجع أبناء سليمان ساعات الصباح الجميلة تلك عند العمة وصفية، التي طبعاً لم تعرف سوى الجانب الحلو منهم.

أولاد أخيها يحبونها، يمازحونها ويغيظونها مثلاً لأنها كانت تدخن سجائرها التي تلفها بنفسها وهي صائمة في شهر رمضان، وهو أمر ممنوع طبعاً ويعتبر خطيئة. يقولون لها: "حاجة، لا فيك ولا في صيامك." فترد عليهم: "أين الآية التي تمنع ذلك؟" وأخيراً تستسلم، وتقول لهم اتركوني وشأني، وتعترف أنها لا تستطيع الامتناع عن التدخين نهاراً رغم معرفتها أن هذا غير جائز.

ومع الأيام تنشأ علاقة حميمية بين وصفية وعائلة سليمان، لكن مع استثناء بسيط: صحيح أن العمة تعايشت مع احتلال بيتها وسلمت بالأمر، إلا أنها طبعاً لا تتكفل بإصلاحه. وهنا يجدر الإشارة إلى أن عمرها كان حوالي 80 عاماً وأن البيت الكبير نسبياً المكون من طابقين مرتبطين بدرج خشبي مثبت في قاعة غير مسقوفة؛ هذا البيت كان بطبيعة الحال بحاجة إلى صيانة وعناية. وكان الأبناء الكبار يسكنون في الطابق العلوي الأمر الذي جنبهم ثورات الأب العنيفة بين الفينة والأخرى، فوزنه الذي وصل 135 كيلو غراما أصبح يحول دون صعوده الدرج المتهالك. الدرج كان يتعبه ووزنه كان يتعب الدرج. وبصورة عامة يمكن القول إن البيت الجديد بسيط للغاية والمطبخ والحمام في حالة يرثى

لها، مع العلم أنه كان بالإمكان — على الأقل نظريا – تحسينه وتطويره بسهولة. كان الماء يصل البيت مرتين أسبوعياً، وفي هذين اليومين كان يحفظ في خزان من الصفيح في أسفله حنفية.

أما ما يسمى غرفة الطعام فكان يوجد فيها زير كبير من الفخار لماء الشرب ليبقى الماء بارداً، ففي الخمسينات كان قليلون جداً يمتلكون ثلاجات، وفي البداية كان الناس يضعون الثلاجة في غرفة الضيوف، وفقط ضيوف الشرف كان يسمح لهم بالجلوس قربها للاستمتاع بضجيج الخزانة العجيبة.

طبعا عائلة سليمان سعيدة وشاكرة للسكن في بيت واسع كهذا وبدون إيجار، خاصة وأن بقية أفراد العائلة– صائب وكريمة ووضاح– سيولدون بعد ذلك بسنوات قليلة. ولكي لا يفقد القاريء الخيط، نجمل له حصيلة "علاقة الحب" بين عطاف وسليمان: أربع بنات هن نجلاء وأنيسة ونازك وكريمة وهي أصغرهن، وستة أبناء هم عطا وحسن وهاني وعثمان وصائب وأصغرهم وضاح.

خلال السنوات الثلاثين التي قضتها العائلة في البيت لم تدفع قرشاً واحداً في صيانته والحفاظ عليه. درج الخشب تآكل، وبذلك أصبح من الصعب حتى على الشبيبة الوصول إلى غرفتي الطابق الأول والسكن فيهما، والباب لم يعد يغلق، لكنه باب لا وظيفة له في الحقيقة، إذ لا يمكن أن يخطر حتى على بال أغبى حرامي أن يسطو على بيت كهذا، فللفقر فوائده أيضاً.

بكى عطا إذ رأى حالة البيت الرثة، حين حضر بعد سنوات من الإقامة في الكويت لزيارة عائلته في جنين. وقال لأمه عطاف "منذ سنوات وأنا أرسل لكم نقوداً ولم تشتروا حتى كرسياً واحداً، إنكم تعيشون في خم كالدجاج، لا يمكنني أن أستقبل أياً من اصدقائي هنا". عطاف سكتت، فالكلام ليس من خصائلها. ماذا تقول له؟ فالواقع أن المبلغ الذي يرسله يذهب في معظمه لشراء المواد الغذائية وبالكاد يكفي لأكثر من الأسبوعين الأولين في الشهر. ولا يبقى قرش واحد لصرفه على أمور أخرى، ناهيك عن توفيره. لكن عطا لا يستطيع تخيل ذلك، فقد أحضر لها على سبيل المثال قطعة قماش كهدية ولكنه نسي أن يعطيها أجرة الخياطة؛ عطاف الخجولة لم تطلب من ابنها أجرة الخيّاطة فبقي القماش قماشاً وظلت هي بدون فستان.

لم يتعلم سليمان لا في طفولته ولا بعد بلوغه أن الله خلق اليدين لأنه يمكن استعمالهما لبناء أو صيانة شيء ما. بيته كان خالياً تماماً من أي كماشة أو مطرقة أو حتى مسمار. لم يدخل البيت حرفي أبداً كما أن "ربّه" وأولاده لا يتمتعون للأسف بثقافة العمل اليدوي. ابنه عثمان المولود حديثاً سيصبح فيما بعد صيدلياً وفي الوقت نفسه حرفياً ماهراً، لكن هذا التطور يأتي بعد سنوات طويلة وبعد فوات الأوان فيما يتعلق ببيت عائلة سليمان. في الأحوال العادية يتوجب على عائلة كبيرة وفقيرة أن تتولى

بنفسها صيانة البيت، ولكن هذا لم يحدث قط، فكل شيء يبدو متهالكاً ومتآكلاً وآيلاً للسقوط، لكنه نظيف بفضل همة عطاف التي لا تتوقف عن العمل.

لا يكترث سليمان إطلاقاً بشكل البيت أو وضعه، وهو على العكس من ابنه عطا مستعد لدعوة أي صديق لزيارة بيته، الأمر الذي كان يفعله كثيراً. وذات يوم حضر إلى البيت مصطحباً معه نائب المحافظ، أبو حسني، للغداء. فقالت له عطاف "يا أبو عطا، كان يجب أن تعلمني بقدوم الضيف، لأنني اليوم وللأسف طبخت مجدرة". غضب سليمان وصاح في وجهها ووجه الضيف "هو ليس أحسن منا، ولا شايف حالك يا أبو حسني لأنك نائب محافظ؟". أبو حسني الذي كان متواضعاً حقاً راح يعتذر قائلا "طبعاً أنا لست أحسن منك يا سليمان، ويشرفني أن أكون ضيفك.. وال.. الم.. المجدرة لذيذة جداً خاصة من أيدي أم عطا".

لم يكن بيت سليمان معداً لاستقبال عدد كبير من الضيوف دفعة واحدة، وهو أمر أصبح ضرورياً بعد قرار سليمان أن يرشح نفسه للبرلمان الأردني. وهنا لا بد من الإشارة، ولو بشكل موجز، إلى علاقته بالعائلة الهاشمية الحاكمة، وهي علاقة توضحها الحكاية التالية التي رواها هاني لإخوته بعد سنوات من حدوثها: "كان ذلك يوم جمعة، حوالي الساعة الثانية عشرة ظهراً، أنا متأكد من ذلك تماماً لأن الملك عبد الله، جد الملك حسين، اغتيل أثناء أدائه صلاة الجمعة في المسجد الأقصى برصاص أطلقه عليه الفلسطيني مصطفى عشو. وكان حفيده حسين بصحبة جده عام 1951 لحظة اغتياله، وكان عمري آنذاك أحد عشر عاماً. وقد هز هذا الحدث الجلل المدينة، وحين سمعت بالخبر ركضت عائداً إلى البيت ووصلته مقطوع الأنفاس، فوجدت والدي ممدداً على الفرشة بملابسه الداخلية بسبب الجو الحار، ربما كان ينتظر طعام الغداء.

جريت باتجاهه وقلت "يابا، قتلوا الملك عبد الله في المسجد بالقدس" فأمسك بي من خناقي وحدجني بنظرة غاضبة وقال "هذا أمر لا يُمزح به، عليك أن تعلم ذلك جيداً"، فأجبته "والله العظيم قتلوه". نهض أبي وبدأ يرقص الدبكة ويغني "راجعين يا فلسطين" ثم ارتدى ملابسه بسرعة ليذهب إلى وسط المدينة وذهبت أنا معه. وجدنا الناس قد تجمعوا في الشارع وراحوا ينشدون الأغاني الوطنية وبعضهم كان يهتف "الله أكبر، والموت للخونة الذين باعوا فلسطين، وتحيا فلسطين عربية". وهنا قام هاني بحركة غريبة وهو يقص قصته.. صحيح أنه أقلع عن التدخين منذ سنوات، لكنه راح يدق السبابة بإبهامه كمن ينفض سكن السيجارة، وهي حركة تثير ضحك إخوته، إلا أنه تجاهل ضحكهم وأكمل حكايته:

"راح الجنود الخيالة، ومعظمهم من البدو المخلصين للملك يضربون الناس الفرحين بأسواطهم دون أن ينجحوا في إسكاتهم، أما أبي فقد دخل وسط الحشود وراح يرقص ويغني، وأعتقد أن هذا اليوم كان أجمل أيام حياته منذ عام 1948."

"صحيح،" أردف حسن قائلاً: "كان موقفه من العائلة المالكة معادياً ورافضاً تماماً، وكان يهجوها في كل قصائده وخطبه السياسية تقريباً".

أما وضاح فيعرف بدوره حكاية أخرى عن علاقة والده بالقصر، وهو لا يريد الاحتفاظ بها لنفسه. وضاح ولد في عام 1959 واعتقل في عام 1975 من جانب الاحتلال الإسرائيلي الذي بدأ في عام 1967 بعد هزيمة مصر وسوريا والأردن في حرب يونيو. وكان وضاح قد أمضى سنتين في سجن جنين بتهمة توزيع مناشير ضد الاحتلال، في نفس الزنزانة التي سجن فيها سليمان قبل أكثر من عشرين عاما لعدم قدرته آنذاك على سداد ديونه. بدأ وضاح الذي أصبح اليوم محامياً بارعاً في سرد حكايته:

"ودّعت أبي في عمان في مقهاه المفضل مقهى السنترال، وتوجهت إلى المطار للسفر إلى مصر بعد قبولي للدراسة في جامعة القاهرة. وبدون إبداء أسباب أخذ الضابط في المطار جواز سفري وطلب مني مراجعة المخابرات في عمان. وكان أمراً اعتياديا آنذاك أن تحقق المخابرات الأردنية مع الفلسطينيين الذين يطلق سراحهم من السجون الإسرائيلية ويأتون إلى الأردن. عدت إلى مقهى السنترال فوجدت أبي ما زال في مكانه يقرأ الجريدة؛ قال متعجبا "شو، أما زلت هنا؟". رويت له قصتي في المطار، فنهض وراح يصرخ ويشتم "لماذا تنازلت عن جواز سفرك بهذه السهولة؟ ثم ماذا يعتقد هذا الملك القزم أنّ بإمكانه أن يفعل؟ عائلته باعت أرضنا والآن يريد أن يمنع أولادنا من السفر." ويكمل وضاح "رحت أتوسل لأبي وقلت له: أحلّفك برحمة أمي، لا تجعل الأمر أسوأ مما هو عليه، أرجوك.. بإمكانهم اعتقالك" ثم بدأ مجدداً يعزرني لأنني أعطيتهم جواز سفري دون مقاومة".

طرب أشقاء وضاح وضحكوا كثيراً لسماعهم الحكاية لأن كل واحد منهم كان يمكنه أن يتخيل ما جرى وكأنه حدث أمام ناظريه.

لكن لنعد إلى سليمان وإصراره على الترشح للبرلمان ليلقي فيه خطاباته، كي يُريهم جميعاً من هو سليمان وليعطي دار عطوان دروساً في الوطنية. كان عليه أن يبحث الأمر أولاً مع آل عطوان الذين كان لهم مرشح خاص بهم للبرلمان وآخر لرئاسة البلدية. وكانوا قد أجمعوا على عزام عطوان، الموظف الكبير المتقاعد. وكان أبو فضل، الذي رشق سليمان الماء في وجهه في ديوانه قبل خمسة عشر عاما،

صاحب اقتراح ترشيح عزام، لذلك لم يكلف سليمان نفسه عناء إقناع وجهاء آل عطوان، لأنه يعرف جيداً نفوذ جمال بينهم ويعرف كم هو حقود.

أما إسكندر، وهو من وجهاء آل عطوان في جنين، فحاول ثني سليمان عن قراره، لأن هذا سيضعف الحمولة ويضر بها، كما أخبره بأن عليه أن يفكر بأن فرص نجاحه ضعيفة للغاية، ناهيك عن النفقات العالية التي يحتاجها للحملة الانتخابية وأنه لا يملك المال الكافي لذلك. لكن وبعد أخذ ورد ونقاش كان يزداد حدة قال سليمان غاضباً "إذا كنتم تريدون الحرب يا آل عطوان، فأهلاً بكم"، ثم غادر الديوان وطرق الباب خلفه واتجه إلى عرابة، مكان ولادته ومقر آل عطوان.

في عرابة دعا إلى اجتماع، كان أغلب المشاركين فيه من غير العطوانيين وراح يسألهم "كم برلمان مرّ عليكم حتى اليوم وكم عطواني انتخبتم؟ كلهم وعدوكم بتعبيد شارع القرية وتزويدها بالماء. فمن منهم وفى بوعده؟" فأجاب الحاضرون "لا أحد منهم وفى بوعده" ثم قال سليمان "لا مال لدي كما تعرفون، لكن الموظف الثري عزام لن يتجرأ على مخالفة أسياده في عمان. لذلك أرجوكم أن تعطوا صوتكم إلى واحد منكم، لي أنا". وجدت كلماته وقعاً جيداً في نفوسهم، وقسم كبير من المواطنين وعده بانتخابه.

هذا الاجتماع شجعه فاتخذ قراره الثاني: السفر إلى الكويت للحصول على بعض المال من عطا لتمويل حملته الانتخابية في جنين والقرى المجاورة. وهو يحتاج إلى استئجار سيارة ومكتب وطباعة المناشير الانتخابية، لذك أرسل برقية إلى عطا: "رشحت نفسي للبرلمان. أحتاج إلى دعمك المادي. سأحضر يوم الثلاثاء القادم. والدك". شحب وجه عطا حين سلمه ساعي البريد البرقية، وكان ساعي البريد قد ظل واقفاً على أمل نيل مكافأة، لكنه انسحب بهدوء حين رأى حبيبات العرق على جبين عطا.

من الذي يتحمل صيف الكويت الحار؟ درجة الحرارة قد تصل إلى خمسين درجة مئوية، وهو أمر يصعب على سليمان تخيله. عرقه أخذ يتصبب من جميع مسام جسده، لذا فقد شعر بارتياح شديد حين جلس في السيارة الأمريكية المكيفة التي جاء بها عطا لاستقباله في المطار. وفي الطريق سأل عطا: "لمن هذه السيارة الفاخرة؟" فأجاب عطا بصوت خافت "لي، لا يمكن العيش هنا بدون سيارة يا أبي"، فقال سليمان صائحا "لديك سيارة كهذه ونحن لا نجد في جنين ما نأكله؟ يجب أن تبيعها غداً" فأجاب عطا فوراً "حاضر يا أبي، سأبيعها". بعد أن وصلا إلى بيت عطا قال سليمان "أحتاج إلى 1000 دينار خلال ثلاثة أيام للانتخابات". حاول عطا التوسل إلى أبيه لخفض المبلغ لأنه سيتزوج في الشهر القادم، لكن دون جدوى.

في اليوم التالي قال الأب لعطا "أحضر السيارة إلى الباب ودعنا نذهب لزيارة صديقي زاهر الذي كنت معه في صف واحد" فقال عطا "أي سيارة؟ لم يعد لدينا سيارة، أعطيتها لصديق يرغب في شرائها بعد أن أمرتني أمس ببيعها". أصيب سليمان بصدمة لضياع السيارة المريحة والمكيفة بهذه السرعة، فصاح بعطا محتجاً، "وهل لك أن تخبرني كيف سنصل إلى زاهر؟" ابتسم عطا وأجاب بخبث "بسيطة، سنركب الحافلة". ثم خرج الاثنان ومشيا إلى الموقف حوالي نصف كيلومتر وهناك انتظرا نصف ساعة. جن جنون الأب واعتقد أنه سيصاب بنوبة قلبية، وبعد دقائق قال لعطا "حين نصل إلى زاهر، اتصل بصديقك وقل له لا نريد بيع سيارتنا." ثم سحب نفساً عميقاً وقال "بلد مقرف، لا يمكن حتى لخنزير احتمال العيش هنا بدون سيارة". لم يكن عطا ينوي بيع سيارته، لكنه أعطاها لصديقه حتى يسافر والده، أما سليمان ففكر في داخله "كان بإمكانه الانتظار حتى أغادر هذا الجحيم". لم يحتمل سليمان البقاء في الكويت لأكثر من ثلاثة أيام، وبعد هذه التجربة صار سليمان يقول: هناك مدينتان أكرههما عمان والكويت، عمان بسبب العائلة الحاكمة والكويت بسبب الحرارة.

بعد عودته إلى جنين، أنفق حوالي 100 دينار على مأكولات شهية لتجميع قواه للحملة الانتخابية، كما قال لأولاده مبتهجاً.

ثم فتح ديواناً في جنين، وفعلاً توافد عليه مواطنون بسطاء كثيرون يعرفونه من مواقف مختلفة ويقدرون شجاعته في قول الحق ويعتقدون أنه سيمثل مصالحهم على أفضل وجه في عمان.

إلا أن هذا لم يحدث لأنه سقط في الانتخابات، التي اعتبرت في حينه أول انتخابات غير مزورة في الأردن، فقد نقصه حوالي ألف صوت. وقد أثر قراره خوض الانتخابات على مرشح آل عطوان الثاني الذي لم ينجح أيضاً. على كل حال لم يكن لنتيجة الانتخابات تبعات تذكر، لأن الملك حل البرلمان بعد شهور قليلة وصار يحكم البلاد مباشرة وبدون برلمان.

سليمان يرفض الحلول الوسط مع الاحتلال

سليمان السمين، ثقيل الوزن، خفيف الظل، كثير الشكوى، شديد البأس، رجل المتعة والملذات (Hedonist)، الفقير، وقليل الحيلة فيما يتعلق بتحصيل أرزاق عائلته الكبيرة – وما أكثر تعدد التناقضات والألوان في صفاته، ولكن إذا تعلق الأمر باحتلال إسرائيل للضفة الغربية وقطاع غزة فإنه يصبح رجلا آخر، أحادي الجانب، لا يقبل الحلول الوسط مع المحتل مطلقاً.

في 7/ يونيو/ 1967 دخلت جحافل الجنود الإسرائيليين إلى جنين واحتلتها دون مقاومة عسكرية تذكر؛ الأردن لم يكن يسمح للمواطنين في الضفة الغربية باقتناء السلاح. سليمان صاح وقتئذ بابنه هاني، الشاب الوحيد في البيت: "ماذا تعمل هنا، إذهب لأبي عزيز، وقل له يعطِك الكلاشينكوف الذي دفنه في الحديقة." هاني المتعطش للمقاومة ركض مع بضعة شباب، كلهم كانوا لا يتمتعون بالحد الأدنى من كفاءة المقاتل، فهم لم يتلقوا، وكان ينبغي ألا يتلقوا، مبادىء التدريب اللازم.
كالعادة خسر العرب معظم حروبهم مع إسرائيل دون أن يدخلوها بشكل جدي: إسرائيل كانت دائماً وما زالت من حيث العدد والعدة والتدريب أقوى بكثير من العرب مجتمعين، وهيهات أن يجتمعوا.

صمت القصف الإسرائيلي بسرعة ولم تصب المدينة بأي دمار في هذه المعركة، إن صح التعبير. جاء هذه المرّة جيل جديد من الجنود الإسرائيليين، فلم يكن أحد منهم قد شارك في معركة جنين في عام 1948، كما أنهم كانوا لا يعرفون أن جيشهم كان قد هزم هنا آنذاك هزيمة نكراء، فمن المعروف أن المؤرخين اليهود يتجاهلون هذه المعركة التي خسروا فيها أكثر من 300 جندي. أما أهل جنين، فهم يعلمون تماما كل تفاصيلها لأنها بالنسبة لهم أشرف وأنصع صفحة في تاريخ مدينتهم. يعرفون أسماء الشهداء وأسماء المتطوعين الفلسطينيين والأبطال العراقيين الذين قاتلوا بضراوة. ما زال معظمهم يحفظ عن ظهر قلب قصيدة الشاعر محمود خطاب وخاصة هذا المقطع منها:

أجنينُ إنَّكِ قد شهدتِ جهادَنا   ورأيتِ كيف تساقطتْ قَتلانا

أجنينُ لا أخشى البطولةَ حيَّةً لِبنيكِ حتى أَرتدي الأَكفانا

أجنينُ يا بلدَ الكرامِ تَجلَّدي ما ماتَ ثأرٌ ضرَّجَتْه دِمَانا

المسجدُ الأقصى ينادي أُمَّةً تركتْه أضعَفَ ما يكونُ مكانا

إني لأعلمُ أنَّ دينَ محمدٍ لا يرتَضي للمسلمينَ هَوانا

إن الخلودَ لمن يموتُ مجاهداً ليس الخلودُ لمن يعيشُ جبانا

لم يكن لدى جنين في حزيران عام 1967 ما تتفاخر به. مجموعة سليمان، أو ما كان يسمى آنذاك "غرفة العمليات" كانت في 7/يونيو تلاحق المعارك أولاً بأول في مقهى أبو نهار. أصيب الفريق بصدمة عندما علم أن السلاح الجوي المصري تحطم بشكل كامل في الأيام الأولى، ولكنهم لم يفقدوا الأمل والثقة بالرئيس المصري جمال عبد الناصر. لم يكن لديهم أمل آخر، فهو الزعيم الوحيد في العالم العربي الذي جسد النضال من أجل الاستقلال. سليمان كان على استعداد لأن يقدم كل ما بوسعه لدعم هذا الرجل الذي أعاد للعرب كرامتهم وتصدى للاستعمار ووضع الأرضية، على الأقل عاطفياً، للوحدة العربية. هذه الوحدة كانت تعني الكثير لسليمان ومعظم المواطنين، فبدونها سيقاد العالم العربي من شلة من الأقزام، كما كان سليمان يقول دائماً.

استقال عبد الناصر بعد الهزيمة المؤلمة التي حلت ببلاده والعرب بصورة عامة، ولكن سليمان لم يشكَّ لحظة واحدة في أنه سيعود للقيادة، وهذا ما حدث فعلاً. ومن اليوم الأول بدأت استعدادات عبد الناصر ليسترد بالقوة ما أخذته إسرائيل بالقوة، وهكذا بدأت حرب الاستنزاف بعد تدريبات عتيدة للقوات المصرية. وبعد وفاته استطاع هذا الجيش الباسل أن يحقق لأول مرة انتصاراً جزئياً على إسرائيل في حرب أكتوبر 1973.

بيد أن حركة القومية العربية التي كان عبد الناصر يتزعمها لم تستعد عافيتها بعد حرب عام 1967، وكان زعيمها قال في قمة الخرطوم بعيد الحرب موجهاً كلامة بصورة خاصة إلى المملكة العربية السعودية: "إذا أردتم ألا أركع أمام إسرائيل وأمريكا فلا تتخلوا عني!"

لم تتخل الدول العربية المحافظة عنه، ولكنه سياسياً ركع في نهاية المطاف بصورة غير مباشرة أمامهم، فقد تسلموا منذ ذلك التاريخ ولو ببطء، خطوة خطوة، قيادة العالم العربي. لم يعد بالإمكان السير

بالاستراتيجية العربية إلى الأمام إلا إذا وافقت عليها السعودية والولايات المتحدة حليفها الأكبر. هذا يعني أن كل المشاريع الكبرى وعلى رأسها القضية الفلسطينية وُضعت إلى أجل غير مسمى على الرف.

في 28 سبتمبر 1970 مات عبد الناصر وسار في القاهرة خلف نعشه أكثر من مليون عربي. بكى سليمان في جنين كملايين غيره في نابلس وعمان والقاهرة وبغداد وجميع البلاد العربية. قال سليمان بحسرة: "الله يرحمه مات حراً وفقيراً مثلنا." ساعات بعد موته كان يقرأ في مقهاه المفضل قصيدة رثائه للزعيم الراحل كتبها في نفس ليلة وفاته:

أَشِيعي في نفوسِ القومِ يوماً بأن رئيسَنا ولّى وغابا
وأن بلاءَنا ما عاد يُخشى وأن دفاعَنا أضحى سرابا
وأن الأرضَ للدُّخَلاءِ باتتْ قطوفاً دانياتٍ أو شَرابا
فلا حرَّاسُها في الأمس صالوا على الصَّهَواتِ أو خَرقوا السَّحابا
ولا أبطالُها غضبوا وأهدَوْا إلى أعدائِها موتاً، وصَابا
أَشِيعي كلَّ هذا، ثم قولي بأنَّ جمالَ باتَ لنا كِتابا
نقدسُ روحَه ويعيشُ فِكراً يشعُّ ويُخصِبُ الأرضَ اليَبابا

إلى أن يختتم قصيدته بهذين البيتين:

وحبُّ القدسِ في الأعماقِ باقٍ تَفيضُ به القَوافي والعَتابا
ستبقى القدسُ مُلْهِمةً إلينـا تُحرِّكُنا وتُرسلُنا حِرابا

(من ديوانه "قال إني كالنور يصعب حبسي"، صدر في بون في عام 1997 بعد وفاة الشاعر بعشرين عاما.(

مات عبد الناصر – والبعض كان يردد في مقهى أبو نهار: اسمع مني :الرجل لم يمت عام 1970 وإنما في عام 1967 –كانت نكبة حقيقية للأمة العربية لا تقل عمقاً عن نكبة عام 1948، فمنذ ذلك الحين بدأت هيمنة الاتجاه الإسلامي الأصولي بمفهومه السعودي– الوهابي. وتجدر الإشارة إلى أن

الإسلام السياسي لم يكن ما بين 1956 إلى 1967، أي أثناء تعاظم الحركة القومية بقيادة عبد الناصر، يلعب دوراً يستحق الذكر، فمنذ تأميم قناة السويس في عام 1956 بدأ العالم العربي يسير حثيثاً نحو العلمانية والحداثة. في مطلع الستينات نزعت عطاف على سبيل المثال كمعظم جاراتها في جنين، في آخر الدنيا، الحجاب، وكأن العرب في أيام العز هذه لم يخجلوا أن يقولوا للعالم: ها نحن! أنظروا إلى وجوهنا ووجوه نسائنا.

هذه الأفكار لم تشغل سليمان في صيف 1967، فقد كان الاحتلال يسكُنه ويقضُّ مضجعه.

تجربته في عام 1948 علمته أن الصراع سيستمر عقوداً، لأن إسرائيل لن تتخلى بسهوله عن

الأراضي المحتلة، ففي حرب 1948 توسعت إسرائيل واقتطعت 22 بالمئة من أراضي فلسطين إضافة إلى ال 56 بالمئة التي أهدتها لها هيئة المتحدة بموجب قرار التقسيم في عام 1947، وبهذا كانت إسرائيل قبل حرب 1967 تسيطر على 78 من فلسطين التاريخية، ولم تتنازل منذ ذلك الحين عن سنتيمتر واحد من غنائمها من الأراضي، بل على العكس فقد أصبحت الآن بعد ما يسمى بحرب الأيام الستة تحتل كل فلسطين.

ولذا قرر سليمان دون أي تردد أن يواصل نضاله على طريقته المعهودة، هذا النضال الذي بدأه بمقاومة الاستعمار البريطاني ليستمر ضد قيام دولة إسرائيل وفيما بد ضد هيمنة النظام الأردني على الضفة الغربية، والآن سيحارب الاحتلال في غزة والضفة الغربية.

لا بد من الإشارة هنا إلى أنه كان بصورة خاصة يكن كل الاحتقار والرفض المطلق للعائلة الهاشمية، وكان سيشعر بالسعادة لأن الناس تخلصوا بعد يونيو 67 من الهم الهاشمي، لو لم يجسد الاحتلال المصيبة الكبرى التي لا يمكن أن تقارن بالعهد التركي أو بالانتداب البريطاني أو بالنظام الأردني. صحيح أن هذه العهود الثلاثة كانت ظالمة وضالعة في انتهاك حقوق الإنسان، وهذا ما تفعله إسرائيل أيضاً مع الفلسطينيين في المناطق المحتلة، ولكنها بالإضافة إلى ذلك تطرد الفلسطينيين من بلادهم وتسحب أرضهم من تحت أقدامهم لتبني فوقها مستوطنات للمهاجرين اليهود الذين يتدفقون على فلسطين من جميع بلدان العالم وبتحريض من الصهيونية.

في أحلك سنوات الحكم التركي أو البريطاني أو الأردني لم يكن الناس في فلسطين يخافون أن تسلب أراضيهم ومياههم منهم؛ لقد تغير الوضع الآن. ماذا سيبقى للفلاح إذا سُلبت أرضه. أصبح الأمر هنا

يتعلق بحق أساسي موثق في القانون الدولي وفي وثيقة جنيف بالتحديد: حق كل إنسان في الانتماء إلى وطنه. الحكومة الأردنية على سبيل المثال لم تنهب من الضفة الغربية مياهها وأراضيها.
لم يكن سليمان يهوى المقاومة فهو بطبعه ميال إلى الرتابة، وإلى التمتع بكأس العرق وبعض حبات من اللوز، خاصة في أمسيات هذه البلاد التي يتخللها السمر، ولكن الآن لا بد أن تتعاظم المقاومة بكل الوسائل. لم يكن يشك لحظة واحدة في أن شعوب الأرض قاطبة ستحصل إن عاجلاً أو آجلا على استقلالها. أفضل مثل على ذلك – كما كان يقول للشباب دائماً – هو الجزائر التي استقلت في عام 1962 بعد احتلال فرنسي وحشي استمر 130 عاما. يقول في قصيدته التي كتبها في 2/7/1962:

صَعِّرِ الخدَّ إن ذكرتَ الجزائرْ　　　فَهْيَ رمزٌ لكلِّ حرٍّ وثائرْ
وَهْيَ أرضٌ تحيَّرَ الناسُ فيها　　　هِيَ مأوىً للجنّ أم للقَساوِرْ
رَكَعُ الدهرُ رافعاً في يديه　　　تاجَ غارٍ لكلِّ شعبِ الجزائرْ

إلى أن يضيف:

ليت أهلي تشبَّهوا واستَعادوا　　　أرضَ يافا وما بها من حَواضِرْ

قصيدة طويلة موثقة في ديوانه المذكور أعلاه.
كانت مشاعر سليمان فياضة وجرأته مضرِباً للمثل في جنين: لم يكن لديه ما يخسره، ولكن الرجل الذي تجاوز عمره ال 57 عاما في 1967 لم يتعلم من كل تجاربه – للأسف – شيئاً أساسياً ومهماً للغاية في النضال السياسي وهو ضرورة الانتماء إلى حزب أو تنظيم للتصدي بشكل جماعي مؤثر للاحتلال. كانت نشاطاته تتصف بالعفوية والفوضوية والإفراط في الفردية. لم ينسق صولاته وجولاته مع أحد لا من قريب ولا من بعيد.
لا شك في أن هذه الطريقة تناسبه شخصياً إلى أبعد الحدود، فهو يستطيع أن يتخلص بسرعة من تراكم الغضب والضغط على أمعائه وقرفه لتستريح أعصابه ولكي يشعر أخلاقياً بالانفراج. بيد أن مثل هذه "المِخْتَرات" لا تسمن ولا تغني من جوع على مستوى القضية.
لا يغيب عن بال القاريء أن الستينات كانت الحقبة التي تأسست فيها تنظيمات المقاومة الشعبية: فتح والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين الخ، هذه الحركات غيرت وجه فلسطين والصراع الفلسطيني-

الإسرائيلي. سليمان كان يتعاطف معها كلها، ونستشهد في هذا السياق بمقطع من قصيدته السابقة الذكر في رثاء عبد الناصر:

إذا ما سيّدٌ قد ماتَ منّا رأينا غيرَه فينا أَهَابا...
أبا عمارَ هل تنسَى جمالاً وكيف أَمَدَّ ثورتَنا شبابا

وعلى الرغم من إعجاب سليمان بأبي عمار وجورج حبش وغيرهما من قادة المقاومة الشعبية إلا أنه لم يفكر لحظة واحدة في الانتماء إلى حركة المقاومة المنظمة، وربما يعود ذلك إلى أن أعضاء هذه الحركة كانوا يعلمون أن هذا الصنديد الفوضوي لا يصلح للتنظيم، لأنه كان بالتأكيد سيصطدم مع جميع كوادره. ولكنهم على صعيد آخر كانوا يكنون له كل الاحترام، فهم يعرفون نضاله الطويل من أجل الاستقلال وقدرته على شحذ همة الشبيبة.

ابنه وضاح يؤكد صحة هذه المعلومة: "لم يتجاوز عمري ال 16 عاما عندما اعتقلت في عام 1976 في جنين لأن الجنود الإسرائيليين ألقوا علي القبض عندما كنت أوزع مناشير الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. في الأيام الأولى من الاعتقال لم احتج للدخول في امتحان يمر فيه معظم المعتقلين الجدد. من المعلوم أن المعتقلين يديرون شؤونهم بشكل دقيق ومحكم للغاية، خاصة فيما يتعلق بالأمن. ولذا تحرص قيادتهم على اتخاذ الإجراءات اللازمة ضد الجواسيس الذين تسربهم سلطات الاحتلال إلى السجون لكي تحصل على معلومات حول مخابيء الأسلحة وخطط المقاومة. وتقوم في هذا الإطار لجنة متخصصة بالتحقيق مع المعتقلين الجدد."
هنا توقف وضاح عن الكلام ونظر في عيون إخوانه الأربعة وأخته لمياء الذين كانوا يستمعون له باهتمام، وواصل وضاح حديثه بعد أن نفش صدره ورفع رأسه باعتزاز:
"قررت لجنة سجن جنين عدم إجراء أي تحقيق معي، وقد أوضحوا قرارهم على النحو التالي: ابن سليمان تلقى في بيته دروساً في الوطنية ولا يوجد ما يبرر أن نمتحنه هنا."
كان وضاح متأثراً ومنفعلاً عندما روى هذا الحادث وأضاف قوله:
"نستطيع أن نكون فخورين بأبينا ولا يوجد لدينا سبب يجعلنا ننقده ونقلل من شأنه. أنظروا إلى عائلة فلان، أبوهم كان عميلاً، وأولاده يرفعونه للسماء ويقدمونه للجمهور كبطل من الأبطال."

هنا اختلفت الآراء بين المتواجدين من أفراد عائلة سليمان: الأكبر سناً منهم: عطا، حسن، ولمياء قالوا: نحن متفقون أن والدنا كان رجلاً حراً وأديباً ومسيساً فهذه صفات حميدة لا يستطيع أحد أن يتجاهلها وخاصة أبناءه وبناتِه، ولكن هذا لا يعني أن نتجاهل النواحي السلبية في شخصيته. حسن قال بجدية متناهية: "علينا أن نقول لآباء اليوم: انتبهوا سيأتي اليوم الذي سيحاسبكم فيه أولادكم وربما أحفادكم، حتى لو بعد عشرين عاما من مماتكم. على الآباء أن يعرفوا قدر المسؤولية الملقاة على عاتقهم، لأن الأطفال لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم. إلى الجحيم بتقاليد تقديس الأب بدون عقل."

أما الأصغر في هذه المجموعة: عثمان، صائب ووضاح فإنهم لا يودون سوى مشاهدة الجانب المشرق من شخصية المرحوم أبي عطا. كانوا يدافعون عنه بحرارة، وإذا استنفدوا كل حججهم استنجدوا بالتقاليد: لا تجوز على الميت غير الرحمة.. الخ

من هذه النقاشات اتضح لأفراد عائلة سليمان فيما بعد أن الأصغر سناً منهم خبروا عود رجل كهل، ضعيف نسبياً، حنون وفي منتهى الرقة. لم يعرفوا كأخواتهم وإخوانهم الأكبر سناً ضراوة هذا الرجل وهجوميته المخيفة التي كانوا يتعرضون لها. لم يعرفوا لحظات غضبه الخطير وتقاعسه في سنين شبابه عن تحمل المسؤولية وإسرافه في شرب الكحول وانصرافه إلى الميسر. وفي نهاية المطاف اتفقت مجموعة الإخوة والأخوات: "لدينا سليمانٌ واحد وثلاثة آباء .. الزمن يصنع من الشخص أشخاصاً."

لنعد إلى سليمان ومقاومته للاحتلال الإسرائيلي، وكيف كان يحرض الشباب: "إياكم أن تستسلموا للأمر الواقع. إذا تقاعستم وتوقفتم عن المقاومة فإن الإسرائيليين سيخلّدون الاحتلال ويوسعون مستوطناتهم ولن يبقى لنا بعد ذلك أي أرض."

كان يقرأ قصائده الثورية في حلقات صغيرة للشبيبة. أما العملاء الذين كُشفت أوراقُهم ولم يعد هناك أي شك في تعاونهم مع الاحتلال فكان يعريهم ويتحداهم بشكل سافر في المقاهي وأمام كل الناس.. كان يبصق في وجوههم، وهو الذي يعلم أن الموت الاجتماعي أشد مرارة من الموت الجسدي. كان يصيح في وجوههم: "أنت لا تنتمي إلينا. ينبغي على رجال المقاومة أن يصفّوا أمثالك". لم يكن يتورع أيضاً عن استعمال العنف، ففي بعض الأحيان كان يفقد السيطرة على أعصابه ويقذف هؤلاء الخونة بالكراسي.

كان لمثل هذا العراك مفعوله، فمن خلال التصدي بهذا الشكل الهجومي يتعود أهل البلد على عدم التساهل في قضاياهم المصيرية وعلى أن الاحتلال لن يستطيع أن يمنعهم من المشي وهم منتصبو القامة.

سلطات الاحتلال تسعى إلى شراء ذمم الناس عن طريق استغلال حاجاتهم اليومية؛ كانوا يقولون لأحدهم على سبيل المثال: "أيوه.. أبو سليم، سليم يود أن يدرس في لندن. لم لا. سليم ولد مجتهد وشاطر ولكنه بحاجة إلى تصريح للسفر. سيحصل عليه بالتأكيد، ولكننا أيضاً بحاجة إلى تعاونك معنا."

كان سليمان يريد توصيل رسالة لأهل جنين: ابنك ودراسته يستحقان كل الاهتمام، ولكن هناك ما هو أهم: حريتنا واستقلالنا وكرامتنا. لم يطّلع أحد على ملف سليمان عند المخابرات الإسرائيلية، بيد أن هناك ما يشير إلى أنه كان مراقباً من قبلهم، خاصة إذا علمنا أنهم ورثة المخابرات الأردنية.

وفي ذات يوم التقى حاكم جنين العسكري وهو يهودي أصله من العراق ويتحدث العربية بطلاقة وبلهجة عراقية.. التقى سليمان، ورحب به بحرارة مفتعلة: "شلونك، يا سيد سليمان، أنت من شخصيات البلد المرموقة وأود زيارتك في بيتك وأن أكون على اتصال مستمر معك."

فرد عليه سليمان باقتضاب: "لا أستقبل في بيتي غير الأصدقاء. أما أنت فلا تربطني بك أي صداقة لأنك تمثل الاحتلال الإسرائيلي، وإذا أردت أن تتحدث معي فعليك استدعائي بأمر رسمي من دائرتك."

بعد أيام قليلة تلقى رسالة خطية موقعة من الحاكم العسكري: "على المدعو سليمان عطوان الحضور في 5/كانون الثاني 1975 في تمام الساعة العاشرة صباحاً إلى مكتب الحاكم العسكري."

استهل الحاكم العسكري حديثه بالقول: "يا سيد سليمان، عدنا نحن اليهود إلى جنين فقد منَعَنا في عام 1948 رجل عراقي من البقاء في هذه المدينة الجميلة. (في مكان آخر كنا روينا قصة معركة جنين وفيها انتصر القائد العراقي الكردي الذي استبسل على الرغم من أوامر الانسحاب التي جاءته من بغداد.) والآن عاد عراقي آخر لتعزيز حياة الوئام بين اليهود والعرب. لماذا كل هذة الضجة والحركات المسرحية، فأنت تعلم، يا سيد سليمان أننا نحن اليهود وأنتم العرب أولاد عم وهذه الأرض أرضنا وأرضكم."

حملق سليمان في عيني الضابط طويلاً، ودون سابق إنذار ألقى نفسه بوزنه الثقيل على الأرض ووضع أذنه فوقها وكأنه يتحدث معها. وبعد أن استغرق ذلك أكثر من دقيقة تساءل الحاكم العسكري معبراً عن استغرابه: "ماذا تفعل؟"

فرد سليمان: "سألت الأرض: أتعرفينه؟ قالت: لا. هذا شخص غريب عن هذه البلاد وأرضها."

طرد الحاكم العسكري سليمان من مكتبه وقال لموشي أحد موظفيه إنه لا فائده من الحديث مع مثل هؤلاء الأوغاد. سليمان مشى في شوارع جنين مرفوع الرأس، وفي أول مقهى التقى بعض أصدقائه. قال لهم: "كم كنت أود لو أنكم شاهدتم وجه "ابن عمنا"، الحاكم العسكري، هذا اللص الذي يريد أن يسرق أرضنا." سعيد، الشاعر المرح، الذي شجع في الخمسينات سليمان على كتابة الشعر، علق على انبطاح سليمان وحواره مع الأرض:

"هذه الفكرة لا تخطر إلا على بال شاعر. لست بحاجة الآن إلى كتابة قصيدة، فما قمت به كان شعراً صافياً."

صحيح أن الشعر يعبر عن رقة سليمان، ولكنه يصبح إنساناً في غاية الغِلظة إذا تعلق الأمر بالاحتلال، فهو يواجهه بكل الوسائل المتوفرة لديه، وفي مخيلته يخوض مع جنود الاحتلال معارك لا تقتصر على الكلام. زوجته عطاف تقيس الأمور بطريقة مختلفة تماما.

عطاف تراقب من شباك طابق البيت الثاني الحركة في الشارع وتتحدث بين الفينة والأخرى مع ابنيها عثمان وهاني. في هذا الوقت من اليوم قبيل أن تنتهي وردية النهار ليحط الليل رحاله تتعاظم حركة جنود الاحتلال المسلحين بالبنادق المشْرعة وأجهزة اللاسلكي ولا يراهم الناس في شوارع جنين وأزقتها إلا كمجموعات لا تقل عن أربعة جنود. وإذا توفرت البنادق لدى رجال المقاومة فإنهم سيطلقون الرصاص من كمائنهم على المحتلين. وإذا لم تتوفر فسيلقى الشباب الحجارة أو قوارير الزهور من فوق أسطح المنازل على رؤوس الجنود الغرباء الذين يرتعشون من الخوف والذين لا تزيد أعمارهم عن أعمار "لاعبي" الطرف الآخر.

عطاف تنظر إلى وجوه الجنود الإسرائيليين وتقول لنفسها: "هذا يشبه ابني حسن ، ولدى ذاك ملامح عطا ، والآخر ما زالت براءة الطفولة تزين وجهه كابني وضاح . ثم سمعها هاني وهي تردد: "مسكينات أمهاتهم!". سألها: "عن أي أمهات تتكلمين؟" ردّت بقولها: "عن أمهات هؤلاء الجنود في تل أبيب وحيفا، فهن لا يعرفن طعم النوم من شدة خوفهن على أولادهن."

وبنبرة الغضبان قال هاني: "فكري بما يعملونه بنا. من الذي يرغمهم على المجيء إلى هنا واحتلال بلادنا؟" تنفست عطاف بصوت عال وأجابت: "معك حق، يا ولدي، ولكن أمهاتهم في تل أبيب وحيفا لا يعرفن النوم..!"

عطاف مصنوعة من معدن آخر، فنحن هنا أمام امرأة مظلومة أكثر من غيرها من بنات جنسها في منطقة قلما توجد فيها بدايات للمساواة بين المرأة والرجل. بعد وفاة أمها محاها مجتمعها من ذاكرته، حتى والدها كان ينسى في معظم الأحيان اسمها. لم يكن لديه أو لديها صورة عن شكل وجهها وجسدها رغم أن الطبيعة لم تبخل عليها، فقد منحتها قسطا لا بأس به من الجمال وخفة الروح. لم تكن تعرف ماذا ستفعل بحالها، كانت معزولة ولا تشعر بالانتماء إلى أحد، وكم كانت تتمنى أن تختفي في أعالي شجرة عملاقة بين أغصانها بالقرب من العصافير، وأحيانا أخرى كانت ترغب في أن تكون ظلاً لا يشاهده أحد. وعندما كانت تغرق في مثل هذه التخيلات كانت تصاب برجفة عندما كان الكلام يوجه لها لتكتشف وقتها أن لديها جسداً يتفاعل مع ما حوله. كانت ترد بصوت منخفض وكأنها اقترفت ذنباً ما.

ثم جاء سليمان، هذا الرجل الذي يتمتع بثقة عالية بالنفس وبصوت هادر وبجسد لا يمكن تجاهله.. جاء وأيقظ جسدها وأنوثتها. بيد أن هذه اللحظات الممتعة معه لم تكن ذات تأثير كبير على حياتها التي تحددت معالمها من خلال أمرين عظيميْن: الأطفال والفقر. عطاف تستقبل قوّتها من أطفالها والفقر يحاول سلبها منها، ولكن قوة الأطفال وحيويتهم تظل أكبر بكثير.

كانت ذات مرة في حالة صعبة للغاية، لم تكن تعلم ماذا تعمل من شدة القلة. ركعت على الأرض وتركت لنفسها عِنان البكاء بصوت عال. أطفالها الأربعة، أكبرهم لم يكن تجاوز السبع سنوات، شكلوا دائرة حولها وأخذوا يصرخون دون أن يعرفوا ما الذي جعل أمهم تتألم، ولكنهم كانوا يعلمون أنها في حالة حزن وقنوط. عطاف، هذه الأم ذات الدراية العالية، لاحظت بسرعة أن هذا الوضع لا يجوز أن يستمر، فقبّلت أصغرهم ودغدغت الآخر ودفعت ثالثهم بلطف، فتحولوا جميعاً إلى حالة تعج بالمرح واللعب، فأخذوا يقفزون ويغنون دون توقف، مما جعلها تتدخل مرة أخرى لكي لا تضيع الطاسة.

عطاف تربط معظم أفراحها وآمالها بسلامة هؤلاء الأطفال، ولذا فإنها تفكر بطريقة تختلف عن نظرة سليمان للأشياء. نعم، إنها تفكر بالأمهات القلقات في تل أبيب وحيفا، لأن موت أحد أبنائها

سيعني موتها. إنها تكره العنف، بغض النظر عن الجهة التي تقوم به، لأنه قد يعرض حياة أولادها للخطر. السياسة ليست شأنها..

في بعض الأحيان تنهمر الدموع من عينيها السوداوين، تتساءل: لماذا لا نستطيع أن نعيش في عالم لا يجوع فيه أي طفل؟ هل من المستحيل أن يتمتع جميع الأطفال في كل البلاد بصحة جيدة وأن يشعروا بالسعادة؟ الفقر شحذ حساسيتها، فهي تعرف من تجربتها الذاتية عمق الجراح التي تنجم عن الفقر.

بعد وفاتها بسنوات روى ابنها هاني : "كنت أسير معها وسط المدينة. أمام الحسبة كان يجلس متسول. ملامحه تشير إلى أنه ربما كان عاملاً زراعياً خسر عمله بسبب الهرم. أخرجت والدتي ديناراً من جيبها وألقته بسرعة في حضنه وأخذت تركض. قلت لها: "لماذا تركضين؟"، فأجابت: "لكي لا أسبب إحراجاً للرجل ولكي أوفر عليه الشكر المهين!"

لم يتمكن الفقر من النيْل من مشاعر عطاف الإنسانية بل زادها حناناً على كل الذين يتعطشون إليه. لا يوجد أدنى شك في أنها ستخبيء جندياً إسرائيلياً أو مناضلاً فلسطينياً في بيتها إذا أدّى ذلك إلى إنقاذ حياتهما. سر وجودها يكمن في منح الحياة والمحافظة عليها. إنها تعلم تماماً كم هي صعبة هذه المهمة، فهي تعي الجهود التي يجب أن تبذل خلال السنوات الكثيرة حتى يشتد عود أولادها وبناتها.

عطاف لا تشعر بالارتياح عندما يجمع سليمان الشبيبة في البيت ليقول لهم: "لقد راقبت الوضع في الحي، بعد منتصف الليل بربع ساعة تمر بالقرب من بيتنا دورية إسرائيلية وعليكم انتظارهم في بيت أبي حجير المهجور.."

عطاف لا تتدخل في مثل هذه الأحوال لأنها تعرف جيداً أنها لا تستطيع أن تغير شيئاً، ولكنها لم تحرض أبناءها أبداً على استعمال العنف، بل على العكس تماماً.

ما من شك أنها تتفق مع زوجها وأولادها على أن الاحتلال يجب أن ينتهي، ولكن "ليس بالقوة". وعندما يسألها أولادها: "كيف إذن؟"، فإنها تجيب بحيْرة : "لست أدري، ولكن ليس عن طريق العنف". إنها تتحسس أمراً لا تستطيع التعبير عنه بوضوح، ولكن مفاده أن هذه الصراعات بين الفلسطينيين والإسرائيليين ليست معركتها، فهي تكافح في حلبة مختلفة.

بيد أن نظرة عطاف ومشاعرها التي تعج بالإنسانية والرقي ليست ذات تأثير يذكر، لأن الرجال وحدهم يكتبون التاريخ في الشرق الأوسط. بعيْد حرب يونيو عام 1967 قالت إحدى النساء الفلسطينيات : الرجال خسروا وحدهم الحروب التي خاضتها إسرائيل ضدهم، لأن النساء لم يعلن الحرب ولم يساهمن فيها.

موت عطاف

بعد أن فشلت مخططات سليمان السياسية أصبح يميل إلى قضاء وقت أكبر مع أولاده في البيت.لم يحقق أيضاً في هذا الساعات انتصارات تذكر. كان لا يختلف مع أولاده, بل على العكس كان يتفهمهم, عندما يستمع إلى أحاديث الصغار منهم أثناء طعام الفطور وواحدهم يطرح على الآخر هذا السؤال الساذج المتداول في مثل أعمارهم: "مين بتحب أكثر إمي ولاّ أبوي؟"كان يأتي الرد سريعا كالطلقة: "ما هذا السؤال؟ طبعا أمي." السؤال كان يتكرر بين الفينة والأخرى والجواب كذلك. سليمان لم يكن يتألم حين يعبّر الأطفال عن عواطفهم بشكل عفوي وصادق, ولكنه كان أحيانا يشعر ببعض الإحراج ويعلق على هذه المواقف المتحزبة بصوت منخفض: "يا الله، لا يوجد أحد من جماعتي."

عطاف لم تكن تكترث بالمرّة بمثل هذه الأسئلة والأجوبة :كانت تحب أولادها أكثر من أي شيء في الدنيا، وكانت تعلم علم اليقين أنهم يبادلونها المحبة. لم تنافس زوجها لحظة واحدة على محبتهم. بيد أنها كانت دائماً حريصة على أن يحظى بتفهمهم وتقبلهم واحترامهم له. كانت تعلم تماماً نقاط ضعفه، حمقه ، كسله، حبه الزائد لذاته وردود فعله التي لا يمكن حسابها مسبقاً. ولكنها لم تكن تجهل نقاط قوته, التي – كما كانت تقول - لا تظهر بسهولة للعيان لأن الحظ قلما كان يحالفه, ولكنه إذا حالفه فإنه يكون أطيب إنسان في العالم. "هناك ساعات" – كما كانت عطاف تقول لجارتها – "يجسد فيها سليمان الرقة والحنان.." لم تكن تستطيع على سبيل المثال عد الساعات التي كانت تواسيه فيها عندما كان يمرض أحد أبنائه. كان يبكي وقتئذ كالطفل. من البديهي أن مثل هذه اللحظات توثق ترابطها مع سليمان. ولكنها لم تكن تبوح له بمشاعرها تلك، لأنه لم يكن هناك ما يستدعي ذلك, فلم تكن علاقتهما بحاجة إلى ما يعززها.

لم تكن تقول له أيضاً إنها تقدر فيه خصلة معينة بشكل خاص، وهي أنه كان لا يتخلى عنها أبداً إذا هاجمتها إحدى شقيقاته – وما أكثر هجماتهن - أو أي شخص آخر.

كان يصبح في مثل هذه الحالات رجلاً مخيفاً وكان يدافع عنها بشراسة، حتى وإن كان لا يعرف أي شيء عن خلفيات "العدوان", لأنه كان يعلم علم القين أن عطاف لن تعتدي على أحد أبداً، فهي تبعد دائماً عن الشر وتغني له. وفي مثل هذه الحالات لم يكن السؤال فيما إذا كان سيقف إلى جانبها أم لا, وإنما أن يستطيع ان يتحكم بأعصابه وألاّ يشتط في صده إلى حد يقلب فيه الحق ويصبح لصالح الآخرين.

كلاهما, عطاف وسليمان, لا يجيدان فن الصراع: سليمان كان يعمل من الحبة قبة، وعطاف كانت تعمل من القبة حبة، لكي تتجنب الدخول في معركة، ولكن ذلك يقتضي طبعا موافقة الطرف الآخر. من ناحية أخرى كان سليمان، الذي كان في دفاعه عن زوجته يستعمل أقسى التعابير ويرفع صوته إلى حد الصراخ، يبدو وكأنه يخوض معركته الأخيرة مع "أهل الشر" الذين يشعرهم للوهلة الأولى كأنه سيشطبهم من قائمة البشر. هذا الرجل كان بعد انتهاء الجولة الصدامية بدقائق يعود إلى روعه وهدوئه تماما وينسى كل القصة. وهنا يسأل المرء نفسه: إذا كان بالإمكان إنهاء المعضلة بهذه السرعة، فلماذا هذا الاندفاع والحماس المنقطع النظير؟ هل كان الأمر يحتاج إلى كل هذه السعرات الانفعالية؟

لم ير أحد عطاف وهي تشق باب البيت لكي تقرّع أحد أبنائها أو أولاد الجيران، أو لكي تبدأ النزاع علناً مع إحدى جاراتها, وهذا ما كان يحدث كثيراً في الأحياء الشعبية. وإذا جاءها أحد أولادها والدم ينزف من أنفه كانت تباشر في تضميده وتسعى إلى تهدئة روعه والأخذ بخاطره، ولم يسمعها جار وهي تهدد: "لقّن أحمد الذي اعتدى عليك درساً وكِلْ له الصاع صاعين". لا، لم تكن تتفوه بذلك، وإنما تقول: "الذكي يغض الطرف ويفوت لأولاد الحارة، وأحمد على سلامته فهو أيضاً ابن ناس وما أحلاه."

لم يكن أي شيء يخيفها أكثر من تصعيد غضب سليمان إذا أساء أحد أبنائه التصرف – كما كان يبدو للأب – فقد كانت تخشى أن يفقد زوجها عقله تماماً، وأن يضرب ابنه إلى درجة يصبح بعدها معوقاً. في مثل هذه الحالات كانت تتدخل دائماً وتقف أمام الطفل لتحميه وتردد جملتها المشهورة: "لم يقصد الولد ذلك.." وكان يأتي رد فعل سليمان كحد السيف: "لا تتدخلي, فلن أستطيع أن أربي ولدي إذا قمت من ناحيتك بخلق الأعذار للعمل الشنيع الذي قام به."

ابنه حسن يروي هنا عن حادث معين، وعواقب تدخل عطاف في "تربية" سليمان لأولاده: "الوالد كان يسمع نشرة الأخبار ليل نهار, وكأنه كان يخشى أن يفوته نبأ تحرير فلسطين. وسيلة البث كانت راديو قديماً, متساقطاً, ملزّقاً، مربوطاً بخيط قنب ومعلقاً على الباب. وعلى الرغم من أن قيمة هذا الترانزستور في السوق وهو على هذه الحالة لا تتجاوز قروشاً قليلة إلا أنه كان بالنسبة لسليمان لا يقدر بثمن. كان سليمان يحمل الجهاز بالصدفة عندما انتبه إلى أن ولده صائب أساء التصرف للمرة الثالثة, وبينما كان الأب يكاد يفقد أعصابه ويحاول تربية ابنه بالصياح والشتائم دخلت عطاف على الخط بجملتها الشهيرة: "لم يقصد الولد.." سليمان خسر عندئذ ما تبقى من أعصابه وألقى بالجهاز بكل ما لديه من قوة على الأرض مردداً: "قلت لك ألف مرة لا تتدخلي.." فارق الراديو حياته الصوتية حالاً ولم يعد ينبس ببنت شفة. لا يمكن وصف الكآبة التي حلّت بسليمان بعد ذلك، فليس من السهل عليه أن يشتري بسرعة جهازاً آخر، فقد كان وقتها بحاجة إلى كل قرش. كانت الخسارة لا تعوض, فسليمان لا يستمع إلى الأخبار والبرامج السياسية والتعليقات من "صوت العرب" فحسب, وإنما أيضاً إلى برنامج أدبي أسبوعي كان ينتظره ساعة بساعة من راديو القاهرة: " لغتنا الجميلة" من إعداد وتقديم الشاعر المصري فاروق شوشه. هذا الأديب المبدع الذي أصبح فيما بعد المدير العام للإذاعة والتلفزيون في مصر كان يريد أن يقول للمستمعين العرب, كما صرح ذات مرة: "نعم, خسرنا حرب 1967 شر خسارة, ولكن لدينا من الحضارة والتراث ما يجعلنا نواصل المسيرة مرفوعي الرأس حتى الجولة القادمة." كان يقرأ بصوته من أشعار المتنبي، أبي تمام، أحمد شوقي، وإبراهيم طوقان الخ ويقول بين فترة وأخرى "نعم, هذه حضارتكم.. لن تُهزموا على المدى البعيد!"

واصل حسن سرده لقصة الراديو التي لم تنته هنا: "بعد أسابيع دبر الوالد قروش الراديو الجديد, ولم تمر إلاّ بضعة أيام لنرى صائب يقف أمام أبيه متجمداً من الخوف, سليمان يصيح مهدداً, وعطاف: "لم يقصد.." وما كان من سليمان إلاّ أن رفع الجهاز فوق رأسه قبيل أن يرميه أرضا وصاح بزوجته متوسلا:

" حرام عليك, أرجوك, صرفت آخر قرش لشرائه.. أرجوك لا تقولي شيئاً." ظل يرفع الراديو فوق رأسه وكأن المسألة قدرية وحتمية, ولكن هذه المرة تحكم بأعصابه قليلا ولم يحطم الجهاز, كما حدث منذ أسابيع."

كانت عطاف مستعدة لتلقي الضربات التي كان أحد أبنائها مرشحا لها. في مثل هذه الأحوال كانت أعصابها قوية للغاية, ولكنها كانت ترتجف مرة في الأسبوع على الأقل عندما يتعلق الأمر بشخصها وعندما تثور أعصاب سليمان عليها بسبب طبخة غير موفقه أو أي شيء آخر, ولكنها كانت شجاعة للغاية إلى حد الرعونة في محطات أخرى.

صائب يحدثنا عن قصتها مع "خالد المجنون". كان عُمْر صائب أثناء مجريات هذه القصة لا يتجاوز العاشرة. ولكن قبل أن يأخذ صائب دوره في الكلام لا بد من بعض التوضيحات للذين لا يعرفون جنين وخالداً جيداً:

لا يعرف أحد في جنين أصل خالد، ومن أين جاء، وأغلب الظن أنه من اللاجئين, ويبدو أن أهله تخلوا عنه، وأصبح خلافاً لغيره من مجانين البلدة بلا حماية اجتماعية. خالد, وهو من الأشخاص المعروفين في جنين, يبلغ الثلاثين من العمر, بشرته بنية غامقة وهو أقرب إلى الطول من القصر، شعرة مقصوص على الصفر. أبو الصادق أحد المسلمين الأتقياء يحرص على كسوته بجلابية تشبه الكيس. مشيته عجيبة غريبة فهو يحرك جذعه إلى أعلى ثم إلى اليمين, الى أسفل ثم إلى الشمال والأعلى وهكذا دواليك. لم يُعرف شخص في المنطقة يمشي هكذا ولكي يتخيل القاريء مشيته يخطر على البال أنها تشبه إلى حد كبير سباحة شخص يعمل حركات سباحة الكراول (Crawl (في الهواء. وإذا تمعن المرء في تقاسيم وجه خالد فإنه سيرى شخصاً وسيماً, ولكن تعابير وجهه وتصرفاته وبؤسه كانت تصرف الأنظار عن وسامته تماماً. كان يجد صعوبة في الكلام وفي مخارج بعض الحروف؛ خاصة الألف والباء والفاء كانت تستعصي عليه فكان يمدها بشكل غير مألوف. لم يسمع المرء قط جملة مفيدة منه. فقط الأشخاص الذين يتمتعون بقسط وافر من الذكاء كانوا يفهمون ما يتفوه به خالد.

الأنظار تتجه حالاً إلى خالد بعد أن يخطو أول خطوة في الطريق من خلال مشيته اللولبية الفريدة, ولكن الكبار في السن تعودوا على الرجل وأصبحوا ينظرون اليه ببعض الارتياح والتعاطف, فهو إذا تركه المرء وشأنه لا يصيب أحداً بسوء. ولكن الأطفال بين سن العاشرة والثالثة عشرة يشكلون أعداءه الطبيعيين على شرط أن يزيد عددهم على الأربعة.

وإذا شاهدوه قادماً من بعيد فإن المعركة ستندلع عن قريب. الأطفال يبدأون بإشعال النار عندما يرددون وهم يقفزون ويركضون من هنا لهناك: "خالد يا أهبل.. خالد يا مجنون.." ثم يثقلون العيار ويشرعون برمي الحجارة عليه. في هذه اللحظة كانت تبدأ المعركة, فخالد كان يدافع عن نفسه

بشراسة منقطعة النظير. كان هذا الشاب القوي المشدود العضلات لا يتوقف عن رميهم بالحجارة, ولحسن الحظ أنه لا يجيد التصويب وإلاّ لأصيب بعض الأطفال بجراح خطيرة.
الأطفال كانوا يريدون الانتصار عليه، وكانوا يربحون أحياناً. الانتصار كان يتحقق في لحظة ما عندما يتكاثر الأطفال ويتضاعف وابل الحجار، وخاصة عندما كان خالد يمزق ملابسه ويسير في الشوارع وهو عارٍ كما خلقته أمه؛ ولكنه كان يواصل قذفهم بالحجارة ويصيح مردداً كلمات غير مفهومة والزبد يتطاير من فمه. النساء كن يشققن الباب ليلقين نظرة على هذا الجسد الرياضي, البرونزي والعاري تماما ويسترقن النظرات إلى عضوه العظيم ويرددن ببعض الخجل المفتعل: يي ...يي.. ولْ... لماذا لا يفعل أحد شيئاً؟

والآن نعود الى قصة صائب عن عطاف وخالد المجنون. صائب بدأ يروي القصة التي عاشها شخصياً لأخوته الخمسة وأخته أنيسة وفي حضور بعض أطفالهم:
"بعيد معركة من هذا النوع عدت إلى البيت". لم يفصح ما إذا كان شارك في هذا الصراع البربري أم لا. أخوه وضاح كان يرغب في سماع جواب واضح, ولكن صائب تهرب، خاصة أن ولديه كانا يجلسان بالقرب منه، وكان لا يود أن يعترف أمامهما أنه كان أثناء طفولته لا يخلو من القسوة وقلة الحياء. بيد أن صائب أكد أنه هنا لا يسعى إلى سرد الكثير من تفاصيل المواجهة المؤلمة وإنما إلى تناول موقف عطاف وكيف تصرفت إزاء خالد الذي لم يخلع ملابسة في هذه الجولة, ولكن منظره كان يبعث الخوف في الأوصال وعيناه كانتا تقدحان شرراً.
ومضى صائب قائلا: "كان ذلك اليوم خمسينياً وكادت درجة الحرارة تصل إلى الأربعين. دخلت إلى البيت راكضاً وكان الدم ينزف من أصبع قدمي, ولكن والدتي لم تكترث به, لأنها لاحظت بسرعة أن الجرح كان طفيفاً وسطحياً, وبدلاً من اهتمامها بي خرجت إلى الشارع وأمسكت في غاية الهدوء بساعد خالد وقالت له: "تفضل يا خوي سأعد لك وجبة طيبة." لم أستطع أن أتخيل من أين لأمي مثل هذه الجرأة, فقد كان خالد في قمة غضبه. أمي ظلّت هادئة للغاية. خالد أكل وجبته بشراهة وشرب أكثر من لتر من الماء البارد, ثم استسلم للنوم, وعندما استيقظ غادر البيت دون أن ينطق بكلمة واحدة.
والدي أخذ يهز رأسه عندما رويت له القصة فيما بعد. أحسست من نظراته وحركة رأسه أنه كان فخوراً بها."

عطاف لم تكن فخورة بما فعلت ولم تحدث جاراتها عن الموضوع, ولو سُئِلت لقالت: لا يوجد ما يستحق الذكر. رجل كان جائعاً, ملاحقاً, عطشان، ومرهقاً, فلا مفر أمامك سوى أن تشبعي جوعه وتروي عطشه وأن تبعثي الهدوء في أوصاله، الله يكون بعونه.
ليس من المستبعد أنّ سليمان كان سيتصرف بنفس الطريقة التي تصرفت بها عطاف, ولكنه كان سيروي القصة غير مرة وفي أكثر من مقهى، فهو يعمل بين الفيْنة والأخرى الخير ولكنه يحب أن يستفيض في الكلام عنه. وخلافا لعطاف لم يكن سليمان محدثاً بارعاً فحسب, بل كان يهوى في بعض الأحيان الإفاضة في الحديث.

عطاف كانت حتى نهاية الخمسينات محجبة وبالتحديد كانت ترتدي منديلاً رقيقاً يغطي رأسها ووجهها. وفي مطلع الستينات خلعته كمعظم النساء في جنين في تلك المرحلة. يبدو أن النفس الوطني والتحرري الذي جاء به جمال عبد الناصر كان جارفاً خاصة بعد تأميم قناة السويس. عبد الناصر كان يرفع علم الحداثة دون أن يطلب من الناس أن يتخلوا عن جذورهم وتاريخهم كما فعل كمال أتاتورك في تركيا.
ولم تكتف عطاف التي تجاوز عمرها الخمسين آنذاك بالتخلص من الحجاب، بل كانت تسير في الشارع وقد لونت شفتيها باللون الأحمر وصبغت شعرها وسرحته على أحدث نمط. أصبحت تبدو وكأن عمرها لم يتجاوز الأربعين.
هذا التحرر لم يكن يعني أنها أخذت تنافس سليمان على قيادة العائلة, فقد كان الأمر حسب التقاليد محسوماً لصالح الرجل. كانت تتقبل في معظم الحالات الظلم الذي يلحق بها من طرفه, لأنها كانت تعي أنها لن تحصّل حقها من هذا الرجل القوي . وعندما اقترب الاثنان من الشيخوخة بدأ سليمان يخسر الكثير من بريقه, خاصة وأن شباب العائلة أصبحوا يتحملون كافة المصاريف. في الآونة الأخيرة خفّ سمعه وكان يمشي أحيانا دون هدف. لاحظ بسرعة أن عطاف لم تعد تخشى نوباته العصبية فقد كانت لا تحرك ساكناً حين يثور, وربما خففت ردود فعلها هذه من انفعالاته. لم تعد تجري كالدجاجة المذبوحة لكي تحقق له كل ما يصبو إليه. ولكنها لم تكن من نوع النساء الذي ينتقم من الرجال عندما تنكسر شوكتهم – على الرغم من أنه كان يستحق ذلك – غير أنها أصبحت تتجاهله أحيانا وتقول له: "تعبانة, اعمل قهوتك بنفسك, فأنا الآن مرهقة." وفي بعض الأحيان كان يفعل ذلك دون مقاومة وفي أحيان أخرى كان يقول: "عُمْرُه ما حدا شرب."

كان معظم أبنائهما في الخارج, فهم يدرسون في ألمانيا وإسبانيا ومصر والبعض الآخر يعمل في الكويت، والبنات تزوجن, ولذا كانت عطاف تقضي وقتاً طويلاً مع سليمان. الحديث يجر بعضه – كما يقول المثل – سليمان بدأ يتحسر على أيام طفولته وغنى والده. دفعة واحدة نظر اليها بحدة وقال لها: "طالب أبوك هو الذي قتل والدي ونهب ثروته." عطاف كانت وقتئذ في منتصف الستينات. لم تعد تتحمل الإهانة وأن يُتهم والدها بالإجرام. ولأول مرة في حياتها استولى عليها الغضب الجارف فرفعت عصا سليمان الغليظة, رفعتها وصوبت على رأس سليمان. كان بحاجة إلى أن يستفزها قليلا لتهوي بها على رأسه. ولكن سليمان حنا رأسه، وأخذ يضحك بطريقة هستيرية: "يا مرة, ماذا دهاك."

لقد احتاجت إلى خمسين عاما لتتحرر من وزنه الثقيل الذي كان في كثير من الأحيان يضغط كيانها إلى الأسفل.

بعد أيام قليلة من هذا الحادث توقف قلب عطاف عن الخفقان ولقيت نحبها في الواحد من يونيو 1976. ماتت بسرعة. اختفت هذه المرأة التي كانت كالظل, تخدم كل من حولها دون تبجح وانسحبت بخفة ظلها وروحها دون أن يلاحظ أحد أنها ذهبت. لم تتعذب طويلا ولم تعذب أحبابها معها, ماتت كما كانت في حياتها: سيدة مناضلة قليلة الكلام ولديها القدرة أن تملأ الدنيا محبة وحناناً.

أصغر أبنائها وضاح كان آنذاك معتقلاً سياسياً في سجن جنين. سلطة الاحتلال لم تسمح له بالمشاركة في جنازتها. إكراماً للسجين ولأمه سار خلف نعشها معظم رجال البلدة.

ليس من السهل أن يصف المرء مدى ألم سليمان وخسارته لرفيقة حياته. كان يقول إنه يشعر أن رجليه ويديه بُترت, ولعل ذلك الوصف صحيح أيضاً في معناه الحرفي, فقد خدمته عطاف مدى حياته. في إحدى قصائده يتغنى بها على النحو التالي:

إذا ما فقدتُ اليومَ نِصفي فمن تُرى يقومُ بأعبائي، وضَعفي سيمنعُ
وكيف أرى حالي إذا ما تألَّبتْ صروفُ الليالي؟ هل بغيرِكِ أدفعُ

أصبح سليمان وحيداً حقاً. حزنه صادق, ولكن ذلك لم يمنعه أن يلتهم قطعة كبيرة من حلوى الكُلاّج التي صنعتها عطاف قبيل وفاتها. كان يأكل والدموع تسيل من عينية وأخذ يردد: "من الذي سيعمل لي مثل هذا الكلاّج الرائع بعد ذهابها. لا يستطيع أحد أن يجاريها في هذا المضمار."

ويمضي في رثائها ويقول:

سأبقى أنوحُ الدهرَ، أبكيكِ يا منى   فؤادي، وفيكِ الفضلُ والحبُّ أجمعُ

ولكن "نواح الدهر" لم يمنعه بعد نصف سنه من وفاتها من البحث عن عروس جديدة. بيد أنه أكد أنه لا يقصد المتعة, فقد باح لابنه حسن أن الجنس لا يلعب دوراً في هذا الشأن, واضاف: "أقسم بالله أن الرغبة الجنسية لدي لا تستحق الذكر." وفي الصباح عندما أستيقظ لا أستطيع أن أحسم ما إذا كان الانتصاب في بنطلون بيجامتي يعود إلى فحولتي أو إلى الرغبة الملحة في الدخول إلى المرحاض. وفي هذا الإطار أؤكد لك أن الشائعات التي يتناقلها إخوتك زوراً وبهتاناً، ومفادها أن شبق الشيخوخة هو المحرك الرئيسي لمشروع زواجي لا أساس لها من الصحة. كل ما في الأمر أنني لا أستطيع أن أتحمل الوحدة, وبالإضافة إلى ذلك لقد هرمت، يا ولدي، فأنا بحاجة إلى إمرأة تعتني بي."

حسن لم ينف ولم يوافق على ما قاله سليمان, ولكنه أشار إلى ما قاله إخوته: "الشباب يقولون، إنك اخترت من الآن اسم "بيان" لطفلكما القادم. ألا تتفهم يا والدي أن هذا الأمر أعظم من طاقة أبنائك, فهم سيتحملون بعد وفاتك - بعد عمر طويل إن شاء الله — لسنوات كثيرة تكاليف امرأة أبيهم وابنك."

استغرب معظم الناس في جنين أن سليمان لم يتمكن من إقناع أولاده بمشروع زواجه, وقد ترددت على لسان أكثر من واحد من وجهاء البلد: "يا عيب الشوم، لديه ستة أولاد، ولكنهم — ويل لهم — غير قادرين على تقديم اللازم لخاتمة طيبة لحياة أبيهم مع زوجة كريمة تقوم به وباحتياجات كبره."

سليمان بذل مساعي متكررة لإقناع كل واحد من أبنائه بمشروع زواجه، ولكن هذه المحاولات باءت بالفشل. لقد بلغ عمر سليمان الآن السابعة والستين, وغني عن الذكر أنه كان رجلاً ساهم بهمة عالية في بناء عائلة كبيرة تتكون من عشرة أولاد (ستة ذكور وأربع إناث) وواحد وثلاثين حفيدة وحفيداً.

بيد أنه لم تتوفر له في نهاية المطاف غرفة في بيت إحدى بناته أو أحد أولاده، وذلك لأنهم جميعا كانوا آنذاك – كمعظم سكان المدن – يعيشون في شقق صغيرة. لم يسع "رب" العائلة الكبيرة سوى قضاء أيامه الأخيرة في فندق صغير في عمان, التي كان يمقتها طيلة حياته. كان يردد: "بعد موت عطاف لم يعد لي مكان في هذا العالم الكبير المتغير."

في الثالث عشر من ديسمبر 1978 قرر زيارة ابنة عمه "عناية" ليبارك لها بحجتها. لقد أعد مسبقاً كيف سيفتتح الكلام معها مازحاً, كان سيقول لها: "مبروك يا حاجة. الله جل جلاله يغفر للحجاج جميع ذنوبهم, ولكنك – يا ست عناية – بحاجة إلى عشر حجات لكي تُغفر لك ذنوبك التراكمية والتي لا حصر لها." لم يتمكن من الإعراب عن مزحته الثقيلة هذه مع الحاجة عناية. دق جرس الباب. فتحت الحاجة الباب ووجدته ممددا في الممر وقد فارقته الحياة: توقف أيضاً كعطاف قلبه عن الخفقان.

نعم, كان كتب في إحدى قصائده في رثاء عطاف أنه سيعجل الخطى للحاق بها.

عن قريبٍ، عطافُ، أرجو لِقانا   وهي لُقيا يدوم فيها التغني
طيَّب الله مرقداً أنت فيه   مَعَ أمي في رحمةٍ وتهني

وفي قصيدته الأخرى قال:

سأسرعُ في سيري إليكِ، وإنني   أجدُّ الخطى نحو الحبيبِ وأُوسِعُ

كان هذا شعراً لم يقصد بمعناه الحرفي, ولكن الحياة أخذت كلماته على محمل الجد.

الفهرس

الفصل الأول: رحلة حسن الأولى من ألمانيا إلى فلسطين وأحاديثه مع والده 5

الفصل الثاني: جذور عائلة سليمان – ولادة الطفل الأبهة 26

الفصل الثالث: سليمان يستولي على مطبخي عكا وحيفا 40

الفصل الرابع: الجريمة الغامضة وأبعادها الفظيعة 53

الفصل الخامس: سليمان بين بؤس كتابة الشعر وعروض الحال والمقاومة 68

الباب السادس: أبو عطا يسلّم علم العائلة لعطا 105

الباب السابع: سليمان يرشح نفسه لمجلس النواب 127

الفصل الثامن: سليمان يرفض الحلول الوسط مع الاحتلال 135

الفصل التاسع: موت عطاف 147